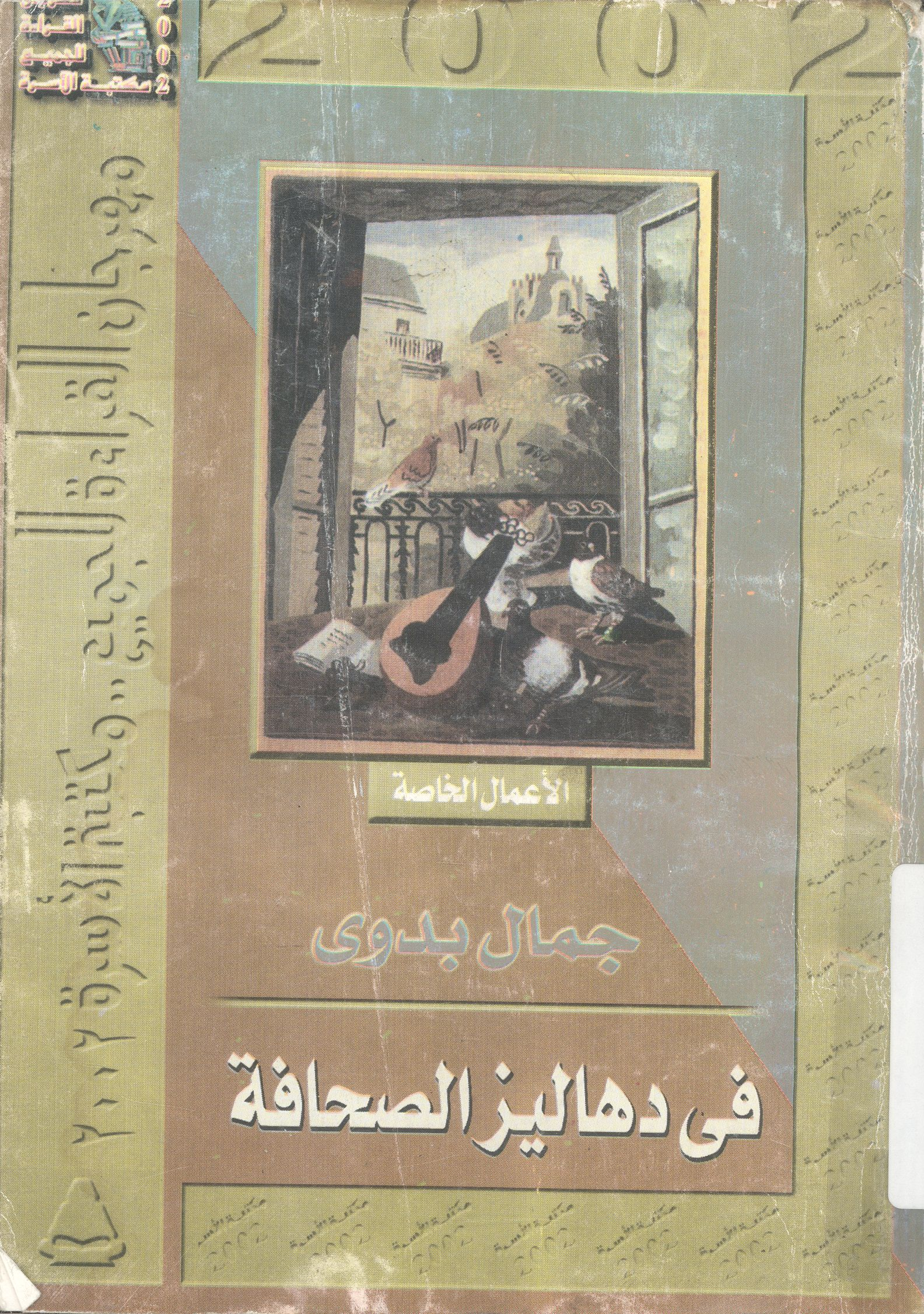

2002
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة
الأعمال الخاصة
جمال بدوى
فى دهاليز الصحافة

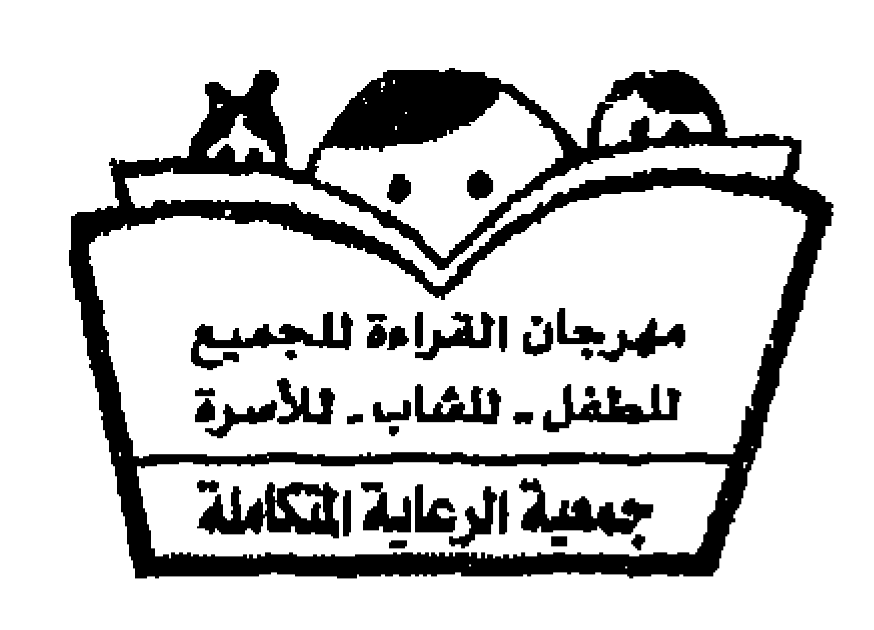
فى دهاليز الصحافة

ذكريات.. وخواطر

فى دهاليز الصحافة

ذكريات.. وخواطر

جمال بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

فى دهاليز الصحافة
ذكريات.. وخواطر
جمال بدوى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقــافــة
وزارة الإعــلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزار ة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص، ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تقديم

هذه فصول أقرب إلى الذكريات منها إلى التأريخ.. تروى مشاهد وأحداث استخرجتها من وعاء الذاكرة منذ دخلت بلاط صاحبة الجلالة قبل أربعة وأربعين عامًا، وتحققت لى رغبة جامحة كانت تسيطر على خيالى منذ تعلمت قراءة الصحف، وانشغل عقلى بثمرات العقول والأفكار، وتحول الخيال إلى حقيقة.. وصارت الصحافة بالنسبة لى رسالة حياة، ومجمع الأفكار والمبادئ التى آمنت بها، إلى جانب كونها مهنتى الوحيدة التى أتشرف بالانتساب إليها، وأدافع عن حريتها وكرامتها واستقلالها.

وقد كتبت هذه المقالات تلبية لدعوة عزيزة من صحيفة «الاتحاد الأماراتية وفاء لعلاقة حميمة تربطنى بها منذ أسهمت فى إصدارها، ودأبت على نشرها فى عمود أسبوعى.

وكل أملى أن تجد هذه الفصول - بعد أن صارت كتابا - قبولا عند جمهور القراء الذين يستهويهم تاريخ الصحافة، وما تعرضت

له من انتصارات وانكسارات، ؟ إيمانا بحرية الصحافة باعتبارها العمود الفقرى للحريات العامة.

والله من وراء القصد..

جمال بدوى

أكتوبر ٢٠٠٢

الإرهاصات الأولى

دخلت بلاط صاحبة الجلالة من بوابة القراء، قبل أن يخطر على بالى أن أكون صحفيًا، ففى سن العاشرة شغفت بقراءة كل ما يتسنى لى من صحف ومجلات. وقد أخذت هذه «العدوى» من ابن عم لى كان يكبرنى بثلاثين عاما ومشغولا بالسياسة ومعاركها، ونصيرا متشددا لحزب الوفد، كان فى الصباح يقتنى جميع الصحف من البائع الوحيد فى بلدتنا ثم يعيدها إليه آخر النهار مقابل قرش واحد، وبدأت عينى تتفتح على هذا العالم الواسع العريض خارج حدود قريتنا الصغيرة، وأدركت أن هناك قضايا أضخم وأكثر جاذبية من قضايانا المحلية المحدودة، وبدأ عقلى الصغير ينشغل بما يجرى فى المحيط المصرى والعالمى ويحفظ أسماء المشاهير من وزراء وزعماء، وصنعت لنفسى كراسة سجلت فيها أسماءهم ومراكزهم فكانت بمثابة أرشيف خاص أعود إليه عند اللزوم.

كنت فى الصف الثانى الثانوى عندما قرأت فى مجلة «المصور» حديثا مع ولى عهد أثيوبيا الأمير «اصفا وصن» تحدث عن هوايته الصحفية منذ كان يدرس فى لندن، وصنع لنفسه مجلة من ورقة واحدة يبث فيها خواطره وشجونه فكان «كاتبها وقارئها الوحيد». وأعجبتنى هذه العبارة وقلت لنفسى لماذا لا أفعل مثله فأخرجت ورقتين متقابلتين من كراسة الخرائط، وجعلت منها مجلة مدرسية تحوى أخبارا وحكايات وقفشات عن المدرسين والطلاب وانتقدت إهمال المسئولين فى المدرسة عن إصلاح نوافذ الفصول، وأبوابها المخلعة، والحديقة المهملة، وقذارة دورة المياه... إلخ وأخذت المجلة إلى المدرسة فتداولتها أيدى الطلبة والمدرسين، فرفعوا بها إلى ناظر المدرسة وكان مربيا جليلا اسمه سلامة بك الفقى، فاستدعانى وأبدى أعجابه بها، ووعد بإصلاح كل العيوب التى أشرت إليها، ثم قال لى: يبدو أنك ستكون صحفيا. قلت له: أتمنى .. ولكنها مجرد دعابة. فقال: ولكن الدعابة ستنقلب إلى جد.. وهذا أول الغيث.. ولماذا لا تكون صحفيا مادمت تملك الموهبة.. ثم.. إننى أقترح عليك أن تطبع هذه المجلة.. فالمدرسة فى حاجة إلى مجلة.. وبلدتكم «بسيون» تحتاج إلى صحيفة محلية تتبنى مشاكلها.. ولو بدأت الخطوة الأولى فسوف تجد الطريق أمامك سهلا ومن ناحيتى سوف أشجع المدرسين والطلاب على شراء المجلة.

بدأت الفكرة تلمع فى ذهنى وأخذت أستكتب المدرسين مقالات كانت أشبه بالمواعظ التربوية، وقصائد شعر وقصص.. واتجهت

إلى أصدقائى خارج المدرسة، وكنا نشكل مجموعة أدبية، وكان معظمهم يكتبون «الزجل» النقدى فى أحوال المجتمع وإهمال عمال البلدية فى القيام بواجبهم نحو المرافق العامة، وتفرغ بعضهم لجلب إعلانات من كبار التجار حتى تجمع لدينا مبلغ عشرة جنيهات ومثلها تحت الحساب أى الدفع بعد النشر.

أخذت المواد وانطلقت إلى مدينة كفر الزيات، وقدمتها إلى صاحب مطبعة يدوية ليطبع لنا ألف عدد فى ثمانى صفحات فى حجم «التابلويد» فقبل أخذ الجنيهات العشرة على أن أسدد إليه خمسة جنيهات بعد التوزيع وجعلت عنوان المجلة «المجد» وكتبت تحتها أنها رسالة مدرسية ثقافية، حتى أتفادى صدورها بدون ترخيص، وكانت تكلفة الترخيص مائة وخمسين جنيها، وجعلت ثمنها عشرة مليمات، وصدر العدد الأول فاستقبله الناس استقبالا طيبا، فهذه هى المرة الأولى التى تصدر فيها صحيفة تنطق باسمهم، وكنت أسمع صوت البائع وهو ينادى عليها فى الشوارع فأشعر بالزهو والاعتزاز، وأقبل طلبة المدرسة على شرائها حتى نفذت الألف نسخة، وتوفر لنا مبلغ لا بأس به.

أقبل الصيف وانتهى الفصل الدراسى، ولكن أصدقائى أصروا على الاستمرار فى الصدور، فأصدرنا العدد الثانى وكان معظم مواده عن المشاكل المحلية. ولقى العدد ترحيبا من جميع الفئات، حتى أن مأمور قسم الشرطة، وكان رجلا نبيلا اسمه العميد شاهين حسن، أرسل إلى يطلب كمية من «المجد» لتوزيعها على

العمد والمشايخ والأعيان الذين يترددون على مكتبه ويفرض عليهم أن يدفعوا خمسة قروش وليس قرشا ثمنا للعدد، تشجيعا للشباب الذين صنعوا صحافة محلية لأول مرة فى تاريخ بلدتهم.

وأصدرت من مجلة «المجد» أربعة أعداد كانت هى الإرهاصات الأولية التى قادتنى إلى بلاط صاحبة الجلالة.. كانت التجربة بدائية وساذجة ولكنها كانت مفيدة فمن خلالها بدأت أشم رائحة حبر المطبعة لأول مرة، وهى الرائحة التى بقيت محفورة فى خياشيمى حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور وفوق هذه القنطرة الضعيفة مضيت إلى صرح الصحافة.

بعد أن انتقلت إلى طنطا لاستكمال التعليم الثانوى جرفتنى موجة السياسة إلى المعتقل قبل أن أحصل على شهادة التوجيهية وفى المعتقل وقعت فى يدى قصاصة من صحيفة قرأت فيها أن كلية الاداب بجامعة القاهرة بصدد تحويل المعهد العالى للصحافة، إلى قسم من أقسام الكلية، وبقيت المعلومة مخزونة فى ذاكرتى حتى غادرت المعتقل وحصلت على التوجيهية والتحقت بكلية الاداب فقدموا إلينا بيانا بأسماء الأقسام لاختيار أحدها وتوقفت أمام قسمى التاريخ والصحافة ووجدت ميلاً إلى قسم التاريخ ولكننى قلت لنفسى أننى أستطيع تحصيل علوم التاريخ عن طريق القراءة الحرة ولكننى لن أستطيع أن أصبح صحفيا إلا عن طريق الدراسة الأكاديمية والممارسة العملية وكان ما كان واستقر عزمى على دخول قسم الصحافة.

وظلت بقايا أعداد من مجلة «المجد» محفوظة فى أرشيفى الخاص حتى قدمتها إلى الأستاذ مصطفى أمين عندما جاء إلى الكلية وطلب الينا أن نكتب بيانات عن ظروفنا الشخصية واعتقد أن «المجد» كانت من بين مسوغات دخولى بلاط صاحبة الجلالة صحيح أنها كانت محاولة بدائية وساذجة ولكن لا يمكن اغفال هذه اللبنات الأولى فى مشروع بناء الصحفى.

بين يدى مصطفى أمين

دخلنا مدرج «٤٢» المخصص لقسم الصحافة بكلية الآداب، فوجدنا الصحفى الكبير مصطفى أمين جالساً على منصة التدريس، قال إنه لن يلقى علينا محاضرات أو دروسا نظرية، ولكنه سيكلفنا بدراسات عملية نتدرب من خلالها على ممارسة المهنة، ولن يعقد لنا امتحانات، وإنما سيمنح الفائزين جوائز مالية، ثم أردف قائلا إنه يريد أن يعرفنا معرفة شخصية، وطلب أن يكتب كل طالب بيانا عن حياته وظروفه. ووعدد بفتح الباب أمام الكفاءات للالتحاق بدار أخبار اليوم.

•• وعندما عدت إلى البيت كتبت المعلومات التقليدية مثل السن ومكان الميلاد، أما الحالة الاجتماعية فقلت عنها: ليس فى حياتى ما يستحق الذكر، وفى المحاضرة التالية فوجئت بمصطفى أمين يحمل بعنف على الطالب الذى زعم أن حياته ليس فيها أحداث تستحق الذكر، وقال إنه لا يصلح أن يكون صحفيا، وعليه أن يبحث

له عن مهنة أخرى، فإذا كان قد أمضى من حياته خمسا وعشرين سنة ولم يشعر بأهميتها، فمعنى ذلك ـ إذا صار صحفيا ـ أن يعود خالى الوفاض من عمله اليومى، وسيعود إلى الجريدة ليقول أنه لم يجد عند مصادره الخبرية ما يستحق الذكر «!!».

واستفزتنى قسوة مصطفى أمين، رغم أنه لم يذكرنى بالاسم، فعكفت على كتابة أربع صفحات لخصت فيها أهم الأحداث فى حياتى، وتحريت فيها الصدق فجاءت أشبه بأدب الاعتراف، وطبعتها على الآلة الكاتبة فى مكتب تجارى، ووضعتها فى مظروف كبير، وأرفقت معها نسخا من مجلة «صوت الجامعة» التى أصدرناها فى الصف الأول، وبعض النسخ من مجلة «المجد» التى كنت أصدرها حين كنت طالبا فى المرحلة الثانوية، وذهبت إلى مكتب الاستعلامات بدار أخبار اليوم، وتركتها لدى الموظف المختص ومضيت إلى بيتى.

•• فى المحاضرة التالية استهل مصطفى أمين حديثه عن ذلك الطالب المجهول الذى قال إن حياته ليس فيها ما يستحق الذكر، وقال إن حملته قد أثمرت، فقد قدم له الطالب سيرة شخصية تبشر بميلاد صحفى مرموق وإنه يتوقع لهذا الطالب مستقبلا مزهرا فى بلاط صاحبة الجلالة، وأخذ كل الزملاء ينظرون حولهم بحثا عن هذا الطالب، وكنت الوحيد الذى يعرف أنه المقصود لأنه كان يتكلم وفى يده المظروف الذى يحمل أوراقى، ومضى مصطفى أمين فى حديثه مستخدما أسلوب التشويق والاثارة إلى أن نطق

باسمى فدوى المدرج بالتصفيق، وتوجهت نحوى عيون الزملاء والزميلات وقد ارتسمت على وجوههم علامات السرور، بينما كان العرق يتصبب من كل خلايا جسمى، وبعد ان هدأت عاصفة التصفيق استطرد مصطفى أمين فقال: لقد وعدتكم بمنح جائزة مالية لصاحب أفضل بحث، وأقول لكم الآن ان الصفحات التى كتبها، زميلكم تستحق الجائزة فنهضت من مقعدى وتقدمت لأتسلم من الرجل الجائزة وقدرها عشرون جنيها.

•• كان البحث العملى الثانى الذى كلفنا به مصطفى أمين هو أن يقوم كل طالب بإعداد مجلة عن بيته وكنت فى ذلك الحين أعيش حياة العزوبية مع بعض الأصدقاء فى شقة بالجيزة كانت ملتقى الأهل والأقارب الوافدين من الريف، فاعددت مجلة من ثمانى صفحات على ورق مقوى. وتخيرت أن يكون تصميمها على نمط مجلة «آخر لحظة» التى كانت تصدر قبل سنوات فى شكل التابلويد كملحق لمجلة «آخر ساعة». وضمنتها أخباراً وتحقيقات مصورة ورسوما كاريكاتورية ساخرة عن مجتمع الأسرة. ووضعت فوق الخبر الرئيسى «مانشيت» باللون الأحمر نصه «سرقنا شركة النور» ذلك إن الشركة أصرت على تغيير عداد الكهرباء، ولم تحفل بالرصيد المتراكم على العداد القديم، وبذلك ضاعت عليها مستحقات مالية بسبب البيروقراطية العقيمة.

•• وذهبت إلى أخبار اليوم، واستقبلنى مصطفى أمين - لأول مرة - فى مكتبه وقدمت له المجلة فإذا به يتفحصها بإعجاب

ودهشة، وكان يقف إلى جواره نائب رئيس التحرير عبدالسلام داود، فيقول له: انظر يا عبدالسلام. إنها صورة عن آخر لحظة.. وجاء مصطفى أمين إلى المدرج وفى حوزته كل مجلات «البيت» التى أعدها الزملاء. ثم بدأ الحديث باعلان اعجابه بالنموذج الذى قمت به، وقال إنه يكشف عن موهبة صحفية سيكون لها شأن.. واسترسل فى الإشادة بكلمات أجد حرجا فى ذكرها الآن. ويكفينى أنه ختم حديثه بعبارة لا تزال ترن فى أذنى، واعتبرها وساما أعتز به. فقد قال: أتمنى لو أننى أستطيع طبع هذه المجلة. وأعلن أنها تستحق الجائزة الأولى وقدرها عشرون جنيها، ومنح عددا من الزملاء جوائز قيمة كل منها خمسة جنيهات. وأذكر إننى استخدمت المبلغ فى شراء آلة تصوير.

●● فى نهاية العام الدراسى، وفى آخر يوم من أيام الامتحانات، أبلغنى أحد الزملاء أن مصطفى أمين يطلب منى الذهاب إليه فى مكتبه، ولبيت الدعوة فإذا به يسألنى عن نشاطى فى الاجازة الصيفية، فلما قلت له أننى سأعود إلى القرية استنكر منى هذا القول، وفاجأنى قائلا: لا.. لا.. مكانك هنا فى أخبار اليوم.. ستعمل من الآن فى جريدة الأخبار. وسأمنحك مكافأة شهرية قدرها إثنا عشرة جنيها قابلة للزيادة فى أى وقت. ولا أريدك أن تحمل هموم المرتب. وإذا احتجت لأى شىء كلمنى فورا. وقبل أن أشكره على صنيعه الكريم، رفع سماعة التليفون وقال لأحمد زين رئيس قسم الأخبار، سأبعث إليك بأحسن طالب عندى فى «كلية» الصحافة لكى تعهد إليه بالعمل فورا.. فقلت له أن لى معرفة

سابقة بعبد السلام داود فى أخبار الناس، وأننى أفضل العمل معه، إلا أنه اعترض لأنه كان يرى أن قسم الأخبار هو الورشة العملية للتدريب وتخريج الصحفى المتمرس.

•• لم أشعر بارتياح للعمل مع أحمد زين، لأنه كان يتعامل معى بشىء من العجرفة والتكبر، على خلاف عبد السلام داود الذى كان انسانا بمعنى الكلمة. وفشلت محاولاتى للتكيف مع العمل فى قسم الأخبار فصعدت إلى مصطفى أمين وصارحته بشعورى. وطلبت منه نقلى للعمل فى قسم الاخراج الصحفى، وإذا بمصطفى أمين ينهرنى بشدة، ويلومنى لوما عنيفا. ويصفنى بالغباء لأننى أحفر قبرى بيدى لأن العمل فى الاخراج يبعد الصحفى عن الأضواء. فأفهمته أننى أريد دراسة العملية الصحفية بكافة مراحلها، وأن العمل فى الاخراج سيتيح لى النزول إلى المطبعة ومعرفة مراحل الولادة الصحفية. وأمام اصرارى وافق مصطفى أمين على مضض. ومكثت فى قسم الاخراج قرابة عام، تمكنت خلاله من معايشة العملية الصحفية من بدايتها إلى أن تستوى الصحيفة كائنا حيا تحمله السيارات إلى أيدى القراء. كما أتيح لى التعرف على كبار الكتاب والصحفيين الذين كنت أتسلم أعمالهم وأرسمها على الماكيت وفجأة.. حدثت القارعة التى أصابت المجتمع الصحفى بالدوار والاضطراب.. ففى يوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ صدر قرار بتأميم دور الصحف الكبرى.. ودخلنا فى دوامة ليس لها قرار.

أول القصيدة.. سجن!!

كدت أدخل السجن وأنا أخطو أولى خطواتى فى بلاط صاحبة الجلالة. وذلك بسبب فاتن حمامة وسامية جمال. رغم أن التخصص فى شؤون الفن والفنانين لم يكن من أهدافى، ولكن طبيعة العمل فى قسم التحقيقات الصحفيه الذى ألحقت به كان يقتضى تغطية كل مجالات النشاط العام. وكانت الحكومة بصدد إجراء أول تعداد عام للسكان فى مصر. وأعدت لذلك استمارة استبيان تشمل إحصاء النفوس والممتلكات، ومهدت بحملة اعلامية فى الصحف والإذاعة تؤكد للمواطنين أن البيانات سرية وغير قابلة للنشر حتى يطمئن الناس ويدلوا بما لديهم من معلومات دون حرج. وجندت للاحصاء جيشا من الموظفين للطواف على البيوت خلال ٢٤ ساعة هى مدة التعداد.

واتفقت مع إحدى اللجان التى تطوف حى الزمالك الراقى حيث يقيم المشاهير، ورافقت أعضاء اللجنة أثناء حصولهم على البيانات.

وصعدنا عمارة «ليبون» الشهيرة وطرقنا الباب على سيدة الشاشة العربية فاتن حمامة فاستقبلتنا بوجه بشوش.. وجلست إلى جوارها وأخذت اكتب فى مفكرتى إجابتها على الأسئلة المحررة فى الاستمارة وأهمها السن والمؤهلات الدراسية والحالة الاجتماعية. ولم تعترض فاتن على وجودى ومعى زميلى المصور الذى التقط لها عدة صور أثناء الجلسة. وتكرر نفس الشىء مع السيدة سامية جمال التى كانت تقيم بنفس العمارة. وعدت إلى صحيفة «الأخبار» وقد تصورت أننى حصلت على صيد صحفى ثمين.. وصدرت الصحيفة فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الثالثة كافة الصور والبيانات الشخصية عن الفنانتين الكبيرتين. وانهالت على التهانى من الزملاء والرؤساء لهذا الانجاز الصحفى العظيم. لكن الفرحة لم تتم، فما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى جاءنى ضابط من قسم شرطة بولاق وفى يده بلاغ اتهام من النيابة العامة وقرار ضبط واحضار للتحقيق معى بتهمة أفشاء أسرار محظور نشرها وهى جريمة عقوبتها السجن سنة على ما أذكر «!!».

وفزعت إلى نائب رئيس التحرير المرحوم الأستاذ أحمد لطفى حسونة، وكان يعمل فى نفس الوقت مستشارا قانونياً لدار أخبار اليوم فطلب منى المبادرة بالذهاب إلى الفنانتين - قبل الذهاب إلى سراى النيابة - واحصل منهما على اقرار خطى من كل منهما يتضمن عدم الاعتراض على النشر. وأن الحصول على المعلومات المنشورة تم بالرضا وليس بالتحايل.

وذهبت إلى فاتن حمامة، وشرحت لها المأزق الذى وقعت فيه، وفوجئت بها تغرق فى الضحك ثم تقول، لن أعطيك الاقرار المطلوب كى أراك فى بدلة السجن الزرقاء، وتقبلت دعابتها، ولكنها لم تتردد فى تحرير الاقرار المطلوب بنفس الصيغة التى أمليتها عليها.. ثم وقعت عليه بامضائها.. وحملت الاقرار وأنا اتصور أن نصف مدة الحبس قد انزاحت عن كاهلى.. ومضيت إلى شقة سامية جمال، وضغطت على جرس الباب. ثم قلت للسيدة التى فتحت لى الباب، ممكن أقابل الست سامية جمال؟ فإذا بها تفاجئنى أنا سامية جمال«!!».

وشعرت بأن الأرض تميد من تحت أقدامى، والعرق يتصبب من جبينى لهذا الموقف المحرج. ولمت نفسى على قلة الذوق.. وكان عذرى أن ملامح السيدة سامية جمال. بدون مكياج. تختلف تماما عن تلك السيدة التى كانت تجلس معنا بالأمس وهى فى كامل زينتها. وأدركت لماذا يفرض المنتجون فى ستوديوهات هوليود حصارا حديدياً على نجمات السينما، ويحولون دون تصويرهن بدون مكياج حتى لا يطلع الجمهور على أشكالهن الحقيقية.

وقادتنى سامية جمال إلى غرفة الصالون. وشرحت لها الموقف، وقدمت لها صيغة الاقرار، فأخذته دون أن تنظر فيه وطرحته جانبا وقالت أنها سوف تكتبه بعد أن تعرض الأمر على محاميها الخاص. وعبثا حاولت اقناعها بأن الأمر لا يحتاج إلى استشارة قانونية طالما أنها موافقة على المبدأ. فأصرت على موقفها. وطلبت منى العودة

بعد يوم أو يومين لأخذ الاقرار. فعدت إلى أخبار اليوم وأخبرت الأستاذ لطفى حسونة بما جرى. فطلب منى التغيب عن الجريدة خلال هذه المدة حتى لا يقبض على.

وأخذت أتردد على بيت سامية جمال ثلاث مرات، وفى كل مرة كانت وصيفتها تبلغنى أن الأمر لا يزال معروضا على المستشار القانونى، ولاح لى أن أسأل الوصيفة عن سر هذا الاحتياط الشديد مع أن الأمر لا يتطلب أكثر من توقيعها على صيغة الاقرار.. فإذا بها تفاجئنى بأن الست مضطرة لأنها تجهل القراءة والكتابة«!!».

وكان وقع المفاجأة الثانية لا يقل عن المفاجأة الأولى. وتعجبت كيف تظل هذه الفنانة الكبيرة على جهل بالقراءة والكتابة. مع أننى أسمع أنها تتكلم بالإنجليزية والفرنسية، وسبق لها الزواج من شخص أميركى اسمه «عبد الله كنج» وعاشت معه فترة فى أميركا حتى ينفتح أمامها الطريق إلى ستديوهات هوليود.. وعندما سألت ذوى الاختصاص عن هذا التناقض قالوا أنها فعلا تعلمت الإنجليزية فى سن متأخرة، وفاتها أن تتعلم العربية. وفى المرة الرابعة أخذت الاقرار وكان مطبوعا على ورقة من مكتب المحامى وممهوراً بتوقيعها. فأسرعت به إلى لطفى حسونة فنهض معى إلى مكتب وكيل النيابة. وقدم له الاقرارين، وطلب اسقاط التهمة لأننى

تصرفت بحسن نية ولم أتعمد إفشاء أسرار خطيرة. ولا يمكن اعتبار سن الفنانين من الأسرار التى لا يجوز نشرها بل هى من المعلومات المتداولة فى الصحف الفنية، واقتنع وكل النيابة بدفاع الأستاذ حسونة. فأمر بإطلاق سراحى من سراى النيابة مع نصيحة بعدم الاستخفاف بالقرارات التى تصدرها جهات حكومية بقصد الصالح العام.. وإلا.. وقعت فى المحظور«!!».

نجم سينما.. مع وقف التنفيذ

كان من المتوقع أن أكون نجما سينمائيًا مثل عماد حمدى وشكرى سرحان، لولا الانقلاب العسكرى الذى قام فى العراق يوم ١٤ يوليو ١٩٥٨، فأحبط المخطط، وأفسد البرامج، وأطاح بالطموحات.

كنت وقتها طالبا بالسنة الأولى بقسم الصحافة فى جامعة القاهرة. وكنت متعجلا الدخول إلى بلاط صاحبة الجلالة، وفشلت محاولتى فى الالتحاق بمجلة «روزاليوسف» للتدريب، وعندئذ اتجهت إلى اصدار مجلة «صوت الجامعة» المخصصة لتدريب طلبة القسم ولكنها كانت معطلة، ولم يسأل أحد لماذا تعطلت، واكتشفت أنها تملك رصيدا لا بأس به من ورق الطباعة، ومخصص له غرفة كبيرة مزودة بجهاز تيكرز تابع لوكالة «رويتر» ولكنه لا يمس «!!» عندئذ اتجهت إلى بعض زملائى فى القسم واستنهضت همتهم وحماسهم، وقررنا الاعتماد على أنفسنا لإصدار المجلة، وأبلغنا

بذلك رئيس القسم المرحوم الدكتور عبداللطيف حمزة، وكان رجلا عظيما يتمتع بروح أبوية عالية، فرحب بالفكرة، وترك لنا حرية العمل.

بدأنا بتقسيم العمل بيننا.. تفرغ البعض لجلب الأخبار وعمل التحقيقات الصحفية والتصوير، وتخصص بعضنا فى الأخراج، واتجه البعض إلى جلب الإعلانات كى نغطى تكاليف الطبع، واتفقنا مع مطبعة صحيفة «القاهرة» القديمة على أن تطبع المجلة ثم تقبض مستحقاتها من حصيلة التوزيع والإعلانات، ودبت الحركة فى داخل القسم. وانضم إلينا زملاء من الفرق المتقدمة بعد أن لمسوا جدية العمل كان منهم وجيه أبوزكرى وصلاح حافظ وسامى خشبة وآخرون. حتى صدر العدد الأول فقام قسم التوزيع من الطلبة والطالبات بالطواف على الكليات فتخاطفته أيدى الطلاب والأساتذة. وأذكر أن رئيس الجامعة - المرحوم الدكتور مصطفى السعيد - دفع عشرة جنيهات على سبيل التشجيع، وبدأنا فى تحصيل قيمة الإعلانات، وقمنا بتسديد تكاليف الطبع قبل أن نقدم للمطبعة مواد العدد الثانى، وعندما حلت الإجازة الصيفية وتوقفت الدراسة، لم نتوقف عن إصدار المجلة بعد أن جرفتنا موجة الحماس. فعهدنا بتوزيعها إلى إحدى الشركات المتخصصة، ووجدنا فى عملنا لذة كبرى، وتعويضا عن الإحباط الذى أصابنا من جانب الصحف الكبرى التى أوصدت أبوابها فى وجوهنا وكانت فرصة طيبة للتدريب وممارسة كافة فنون العمل الصُحفى، حتى بلغ عدد الأعداد التى أصدرناها خمسة.

ولم تكن مواد المجلة مقصورة على النشاط الجامعى، بل تجاوزنا حدود الجامعة، وتناولنا المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والفنون، وقد خيل إلينا أننا قادرون على منافسة المجلات الكبرى، وقد انتشرت فى الصحافة المصرية وقتئذ موضة التخفى فى شخصيات مهنية حتى يتمكن الصحفى من سبر أغوار المشكلة التى يعالجها، فكان البعض يتخفى فى زى متسول أو سباك أو مريض.. واذكر أن الصحافة أثارت مشكلة مكاتب «الريجسير» التى يلجأ إليها هواة الفن السينمائى لتفتح لهم باب الظهور فى السينما. وما يشاع حولها من أقاويل أخلاقية، واقترح بعضنا أن نقتحم هذا العالم الغريب لنعرف ما يدور فيه من خبايا.. ورأيت أن أقوم بنفسى بهذه التجربة ومعى الزميلتان، نبيلة وسناء.. فذهبنا إلى مكتب للريجيسير فى وسط القاهرة، وقبل أن نذهب إلى المكتب طلبت منهما المكوث فى العمارة المواجهة - وكانت صحيفة الجمهورية - حتى استطلع الموقف قبل حدوث مفاجآت غير محمودة.

صعدت إلى المكتب، فى الدور الثانى، فوجدت الباب مفتوحا على مصراعيه. ويجلس أمامه شخص مفتول العضلات، منكوش الشعر، يرتدى قميصًا مزركشا بدون أزرار وقد تدلى كرشه عاريا، فلما ألقيت عليه السلام لم يرد. بل فاجأنى قائلاً، ما عندناش شغل «!!» فسألته عن مدير المكتب، وقبل أن أكمل السؤال قاطعنى، الأستاذ سافر ولن يعود قبل شهر. فأدركت أن المسألة أعقد مما أتصور، وحانت منى التفافة إلى الداخل فوجدت حشدا من الكومبارس يتكلمون فى نفس واحد.. وعدت إلى سناء ونبيلة،

ونقلت لهما صورة ما حدث.. فلقيت منهما أصرارا على الذهاب مهما كانت المعوقات.

وصعدنا نحن الثلاثة، ولم يكد البلطجى إياه يرانا حتى انتقض واقفا مثل عمود السوارى، وهو يرفع يده فوق حاجبه تعظيما واحتراما.. وتقدم ليفسح لنا الطريق بين أكوام البشر المكدسة فى الصالة.. ودخلنا إلى غرفة المدير بدون استئذان فرحب بنا ترحيبا شديدا.. وجلسنا فى غرفة أنيقة كل جدرانها مزينة بصور نجوم السينما.. وأفهمته أننا أبناء جيرة ولدينا رغبة شديدة فى الظهور فى السينما، فأبدى حماسا شديدا.. وقال إن أدوارنا جاهزة للظهور فى فيلم «أنا حرة» لإحسان عبدالقدوس ومن إخراج صلاح أبو سيف وبطولة لبنى عبدالعزيز وشكرى سرحان.

ونبه علينا بالحضور فى الغد لتحملنا السيارات إلى مبنى الجامعة الأميريكية حيث يجرى تصوير بعض المشاهد عند حمام السباحة، وأن دورنا هو أن نسبح بجوار لبنى عبدالعزيز، فلما أبلغته أننى لا أجيد السباحة، فوجئت به يضحك ويقول: مش مهم.. لقد أعددنا لكل شىء عدته.. ولكن المهم أن تحضروا مبكرا.. وأخذ يشدد على حضورنا دلالة على أنه وقع على صيد ثمين!!

وغادرنا المكتب، وجلسنا نناقش الأمر، فأبدت نبيلة تخوفها وأعلنت انسحابها، أما سناء فأعربت عن رغبتها فى خوض التجربة إلى نهايتها، وتواعدنا على اللقاء فى الصباح الباكر، والتقينا حسب الموعد فوجدنا الصالة غاصة بالكومبارس. وفتح لنا الحارس غرفة

المدير إلى أن تحضر السيارة، وكانت أصوات الكومبارس العالية تخدش مسامعنا وهم يتبادلون عبارات سوقية فاحشة، ويستخدمون الأيدى بطريقه أولاد الشوارع، فيدخل عليهم الحارس وينهال عليهم بشتائم مقذعة فيردون عليه بما هو أبشع.. وأشارت سناء إلى إحداهن وكانت ممثلة ناشئة صارت الآن ممثلة مشهورة.. وشعرت باختناق.. فى هذا الجو المخيف وأدركت أننا وقعنا فى فخ وأن علينا أن نخرج منه قبل أن يطبق علينا.

وبينما كانت المخاوف تتناوشنى، إذا بالراديو يعلن قيام انقلاب فى العراق بقيادة عبدالكريم قاسم، ومصرع الملك فيصل ونورى السعيد... إلخ، واستقبل الكومبارس الخبر بالهتاف والصياح والرقص فانتهزت فرصة الهرج والمرج وسحبت سناء من يدها واندفعنا إلى الخارج، وهبطنا السلم بسرعة الصاروخ، وصيحات الحارس تلاحقنا، وعندما خرجنا إلى الطريق العام شعرت براحة نفسية عميقة وأدركت أن عناية الله أخرجتنا من هذا الوكر عن طريق الانقلاب العراقى.

فى اليوم التالى طاردنى صاحب مكتب الريجيسير بالتليفون كى نعود ولا نضيع فرصة المجد الذى ينتظرنا.. فلم يجد منى أذنا صاغية.. وكانت تجربة مريرة.

ومن حقكم أن تعرفوا مصير نبيلة وسناء.. فأما الأولى فقد أكملت دراستها العليا وتزوجت من أستاذ جامعى مصرى تعيش معه الآن فى الولايات المتحدة، وأما «سناء» فقد حققت نجومية وشهرة تفوق شهرة نجوم السينما .. ويكفى أن تعرفوا أنها نجمة الإعلام التليفزيونى.. سناء منصور.

زيارة إلى العصر الحجرى

جملة عابرة وردت على لسان المحافظ، فالتقطها جهاز الرادار المركب فى عقلى، وكانت سببا فى قيامى بواحد من أهم التحقيقات الصحفية فى حياتى.

حدث ذلك فى مارس ١٩٦٩، وكنت أعتزم القيام بزيارة إلى واحة سيوة التى ترقد فى أعماق الصحراء الغربية، وتوقفت فى عاصمة المحافظة - مرسى مطروح - لأتزود بمعلومات أولية عن هذه المنطقة النائية، وقابلت المحافظ، وجيه رشدى، فتحدث معى طويلا عن الحياة المعيشية، والموارد الغذائية للسكان.. وفى أثناء حديثه توقف ذهنى عند عبارة قالها عرضا، وهى أن قافلة تموينية تذهب مرتين فى السنة إلى «قارة أم الصغير» على مسافة ٣٥٠ كيلو مترا جنوب شرقى سيوه حيث يعيش مجموعة محدودة من الناس فوق قمة جبل بمعزل عن العالم. وقد رفضوا كل العروض التى قدمت لهم للتخلى عن هذه الحياة القاسية والنزوح للسكن فى مدينة

سيوة. ولما سألته عن مصدر طعامهم قال إنهم يعيشون على ثمرات النخيل والزيتون ويزرعون مساحات محدودة من الشعير والقمح وأن عددهم لا يزيد ولا ينقص، فإذا ولد طفل فى الصباح، مات أحد أفراد القبيلة فى المساء «!!».

كانت المعلومات مثيرة.. وكفيلة بإغراء أى صحفى على اقتحام هذه المغامرة، والالتقاء بهؤلاء البشر الذين اعتزلوا العالم، وفضلوا البقاء فى موقعهم العتيد، راضين بالمعيشة البدائية على الانخراط فى المجتمع المدنى.. وراحت عشرات الأسئلة تتزاحم فى عقلى: هل يشاهدون التليفزيون؟ هل سمعوا عن غزو الفضاء وكيف يتزاوجون؟ وهل يعرفون القراءة والكتابة؟ هل تحدث بينهم جرائم؟ وما نوعها.. كنت شغوفا إلى معرفة الجواب على هذه الأسئلة بينما كان المحافظ مستمرا فى عرض بياناته عن سيوة.. وما أن توقف حتى طلبت منه أن يمهد لى السبيل للذهاب «إلى قارة أم الصغير».. وفوجئ المحافظ بهذا الطلب وظنه مجرد أمنية عابرة.. ولكنه وافق بعد أن لمس الجدية فى مطلبى، فرفع سماعة التليفون مخاطبًا رئيس مدينة سيوة وطلب منه ترتيب وسيلة نقل لمصاحبتى إلى الموقع. وفهمت من الحوار بينهما اعتراض رئيس المدينة حيث أن الطريق محفوف بالمخاطر حيث تنتشر الضباع فى هذه المنطقة التى لا تدب فيها أقدام البشر. وتدخلت فى الحوار. وقلت للمحافظ أننى على استعداد لتحمل النتائج . وكل ما أطلبه توفير وسيلة النقل. ولم يكن من المحافظ إلا أن استجاب لرغبتى.

مكثت ـ ومعى زميلى المصور المرحوم حسن سعد ـ ثلاثة أيام فى واحة سيوة، تمتعنا خلالها بجوها الجميل، وهدوئها الساحر، وتطورها الاجتماعى السريع، وتجولنا فى مزارعها الخضراء التى تروى من العيون الجوفية، وبعدها قال لنا رئيس المدينة أنه جهز لنا شاحنة كبيرة لتحملنا إلى أم الصغير، وأن علينا أن نتحرك قبل منتصف الليل حتى نصل إلى هناك بعد شروق الشمس.

وانطلقنا.. جلست ومعى المصور فى كابينة الشاحنة بجوار السائق. وفى الخلف جلس الدليل يطل برأسه من فتحة ويدلى بتعليماته إلى السائق. والعجيب أن الدليل كان يعرف معالم الطريق رغم الظلام الحالك.. كانت السيارة تطوى الصحراء الصامتة فلا نسمع سوى صوت الموتور يدوى فى الفضاء العريض، ولا نرى سوى النجوم تومض على صفحة القبة السوداء.

بعد أربع ساعات تقريبا لمحت فى سواد الأفق، خيطا أبيض، فأدركت أنه الفجر.. وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها مطلع الفجر، وجاء مصداقا لما جاء فى القرآن الكريم.. خيط رفيع أبيض يلمع على صفحة السواد.. أخذت مساحته تتمدد شيئا فشيئا.. وتتزايد طاقة النور كلما أوغلنا فى اتجاه الشرق، وبدأت معالم الصحراء تتبدى أمام عيوننا.. مساحات لا نهائية من الرمال والكثبان.. وأطلت الشمس من خدرها.. أشبه بكرة من الذهب المسبوك تتدحرج على حافة الأفق.. وتضفى على العالم سمة من البهجة والفرح.

وحانت منى التفافه إلى صندوق الشاحنة فوجدته معمورا ببعض أهالى سيوة انتهزوا فرصة الذهاب إلى «قارة أم الصغير» وصعدوا إلى الشاحنة ومعهم ما توفر لهم من سلع متواضعة كى يبيعوها إلى أهل القارة: سمك متجمد وسجائر وكبريت وزيت وصابون ولم نسمع لهم صوتا لأنهم كانوا يغطون فى نوم عميق.

وعندما ارتفعت الشمس فى السماء، لمحنا لأول مرة بعض الطيور تحوم فى الفضاء، فقال السائق أننا قد اقتربنا من الهدف. أن هذه الطيور تعيش على حافة الواحة، وتخرج للترحيب بالضيوف كما تفعل طيور البحر عند اقتراب السفينة من الشاطئ..

واقتربنا فعلا من «قارة أم الصغير»..

ظهرت لنا من بعيد كأنها سفينة غارقة فى بحر الرمال تعلوها بيوت بدائية متلاصقة.. وكلما اقتربنا وضحت معالم القارة وقد أحاطت بها أشجار النخيل والزيتون ومساحات متناثرة من الشعير والقمح. وتوقفت السيارة عند السفح فوجدنا فى انتظارنا رهطا من الرجال فى ثياب بدوية متواضعة.. واستقبلونا بالأحضان.. وقادونا إلى غرفة مبنية أسفل السفح مفروشة بالحصير. وهى غرفة الضيافة المخصصة لاستقبال الوافدين. وقدم إلينا العمدة، وهو شاب لا يتجاوز العشرين - كراسة تحتوى على كلمات كتبها رواد الصحراء الذين سبق لهم زيارة القارة، وراعنى أن جميعهم من الأجانب: انجليز وأمريكان وألمان.. والعربى الوحيد الذى زار الموقع هو الزميل الصحفى المعروف سعد زغلول فؤاد المشهور بمغامراته

وإقدامه على القيام بكل ما هو غريب.. وبعد أن شربنا الشاي فى أقداح فخارية فوجئنا بالعمدة يسوق أمامه عنزة ويذبحها أمامنا كدليل على كرم الضيافة.. وبعدها نهضنا لكى نصعد إلى القارة عبر بوابة خشبية تغلق فى المساء وتفتح فى الصباح.. وصعدنا فى طريق صخرى متعرج لنجد أنفسنا أمام مجتمع غريب أدار ظهره للحياة العصرية. وظل محافظا على تراثه وتقاليده.. وأخلاقه..

فوق قمة القارة

وقفت بكم عند بوابة «قارة أم الصغير» المعلقة على قمة جبل فى صحراء مصر الغربية، حيث تعيش طائفة محدودة من البشر مبعزل عن العالم، وسرنا فى صحبة العمدة إلى طريق حلزونى منحوت فى الصخر واجتزنا الحوارى الضيقة التى تتلاصق البيوت على جانبيها، وكل بيت لا يزيد على باحة صغيرة وغرفة ضيقة تكاد تتسع لإيواء أسرة محدودة العدد. أما الأثاث فغاية فى التواضع، وترتدى المرأة الثياب البدوية الملونة التى تغطى الجسم كله. وفى بعض البيوت وجدنا عددا من الحمير وهى أداة الانتقال الوحيدة وإلى جانبها بعض الماعز والأغنام.

بعد جولة استغرقت ساعة، هبطنا إلى المضيفة، وجلس العمدة وحوله بعض الرجال وفهمنا منهم أنهم أبناء قبيلة واحدة يتزاوجون فيما بينهم وأن عددهم لا يزيد على ١٤٧ نفسا منهم ثلاثون من الرجال البالغين، والباقون من النساء والأطفال، ولم يجدوا تعليلا

لظاهرة ثبات هذا الرقم، وحاول بعضهم أن يفسره تفسيرا أسطوريا كقولهم أن أحد أولياء الله الصالحين. فى الزمن القديم. دعا عليهم بذلك جزاء اساءتهم إليه، إلى غير ذلك من الخرافات.

وبذلت جهدا مضنيا فى معرفة سبب إصرارهم على البقاء فى هذه المنطقة الموحشة، وامتناعهم عن الانتقال إلى الحياة الحضرية فى واحة سيوة، فكانوا يتعجبون من دهشتى ويرون أن الأمر الطبيعى هو بقاؤهم على ما هم عليه، وسألتهم إن كانوا على علم بما يجرى فى العالم. قال العمدة أن لديه جهاز راديو يعمل بالبطارية ويسمع منه خطب عبدالناصر وأغانى أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم. ولكنه لم يدخل السينما فى حياته، والمرة الوحيدة التى غادر فيها «القارة» عندما ذهب . وهو طفل. بصحبة والده إلى الإسكندرية وأنه لا يزال مبهورا بضخامتها وبحرها ولا ينسى منظر الترام الذى يسير فى شوارعها.

لا يوجد فى «القارة» أى أثر للمرافق العامة أو الخدمات، فلا مدرسة ولا مستشفى ولا قسمًا للشرطة ولماذا الشرطة.. وهم يعيشون فى أمان وسلام؟ فلا خناقات ولا جرائم ولا مشاحنات تستدعى تدخل الغرباء، فإذا تعرض أحدهم لأزمة صحية حملوه على حمار وذهبوا إلى سيوة وهى رحلة تستغرق أربعة أيام، وأخطر ما فيها حيوان الضبع المفترس الذى يجوب المنطقة، ومن سوء الحظ أن الحمار يشم رائحة الضبع من مسافات بعيدة وعندئذ ترتعد فرائصه، وتتزلزل قوائمه فيرتمى على الأرض مستسلمًا لمصيره المفجع ومصير من يحمله!.

والعلاقة الرسمية الوحيدة التى تربطهم بالحكومة البطاقات الانتخابية، فعند أجراء الانتخابات تذهب إليهم لجنة لتسجيل أصواتهم التى لا تزيد على ثلاثين صوتا، والشكل الثانى للعلاقة هو تلك البعثة التموينية التى تصل إليهم كل ستة شهور محملة بالدقيق والسكر والزيت والشاى. أما نشاطهم اليومى فينحصر فى زراعة مساحات محدودة من الشعير والقمح، بالإضافة إلى ثمار البلح والزيتون الذى يحملونه على الحمير ثم يبيعونه فى سيوة، ويعودون بما يحتاجون إليه من ضروارات المعيشة.

ورغم هذه الظروف المعيشية القاسية فقد أصر أهل القارة على أن نتناول معهم طعام الغذاء ونأكل من لحم الجدى الذى ذبحوه تكريما لنا، وحول المضيفة كان أهل سيوة الذين رافقونا فى السيارة قد افترشوا الأرض وعرضوا بضاعتهم وتحول المكان إلى سوق عامرة بالصخب وهى لا تتكرر إلا مرات معدودة فى السنة وبعد أن شربنا الشاى نهضنا للرحيل، وقام أهل الواحة لتوديعنا وفى عيونهم دموع الغبطة لهذه الزيارة المفاجئة ولاشك أننى كنت أحمل فى وجدانى نفسى الشعور.

بعد عوتى إلى القاهرة اتصلت بعدد من أساتذة الجغرافيا البشرية لأعرف منهم الأصول السلالية لهؤلاء القوم، فمن المؤكد أن عزلتهم الطويلة حالت دون اندماجهم فى السبيكة السكانية لوادى النيل، إذ كان من الواضح أنهم يختلفون فى ملامحهم عن عامة المصريين، أضف إلى ذلك أنهم يتكلمون لغة خاصة هى نفس اللغة

التى يتكلمها أهل واحة سيوة إلى جانب اللغة العربية طبعا مما يدل على انتمائهم إلى نفس السلالة، وأذكر أن بعض هؤلاء الأساتذة كان يرجح فكرة انتسابهم إلى قبائل البربر التى تنتشر من الجزائر إلى ليبيا. ومن المؤكد أن شريحة منهم جنحت إلى سكن هذه المنطقة المتاخمة للحدود الليبية وساعدتها العزلة على الحفاظ على مكوناتها البشرية واللغوية.

بعد أيام من نشر التحقيق الصحفى عن رحلتى إلى «قارة أم الصغير» فى صحيفة «الأخبار» زارنى باحث مصرى كانْ يعمل فى ليبيا وقدم لى نسخة من كتاب عنوانه «الرحلة من المغرب إلى مرزق» مترجم عن اللغة الإنجليزية. كتبه الرحالة الإنجليزى «هورنمان» عن رحلة قام بها من الجزائر عبر شمال أفريقيا إلى مصر فى ختام القرن الثامن عشر ومرزق هى إحدى الواحات الصحراوية وكانت الرحلة بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية فى بريطانيا، والهدف منها جمع المعلومات عن هذه المنطقة حتى تكون فى متناول الحكومة البريطانية وهى تستعد لاحتلال الشمال الأفريقى ومصر خلال المنافسة الاستعمارية بينها وبين حكومة الثورة الفرنسية. ووصل الرحالة الإنجليزى مصر عبر الصحراء الغربية فى العام الأخير من القرن الثامن عشر، والتقى بالقائد الفرنسى نابليون بونابرت، وبالطبع أخفى عنه أغراض رحلته وأفهمه أنه يريد الحج إلى مكة..

وأهم ما استوقفنى فى الكتاب هو تلك السطور التى كتبها الرحالة الإنجليزى عن «قارة أم الصغير» التى مكث فيها يومين

وشرح ظروفها وأحوالها فى صورة تطابق الصورة التى رأيتها عليها فى مارس ١٩٦٩ . أما أخطر ما أدهشنى فهو ثبات عدد السكان وأن عددهم متوقف عند رقم «١٤٧» وأن القادرين منهم على حمل السلاح لا يزيد على ٢٩ أى بناقص رقم واحد عن العدد الذى وصفت به من يحملون بطاقات انتخابية، الأمر الذى أضفى على الموضوع مزيدا من الإثارة.

بعد ذلك بدأ التليفزيون يغزو المنطقة وكلما رأيت صور هؤلاء القوم على الشاشة شدنى الحنين إليهم فقد طابت لهم الحياة فى مجتمع يخلو من المنغصات والتلوث والصراع.

فى زقاق المدق

بعد سهرة رمضانية ممتعة فى حى الحسين ومقهى الفيشاوى، اتخذت طريقى عبر شارع الأزهر إلى ميدان العتبة لألحق بأتوبيس «٦» الذى يحملنى إلى الجيزة حيث كنت أقيم. كانت المحلات فى الشارع مغلقة، والحركة شبه ميتة، أخذت أسلى نفسى بالتطلع إلى اللافتات المعلقة على المحلات والمكاتب والحوارى الجانبية، وهى عادة لاتزال تلازمنى حتى الآن، وفجأة تسمرت عينى على لافتة معلقة على مدخل حارة صغيرة تحمل اسم «زقاق المدق». كانت مفاجأة مدهشة لأننى كنت أظن أن هذا الاسم الذى أطلقه نجيب محفوظ على رائعته الأدبية مجرد اسم وهمى. ونسيت أتوبيس «٦» ودلفت إلى الزقاق فوجدته مرصوفا بقطع كبيرة من حجر البازلت الأسود شأن حوارى القاهرة القديمة، ورائحة العطن تنبعث من بيوته العتيقة. وليس فيها من مظاهر الحياة سوى بصيص نور يتسلل من خلال النوافذ الموصدة، لعل أصحابها نهضوا لتناول وجبة السحور، أما لافتات الدكاكين فكانت أقرب إلى مثيلتها التى

دارت فيها أحداث القصة.. فهذه وكالة عطارة تذكرنا بوكالة السيد سليم علوان أكبر سكان الزقاق جاها وثراء، وهذا مقهى متواضع لعله مقهى المعلم كرشه الملاذ الوحيد لأهل الزقاق للترفيه والتسلية. وهذه طابونة المعلمة حسنية صاحبة اليد الحديدية التى يلذلها ضرب زوجها «جعدة» علقة فى الصباح ومثلها فى المساء بالشبشب فيعوى مثل النعجة حتى يخلصه الناس من براثنها . وهذا صالون الحلاقة لصاحبه عباس الحلو الذى قضى حياته على أمل الزواج من فاتنة الزقاق «حميدة» الفتاة التى كانت تتفجر أنوثة وميوعة وتتطلع إلى حياة متحررة من القيود والتقاليد.. فهجرت الزقاق لتقع فى مستنقع الدعارة.. وأين «زيطة» صانع العاهات.. صاحب المهنة الغريبة حيث يلجأ إليه المتسولون ليصنع لهم عاهات يستدرون بها عطف السذج.

●● هذا هو المسرح الذى تحركت عليه شخصيات نجيب محفوظ ولا أدرى نصيبها من الواقع.. أم أنها كانت وحى الخيال فصاغها الكاتب باقتدار.. وتركت الزقاق لاهثا لألحق بآخر أتوبيس،، وقد أضمرت فى نفسى أمرا.

●● فى ضحى اليوم التالى كنت فى قلب الزقاق ومعى مصور من «أخبار اليوم». وما أن عرف أهل الزقاق مهمتى الصحفية حتى التفوا حولى وأخذ كل منهم يروى ذكرياته عن الأشخاص الحقيقيين الذين شاهدوهم فى الفيلم أو المسرحية المقتبسة عن القصة. ومنهم من كان يزعم أنه ابن عم كامل بائع البسبوسة

وكرشه يتدلى أمامه، ومنهم من زعم أنه كان يرى نجيب محفوظ جالسا على المقهى ليكتب قصته وهو يدخن الشيشة ويستلهم الأحداث من واقع الحياة فى الزقاق الذى توالت عليه العهود والأجيال وهو محافظ على تقاليده وأخلاقياته ومن يخرج عليها يكون مصيره الضياع كما ضاعت «حميدة» «!!».

•• كتبت التحقيق الصحفى وذهبت به إلى رئيس التحرير وهو يؤمئذ الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين.. فعكف على قراءته باهتمام بينما كانت عينى تتابع انفعالات الرضا والاستحسان على وجهه. وبعد أن تفحص الصور، أبدى أعجابه بالموضوع، وكتب بقلمه عنوان التحقيق: «ربما لا يعلم نجيب محفوظ مصير أبطال زقاق المدق». ورأيت فى ذلك تقديرا عظيمًا من أستاذ جليل لصحفى ناشئ. وفجأة وجدته يطلب منى أن أذهب بالموضوع إلى الأستاذ نجيب محفوظ لأعرضه عليه قبل النشر فلما لمس منى ترددا، قال لى هامسا، اسمع كلامى وبعدين تعرف السبب!

وأسرعت إلى الأديب الكبير فى مكتبه بشارع قصر العينى حيث كان يعمل رئيسا لمصلحة الفنون «نواة وزارة الثقافة فيما بعد» واستقبلنى نجيب محفوظ بوجه بشوش. فلما قرأ التحقيق أبدى إعجابا شديدا.. وقال إنه سعيد بهذا النوع الجيد من التحقيقات الصحفية التى تهتم بالأعمال الأدبية.

ونشر التحقيق فى «أخبار اليوم». وكان أول تحقيق يحمل توقيعى. الأمر الذى جعلنى أشعر بالزهو والفخر. وما هى إلا ساعة

أو بعض ساعة حتى استدعانى الأستاذ أحمد بهاء الدين وقدم لى. وهو يضحك. برقية من الأستاذ نجيب محفوظ أعلن فيها براءته من كل ما جاء فى التحقيق الصحفى. وأن ما جاء على ألسنة أهل الزقاق هو محض اختلاق ولا علاقة له بالنص الأدبى. ولاحظ الأستاذ بهاء الدين معالم الدهشة على وجهى. وقال: مش قلتلك «!!» وراح يشرح لى حساسية الأستاذ نجيب محفوظ تجاه المشاكل القانونية.

●● وعدت إلى الأستاذ نجيب محفوظ. وعاتبته على هذا التصرف، فأخذ يطيب خاطرى ويشرح دوافع هذه البرقية التى أشار بها عليه أحد أصدقائه المحامين. وقال أنه لا يقصد تكذيب ما جاء فى التحقيق. ولكنه يفعل ذلك من باب الاحتياط حتى لا ينازعه أحد من أهل الزقاق أمام القضاء مطالبا بالحق الأدبى.. وتعجبت من هذه الحساسية المفرطة.. وقلت للأستاذ نجيب أن أهل الزقاق من البسطاء والفقراء الذين لا يقرأون الصحف، وإذا قرأوها لا يخطر على بالهم مسألة الحقوق الأدبية. أبدى الأديب الكبير اقتناعه بما قلت. ولكن الحيطة من أى تصرف يعكر عليه حياته هى التى دفعته إلى إرسال البرقية.

ورغم مرور أربعين عاما على نشر هذا التحقيق، فلا زلت أشعر بالاعتزاز كلما عدت إليه فى أرشيفى الخاص، لأنه كان مدخلا للعلاقة الحميمة التى نشأت بينى وبين أستاذى أحمد بهاء الدين.

وسببا فى التعارف مع الأديب الكبير نجيب محفوظ.. ومازلت أشعر بالحنين لزيارة زقاق المدق إحياء لذكرى سهرة رمضانية أتاحت لى رؤية المسرح الحقيقى الذى دارت عليه إحدى روائع نجيب محفوظ. ولم أتخلص حتى الآن من عادة التطلع إلى اللافتات المعلقة على الشوارع والحوارى القديمة لعلى أعثر على مسرح آخر من تلك المسارح التى شهدت حركة الناس فى العصور الغابرة.

التلميذ والأستاذ

قبل أن أدخل دار «أخبار اليوم» من بابها الملكى بدعوة من صاحب الدار الأستاذ مصطفى أمين، دخلتها من النافذة عن طريق الصحفى الكبير المرحوم عبدالسلام داود نائب رئيس تحرير «الأخبار» فى ذلك الوقت بدعوة من أخى وصديقى الأستاذ وجيه أبوذكرى، متعه الله بالصحة والعافية.

كان وجيه يسبقنى بعام فى قسم الصحافة بكلية الآداب، كما سبقنى إلى الالتحاق بجريدة «الأخبار»، وكان يمدنى ببعض التحقيقات الصحفية لنشرها فى مجلة «صوت الجامعة» التى تحدثت عنها فى مقال سابق ، وذات يوم من أيام عام ١٩٥٩ أبلغنى وجيه أن باب «أخبار الناس» الذى يشرف عليه الأستاذ عبدالسلام داود، يطلب بعض طلبة قسم الصحافة ليكونوا محررين تحت التمرين، وأنه يرشحنى للانضمام إلى هذا الباب، فقبلت رغم أن عملية جلب الأخبار لم تكن تستهوينى، ولم أشأ إضاعة هذه

الفـرصـة كى أضع قـدمى على أعـتـاب هـذه المدرسـة الصـحـفـيـة العملاقة، وقابلت الأستاذ عبدالسلام فاكتشفت فيه إنسانا كريما قبل أن يكون صحفيا قديرا، وطلب منى تقديم ما يصادفنى من أخبار فى مجتمع الجامعة.

وذات يوم قدم لى صديق، كان طالبا بكلية الحقوق، خبرًا عن خطوبة تمت بين طالبة بالكلية وأستاذ لها بعد قصة حب مشهورة فى مجتمع الكلية، وقدمت الخبر إلى عبدالسلام داود فنشر فى «أخبار الناس» فى يوم جمعة. وفى اليوم التالى صدرت جريدة «أخبار اليوم» وفيها تكذيب صريح للخبر مصحوبا باعتذار إلى أهل الفتاة، وانتابتنى حالة من الحسرة لهذا الفشل المبكر، وقررت الامتناع عن الذهاب إلى «الأخبار» حتى أتجنب ما ينتظرنى من لوم وتقريع.

ومرت أيام كئيبة كنت خلالها أستطلع الموقف من الزملاء العاملين فى القسم، فكانوا يبلغوننى أن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق خلال الاجتماعات الصباحيه التى يعقدها عبدالسلام داود، إلى أن أبلغنى أحدهم أن الرجل يسأل عنى ويتمنى عودتى إلى القسم، وبالفعل عدت لأستأنف نشاطى فلم أسمع من عبدالسلام داود أية إشارة للخطأ الذى وقعت فيه، والحرج الذى سببته له وللجريدة، حتى إذا قدمت له يوما مجموعة من الأخبار إذا به يتوقف عند خبر منها ويناقشنى فى مدى صحته، ولما حاولت

أن أدلل على سلامة الخبر، توقف ليوجه لى حديثًا مباشرًا عن خبر التلميذة والأستاذ.

قال: إننى واثق أنك تورطت فى تقديم الخبر دون أن تتأكد من صحته ربما لأنك وثقت فى مصدره. وربما لأنك رأيت فيه خبرا تافها لا يستحق عناء التمحيص.

قلت له بصوت خفيض: هذا صحيح.

فاستطرد قائلاً: وتلك غلطة كبرى لأن معظم النار من مستصغر الشرر، وأنت لا تتصور ما سببه نشر الخبر من هلع لأهل الفتاة عندما قرأوا فى «الأخبار» أن ابنتهم تمت خطبتها إلى الأستاذ دون علمهم لقد هرعوا فى نفس اليوم، وقابلوا الأستاذ مصطفى أمين وهم فى ذروة الانفعال، ولم يكن بُد من نشر التكذيب والاعتذار عما لحق بهم من إساءة أمام المجتمع..

قلت له: إننى معترف بخطأى.. وأعتذر عما سببته لك من حرج أمام الأستاذ مصطفى أمين، ولذلك أثرت الهروب.. ولكنك طلبت منى العودة.. ولم تفاتحنى فى الموضوع إلا بعد مرور وقت طويل«!!».

قال: لأننى توسمت فيك أن تكون صحفيا مرموقا، وكنت أعرف مدى حساسيتك المفرطة، ولو أننى تسرعت فى محاسبتك فسوف تهرب ولن تعود. وأكون بذلك قد حرمتك من العمل وأنت فى مقتبل حياتك الصحفية.. لقد أثرت التريث حتى لا أفقدك.. لقد تعلمت من خبرتى الطويلة أن أتأكد من صحة الخبر مهما كلفنى ذلك من

عناء، وتعلمت من خلال مسؤوليتى أن أصبر على عشرات الصحفيين الناشئين كى يتعلموا من خلال التجربة والخطأ أن الخبر هو ما لا يحتمل الصدق والكذب.. ولابد أن يكون الخبر صحيحا لا يتسرب إليه شك، حتى لو اقتضى الأمر حجبه عن النشر أو تأجيله إلى أن تتوفر له كل شروط الكمال. ولابد أن يبذل الصحفى من العناء ما يستاهل ذلك، ويتضاعف العناء إذا كان الخبر يمس أعراض الناس.. إنك لن تتخيل حالة أهل الفتاة عندما فوجئوا بخبر خطوبة ابنتهم من وراء ظهورهم «!!».

وكان درسا لا أنساه.

وبقدر ما شعرت بتأنيب الضمير، بقدر ما أثرت فى نفسى الطريقة المهذبة التى عاملنى بها عبدالسلام داود وأنا أخطو أول خطوة فى بلاط صاحبة الجلالة، فقد تحمل عنى مسؤولية المواجهة مع الأستاذ مصطفى أمين، الذى كان لا يتساهل فى نشر خبر كاذب ، ويعاقب صاحبه بصرامة ولا شك أن عبدالسلام أخفى عنه غلطة الصحفى الناشئ واسمه حتى يجنبه العقاب... وكان هذا المسلك الإنسانى من عبدالسلام داود سببا فى توثيق علاقتى به، حتى تطورت إلى أخوة حميمة رغم فوارق السن والمركز.. وظل هو الصدر الحنون الذى يشجعنى ويتابع خطواتى أينما ذهبت وتدرجت فى بلاط صاحبة الجلالة إلى أن توفاه الله فى أغسطس ١٩٩٤ .

وتعلمت من هذا الدرس ألا أتسرع فى نشر خبر مهما بلغ بريقه وجاذبيته، كما تعلمت منه الصبر على أخطاء شباب الصحفيين، والتجاوز عن عثراتهم إلى أن يبلغوا درجة النضج ويكتسبوا الخبرة فى تقويم الخبر.

لهذه الحكاية ملحق لابد من ذكره حتى تكتمل فصول الرواية.. فالخبر الذى نشرته عن خطوبة التلميذة والأستاذ لم يكن كاذبا بنسبة ١٠٠ فى المئة. كانت هناك علاقة عاطفية بينهما معروفة فى محيط الكلية، والمفروض أن تكتمل بالزواج ، ولكن الصديق الذى دس على الخبر تسرع ولم ينتظر إتمام الإجراءات الشرعية، والذى حدث بعد نهاية العام الدراسى أن تم إعلان الخطوبة بطريقة رسمية، وتم الزواج على سنة الله ورسوله، وكانت ثمرته أولاد وبنات.. وأخذ الأستاذ يتدرج فى المناصب العليا حتى صار وزيرا ثم رئيسًا لمجلس الشعب فى أوائل عهد الرئيس مبارك.

الصحافة والثقافة

عندما جئت من القرية إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٥٧ للاستطيان الدائم والالتحاق بجامعتها، وضعت نصب عينى التردد على المنتديات الأدبية والصالونات الثقافية، والاقتراب من كبار الأدباء وعظماء الفكر الذين استوعبت انتاجهم من خلال الكتب والصحف والمجلات التى كنتُ أعكف على قراءتها قبل المرحلة الجامعية، وشجعنى على ذلك أن مناهج الدراسة فى قسم الصحافة بكلية الآداب، لم تكن من الثراء بحيث تلبى تعطشى إلى الثقافة، ولما كنت أعتقد بأن الثقافة هى الأساس فى بناء أى مشروع صحفى، فقد رأيت أن أحقق هذا الهدف عن طريق اللقاء المباشر مع رموز الفكر من خلال دعوتهم إلى ندوات ثقافية نعقدها فى قسم الصحافة، أو التردد على صالوناتهم الثقافية.

وأذكر أن أول أديب دعوته إلى ندوة الكلية كان الأستاذ أنيس منصور. وكان وقتها من دعاة الفلسفة الوجودية. فحاورناه حول

أدب سارتر وسيمون دى بوفوار وكيركجارد. بالإضافة إلى رواد الأدب الفرنسى، وكانت تلك بداية علاقتى بأنيس مصنور التى تحولت مع الأيام إلى ألفه قوية.

ومن حسن حظى أن الدكتور طه حسين كان يلقى سلسلة من المحاضرات على طلبة قسم اللغة العربية، ووجدتها فرصة ذهبية للتزود من علم هذا الرائد العظيم، ورغم أن موعد محاضراته كان الرابعة بعد الظهر، وهو موعد يفسد عادتى فى النوم بعد وجبة الغداء، إلا أننى ضحيت بهذه العادة حتى أرى طه حسين واستمع إليه، فكنت انتظره عند باب الكلية حتى يهبط من سيارته، فيجد فى انتظاره أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف، فيصحبه إلى أن يتخذ مجلسه على منصة التدريس، وكانت محاضرات طه حسين، فى ذلك الفصل الدراسى تتناول تراث الشاعرين الكبيرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ولا تزال ملاحظاته النقدية ترن فى أذنى حتى الآن.

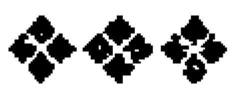
وأخذت طريقى إلى الندوة الأسبوعية التى كانت تعقدها «رابطة الأدب الحديث» مساء كل ثلاثاء، ورئيسها وقتئذ الناقد الكبير مصطفى السحرتى، ومن بعده الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى، وفيها كنا نستمع إلى محاضرات قيمة فى الأدب والنقد والتاريخ، وتعرفت على بعض شباب النقاد الذين صار لهم شأن فيما بعد أذكر منهم الدكتور عبدالعزيز شرف المشرف الأدبى بالأهرام حاليا، والمرحومين غالى شكرى وعلى شلش والشاعر السودانى محيى الدين فارس.. وغيرهم كثر.

وفى الأجازة الصيفية بدأت أتردد على ندوة «العقاد» التى كان يعقدها فى بيته بمصر الجديدة صباح كل جمعة، ونتعاطى القهوة والليمون قبل أن يهل علينا العقاد فى طلعته المهيبة وقد تسربل فى «روب» منزلى وعلى رأسه طاقية. فيتصدر القاعة الفسيحة وقد تحلق حوله حشد من الأدباء والشعراء وأساتذة الجامعات، وكلهم من «الدراويش» المرتبطين به فكريا والهائمين فى فلكه، وتبدأ الندوة بتبادل التحيات والقفشات والنوادر والنكات، وقد لاحظت أن شخصية العقاد تنطوى على قدر كبير من المرح. يعكس ما يبدو على وجهه من تجهم وحزن. وبعدها يبدأ العقاد فى الإجابة على أى سؤال يطرحه أحد الحضور فى أى شأن من شؤون الحياة، لا يهم إذا كان الموضوع فى الأدب أو الطب أو الموسيقى أو التاريخ أو الذرة، فقد كان العقاد من الموسوعيين الذين أحاطوا بكل فروع المعرفة، ولازلت أذكر شرحه المستفيض عن الأصوات الغنائية الأوبرالية - رجالية ونسائية - وأذكر أن الذى فتح الموضوع كان الموسيقار الشهير محمد حسن الشجاعى، وكان متيما بالعقاد، وعضوا ثابتًا فى ندوته.

وكنت أحرص على أن أصحب معى إلى ندوة العقاد، أقرب زملائى وأحبهم إلى نفسى، حتى يتسنى لنا التعرف على هذا العملاق، والتزود من معين ثقافته. وذات ندوة كان يتحدث عن أمير الشعراء أحمد شوقى بك، فإذا به يحمل عليه حملة قاسية، وينزع عنه إمارة الشعر، ويقول أنه كان شاعر «الأمير» يقصد بذلك الخديو عباس حلمى الثانى حفيد الخديوى إسماعيل الذى تربى

شوقى فى بلاطه، وقال عنه، «أ أخون إسماعيل فى أولاده ولقد ولدت بباب إسماعيل».. لم يكن أحد من الحاضرين يجرؤ على معارضة العقاد، فقد كان مستبدا فى رأيه.. حتى أن أحد زملائنا أراد أن يجارى العقاد فى حملته على شوقى، فوصف شوقى بأنه كان «تافها» وعندئذ انفجرت الندوة بالضحك.

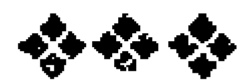
وفى ندوة أخرى كان العقاد يتحدث عن جائزة «نوبل» فى الأدب والدوافع السياسية التى تقف وراثها، وتحجبها عن أى أديب عربى، وعندئذ سأله زميلنا الذى اشرت إليه عن الأديب العربى الذى يرشحه العقاد لجائزة نوبل، ولم يتحرج العقاد من أن يجيب على الفور، أنا يا أخى.. ثم أردف: وهل يوجد فى أدباء العربية من يستحقها غيرى«!!» ولم يكن هذا الزميل سوى أخى وصديقى الأستاذ أحمد عمر مدير تحرير مجلة «ماجد» وكان عضوا رئيسيا فى مجموعتنا بقسم الصحافة.



لم يكن من المتاح لنا ـ ونحن فى مقتبل حياتنا الصحفية ـ أن نستثمر هذا النشاط الثقافى المكثف فى عملنا الصحفى، كانت التقاليد الصحفية ـ فى ذلك الوقت ـ صارمة، وتمنع الصحفى الناشئ من تلوين بضاعته بأيه لمسة أدبية، فإذا فعلها تعرض للتهكم من جانب الكبار، ومواجهة الاتهام بأنه أديب.. ومثقف.. لأنهم كانوا يريدون أن يظل الصحفى محصورا داخل الآلة الصحفية وأن ينصرف إلى جلب الأخبار أو عمل التحقيقات.. وكان علىّ أن أظل

محصورا فى هذا الإطار الحديدى، إلى أن أتيح لى إعادة كتابة التحقيق الصحفى الذى أعده بعض المحررين عن وفاة الشاعر الكبير كامل الشناوى فى عام ١٩٦٥، فكتبت له عناوين ومقدمة أدبية تناسب المقام، وعندما سلمت الموضوع إلى نائب رئيس التحرير المرحوم الأستاذ عبدالسلام داود، وجدته يقفز من مقعده ويشد على يدى مشجعا على الاستمرار فى هذا الاتجاه الأدبى.

كانت مجموعتنا فى قسم الصحافة تضم عددا من الشباب ذوى الميول الأدبية والثقافية. وقد انعكست ثقافتهم على إنتاجهم بسبب إصرارهم وصمودهم، أذكر منهم الاستاذ عبدالوهاب مطاوع الذى كان عاشقا لأدب نجيب محفوظ، وظهرت نزعته الثقافية فى بابه الشهير بصحيفة الأهرام «بريد الجمعة» الذى جعل منه ملتقى القصص الإنسانية يصوغها بأسلوبه الأدبى الرشيق، وأذكر كذلك جلال سرحان وحشمت عبدالظاهر وقد اختطفهما الموت قبل أن تبرز مواهبهما الأدبية والثقافية.



لقد تحولت الثقافة عندى إلى «عقدة» لا يمكن حلها إلا بالتحدى.. والاغتراف من منابع الثقافة بكل روافدها المعرفية، وكانت تلك نصيحتى الدائمة إلى كل شاب يريد أن يكون صحفيا.. لا يمكن الفصل بين الصحافة والثقافة.. والصحفى الذى يهمل تثقيف نفسه، إنما يحكم على نفسه بالضمور والاضمحلال.

فى ضيافة الأميرة علياء المنذر

عندما كنا نصدر مجلة «صوت الجامعة» من مدرجات كلية الآداب، كان يتردد علينا الصحفى سعيد أبو العينين، أحد نجوم مجلة «آخر ساعة» حاليا، وكان يعمل وقتها محررا فى مجلة «البوليس» التى كان يرأس تحريرها الأديب الراحل سعد الدين وهبة، وقد أعجب سعيد بنشاطنا الجرئ، وكتب عنا تحقيقا فى مجلته جعل عنوانه: «كتاكيت الصحافة» ويمدنا بأفكار واقتراحات لتنفيذها فى مجلتنا الجامعية، ومنها اقتراح بأن نقابل الأميرة «علياء المنذر» والدة الفنان الكبير فريد الأطرش، وكانت تقيم يومئذ فى منزل بضاحية عين حلوان بعيدا عن صخب القاهرة.

واتصلنا بالأميرة وطلبنا مقابلتها، فرحبت، وذهبنا إليها وفدا يضم سناء منصور، وسمير عبدالمطلب الذى يعمل حاليا بشركة «ادجاز» بأبوظبى، وزميلة أخرى هجرت الصحافة بعد تخرجها، واستقبلتنا الأميرة علياء بوجه بشوش. وتصادف وجود الشاعر

الكبير «حسين حلمى المانسترلى» صاحب الأغانى المشهورة لكبار المطربين.

كانت الأميرة قد تخطت السبعين، ومع ذلك احتفظت بمسحة من الجمال العريق، ولم تستطع التجاعيد البادية على وجهها أن تمحو آثار البهاء والحسن الذى كنا نراه على وجه ابنتها اسمهان: العيون الزرقاء.. والبشرة البيضاء، والوجه الذى يميل إلى الاستطالة. أما الانطباع الذى لم تستطع إخفاءه: فهو ذلك الحزن الدفين فى أعماق نفسها، والشجن المهيمن على صوتها، والغفلة التى تقطع انسياب الحديث على شفتيها، حتى كأنها تتحدث من غياهب عالم مجهول.

وكان وجود الشاعر المانسترلى مفيدا فى إضفاء جو من المرح والبهجة يخفف من كآبة الجلسة، فنهض إلى عود معلق على الحائط، وإعطاه الأميرة وطلب منها أن تغنى.. بينما أمسك هو «الرق» ليضبط معها الإيقاع.. وقمنا نحن بمهمة الكورس بقدر ما تسعفنا الذاكرة، وكانت مفاجأة ممتعة. إذ اكتشفنا أن الأميرة علياء تتمتع بصوت رخيم.. وأدركنا أنها أصل الموهبة التى ظهرت جلية عند فريد وأسمهان. وبعد أن قدمت لنا عشاءً طيبًا، أخذت تقص علينا حكايتها من البداية.. فإذا بها سلسلة من المآسى والنكبات كان أفدحها بدون شك: مصرع ابنتها أسمهان وهى فى شرخ الشباب وقبل أن تكمل العام الرابع والثلاثين.

تنتسب الأميرة علياء إلى إحدى القبائل التى تعيش فى منطقة السويداء فى شمال سوريا، وكانت هناك مناوشات وحروب بينهم

وبين قبائل الدروز، وفى إحدى الغارات تمكن الأمير فهد الأطرش - زعيم الدروز - من اختطاف فتاة صغيرة، وحملها على ظهر حصانه وانطلق بها إلى مقر إقامته، ولم تكن هذه الفتاة سوى الأميرة علياء المنذر، وقد صارت زوجة له، وأنجب منها ولديه فؤاد وفريد الأطرش وابنته الوحيدة «آمال» التى تزوجها ابن عمها الأمير حسن الأطرش وأنجبت منه فتاة قبل أن تجرفها موجة الفن وتصبح إحدى شهيرات الغناء العربى وتحمل اسم «أسمهان».

وكانت الصدمة الثانية فى حياة الأميرة علياء: عندما اندلعت الثورة الدرزية عام ١٩٢٥ ضد الاحتلال الفرنسى، فاستخدم الجيش الفرنسى المدافع والدبابات فى تدمير قرى الدروز، مما جعل الأمير فهد يبحث لأسرته عن مكان آمن، فطلب من زوجته أن تحمل أطفالها الثلاثة وترحل بهم إلى مصر، مزودين بخطاب منه إلى الزعيم سعد زغلول يرجوه فيه رعاية أسرته الصغيرة. وركبت الأسرة قطار فلسطين من القدس إلى القنطرة حيث يبدأ التفتيش فى المنطقة الجمركية. واكتشفت السلطات المصرية أن الأسرة لا تحمل جوازات سفر. وليس معها سوى الخطاب الموجة إلى سعد زغلول الذى اتصل بوزير الداخلية وطلب منه السماح بدخولهم تقديرا لشجاعة الدروز وكفاحهم من أجل الحرية والاستقلال. وعاشت الأسرة فوق سطح بيت متواضع فى حى الفجالة، وعمل فريد بائعا متجولا لحساب تاجر اسمه «كوسة» فحمل اسمه وصار «فريد كوسة» واخفى اسم «الأطرش» حتى لا تتدخل السفارة الفرنسية فى مصر وتطلب من سلطات الاحتلال البريطانى

إبعادهم، وبعدها عمل مطربا فى صالة بديعة مصابنى وأخذ طريقه إلى الشهرة.

أما «آمال» فقد تلقفتها أيدى كبار الملحنين بعد أن اكتشفوا جمال صوتها. واختار لها داود حسنى اسم «أسمهان» وانفتحت لها أبواب الإذاعة وشركات الإسطوانات، وتعهدها منتجو السينما، فقامت ببطولة عدة أفلام، كان آخرها «غرام وانتقام» مع يوسف وهبى وأنور وجدى، وقبل عرض الفيلم لقيت حتفها غرقا فى ترعة بالمنصورة - فى يوليو ١٩٤٤ - أثناء عودتها من مصيف رأس البر، وتركت وفاتها المبكرة بهذه الطريقة المأساوية، صدمة لدى الجماهير، كما تركت جرحا داميا ظل ينزف فى قلب الأم الملتاعة إلى آخر لحظة فى حياتها، كانت تتحدث إلينا عن أسمهان، وكأنها لم تمت، وإنما على سفر، وستعود عما قريب لتطفئ الجمرة المتقدة فى قلبها وكنا نستمع إلى حديثها والأسى يقطع نياط قلوبنا.

وعن حياتها الخاصة قالت إنها تعيش فى هذا البيت المنعزل برفقة أختها «ولاحظنا أن الأخت لم تشاركنا السهرة» وإن ابنها فريد يتردد عليها كلما سنحت له فرصة لكى يطمئن عليها، ويلبى احتياجاتها، وإنها تقضى وقتها إلى جانب «الفونوغراف» لسماع الإسطوانات التى تحمل لها صوت ابنتها... وتتمنى أن تدفن إلى جوارها فى مقابر البساتين.

وبعد انقضاء السهرة الممتعة نهضت الأميرة علياء المنذر لتوديعنا بكلمات كلها رقة ومحبة وطلبت منا ألا نبخل عليها بزيارات أخرى..

وبالفعل قمنا بزيارتها مرتين، وحملنا إليها نسخة من مجلة «صوت الجامعة» التى نشرنا فيها تفاصيل لقائنا الأول، مزينة بالصور التى التقطناها معها. فكانت تبدى سعادتها البالغة لأن بعض «كتاكيت الصحافة» يذكرونها.. وفى كل مرة كنا نشعر بأننا أمام إنسانة كانت حياتها سلسلة من الفواجع.. وأكثرها فجيعة أنها فقدت ابنتها الوحيدة وهى فى ذروة الشهرة والمجد الفنى.

المرأة التى أممت الصحافة!

صدر قرار تأميم الصحافة المصرية فى مايو ١٩٦٠، فى غضون حملة هجومية من جمال عبدالناصر ضد صحافة الإثارة، وكان المقصود بذلك صحف دار «أخبار اليوم» التى شغلت الرأى العام بقضية سيدة أرستقراطية تدعى «تاتا زكى» حاولت إرغام زوجها، وكان محاميا كبيرا، على تطليقها لكى تتزوج من أحد أبناء العائلة المالكة السابقة، فلجأت إلى على ومصطفى أمين فجعلا من حكايتها مأساة إنسانية جذبت اهتمام الجماهير فى كل أنحاء مصر وصدرت صحيفة «أخبار اليوم» وهى تحمل قصتها فى الصفحة الأولى يعلوها ما نشيت باللون الأحمر بعرض الصفحة يقول «اختفاء أجمل سيدة فى مصر» وتهافت الناس على معرفة حكاية هذه السيدة وسبب اختفائها وعلى امتداد الأيام التالية كانت صحيفة «الأخبار» توالى نشر أنباء السيدة المختفية بسبب ما تلاقيه فى حياتها الزوجية من عنت واضطهاد لدرجة أنها أعلنت اعتزامها الانتحار إذا لم يطلقها زوجها.

ولم تكن هذه السيدة ـ فى الحقيقة ـ تختفى فى كهف مظلم، أو بيت مهجور، ولكنها كانت تقيم فى جناح خاص بفندق «هيلتون ـ النيل» على نفقة «أخبار اليوم» تحت اسم مستعار، ولم تكن تتصل بالجريدة عن طريق التليفون حتى لا يتوصل أحد إلى مكانها، وخصصت الدار أحد كبار الصحفيين ليذهب إليها ظهر كل يوم، ويشرف على راحتها، ويحصل منها على تصريحات وأخبار تؤجج الحملة المخططة كى تكسب عطف الرأى العام. وإزاء هذه الفضيحة العلنية اضطر زوجها إلى تطليقها، وتزوجت ممن تهواه. ونشرت «أخبار اليوم» صورة للعريس الجديد وهو يحمل عروسه بين يديه ـ وبعد ذلك افتتحت هذه السيدة «بوتيك» لبيع الملابس الجاهزة بالزمالك وكانت شهرتها من عوامل الدعاية لمحلها إلى أن طواها النسيان.

كانت قصة «تاتا زكى» هى الذريعة التى استند عليها جمال عبدالناصر لكى يضع يد السلطة على الصحافة، ونقل ملكيتها إلى الاتحاد القومى ـ التنظيم السياسى الوحيد فى ذلك الوقت ـ وليس إلى الدولة، ولذلك نص القرار على «تنظيم» الصحافة، وتجنب تعبير «التأميم»، وشمل القرار الدور الصحفية الخمس الكبرى: «الأهرام، الأخبار، الجمهورية، دار الهلال، روزاليوسف»، وانتدب جمال عبدالناصر أحد الضباط العاملين فى مكتبه وجعله مشرفا على دار أخبار اليوم.

أحدث قرار تأميم الصحافة صدمة عند كبار المثقفين من أنصار الحرية والديمقراطية، ورأوا فيه بداية لهيمنة الدولة على

الحريات العامة وفى طليعتها حرية الرأى والتعبير، وفى أخبار اليوم قُوبل القرار بمعارضة صامتة من أغلبية العاملين الذين كانوا يدينون بالولاء لصاحبى الدار. مصطفى وعلى أمين. اللذين فقدا فى غمضة عين ملكية الدار التى جعلا منها أحدى كبريات الصحف فى العالم العربى، ومدرسة تخرج فيها نجوم الصحافة. وبالنسبة لنا نحن جيل الناشئين. فقد شعرنا بالاضطراب والقلق، وغمرنا الإحساس بالضياع أمام المصير المجهول، خاصة أننا كنا فى ذلك الوقت نعمل بالمكافأة الشهرية، ولم نكن نتمتع بالتعيين لحفظ حقوقنا.

فى يوم صدور قرار التأميم، جلسنا فى صالة التحرير نقطع الوقت فى الحديث والثرثرة. بينما كان المشرف الجديد على المؤسسة مجتمعا مع رؤساء التحرير فى مكتب مصطفى أمين بالدور التاسع، وجاءنا من يطلب منا البقاء فى مواقعنا انتظارا لقدوم الكبار للإجتماع مع المحررين. ودخل مصطفى أمين وأخوه على وبصحبتهما محمد التابعى وجلال الدين الحمامصى وأحمد بهاء الدين وعدد آخر من كبار الصحفيين. وتكلم مصطفى أمين فأعلن احترامه للأوضاع الجديدة، ودعا العاملين إلى مضاعفة الجهد حتى تواصل المؤسسة مسيرتها ولا تتوقف عن رسالتها، وكانت عينى مركزة على ملامح وجهه وهو يستخرج الكلمات بصعوبة، ويتلعثم كلما حاول التغلب على عواطفه المكبوتة، وكلما نطق بكلمة «التأميم» همس التابعى فى أذنه بكلمة «التنظيم» حسب نص القرار.

شهدت رحلة التحول اضطرابا كان له أسوأ الأثر على العمل، فالضباط الذين تولوا الإشراف على المؤسسة لم تكن لهم خبرة بعالم الصحافة الذى يختلف بالطبع عن إدارة المؤسسات التى سيطر عليها الضباط فكانوا يعوضون هذا النقص عن طريق تقريب بعض الصحفيين العاملين بالمؤسسة، ولم يكن الاختيار يتم على أسس موضوعية، فانفتح الباب أمام العناصر الانتهازية وتحولوا إلى عيون للرقابة على زملائهم وساد الدار جو التجسس والوشايات.

وكان الضباط المشروفون على المؤسسة يشغلون فى نفس الوقت مناصب عليا فى الجهاز الحاكم وعهدوا بإدارة العمل الصحفى إلى مستويات أدنى من أعوانهم وفى بعض الأحيان كان الموظف المسؤول عن مراجعة الصفحات. قبل الطبع ـ عسكريا برتبة «صول» مما كان مثارا للسخرية والتهكم.

لم تمض بضعة شهور حتى صدرت قرارات بتعيين كل الصحفيين الشبان الذين كانوا يعملون بالمكافأة. وأنا منهم ـ فبدأنا نشعر بالطمأنينة والاستقرار النفسى. وقبل أن يصدر قرار التأميم قام الأستاذ جلال الدين الحمامصى، رئيس تحرير «الأخبار»، بتكوين قسم للتحقيقات الصحفية، فاختارنى ضمن مجموعة أذكر منهم: سامى جوهر ونبيل عصمت ومريم روبين وإسماعيل يونس وأحمد المغازى ولبنة عبدالعزيز، وعقد لنا سلسلة اجتماعات رسم خلالها خطة العمل بحيث يكون هذا القسم قوة ضاربة. ثم داهمنا

قرار التأميم، وانشغل جلال الحمامصى بتداعيات الأوضاع الجديدة، وتفكك القسم، وعاد كل من المرشحين إلى موقعه السابق. وعندئذ اقترحت على بعض الزملاء أن نمضى - ذاتيا - فى تشكيل قسم التحقيقات، واخترنا إسماعيل يونس رئيسا للقسم. وبدأنا نعمل دون غطاء رسمى من رؤساء التحرير. فلم يكن لديهم الوقت لمتابعة سير العمل.

فى بيتنا نشال!

بدأنا العمل فى قسم التحقيقات الصحفية بدار «أخبار اليوم» فى ظروف الهوجة التى نشأت عقب تأميم الصحافة فى مصر. وحاولنا بقدر المستطاع تجنب هذه الأجواء والانصراف إلى عملنا حتى نثبت أقدامنا. ورسمت لنفسى خطة القيام بتحقيقات صحفية من الوزن الثقيل التى تعالج قضايا المجتمع.

وكانت مسألة الطفولة المشردة من القضايا التى تؤرق ضمير الناس، كانت العصابات الإجرامية تلتقط الأطفال الهاربين من أسرهم، وتأويهم فى أوكار متعفنة، وتدربهم على النشل والسطو على البيوت، ثم يعودون إلى أوكارهم محملين بالغنائم والأسلاب ليعاد بيعها بأثمان بخسة.

اتفقت مع زميلتى «ثريا أبو السعود». مندوبة الأهرام حاليا فى غرب أميركا. على أن نخوض هذا العالم السرى تحت ستار أننا أبوان يبحثان عن ابنهما الغائب. وكانت صورة ولدى«إسماعيل» هى

جواز المرور إلى هذه الأوكار، والخروج منها سالمين. فترددنا على أكثر من وكر، بعضها فى قلب الأحياء العشوائية بالقاهرة، أو فى المناطق النائية كالمطرية وصحراء مصر الجديدة، كانت ثريا تنهمر فى البكاء والنحيب على «ابنها» المزعوم، بينما كانت عينى تقوم مقام الكاميرا فى مسح الأوضاع داخل أحشاء الأوكار، فأرى الأطفال وهم يتشاجرون ثم يعودون إلى هدوئهم بعد أنى يلوح لهم المعلم أو المعلمة بالعصا، تماما مثلما كانت تفعل الممثلة القديرة «نجمة إبراهيم» فى فيلم «جعلونى مجرما».

تجمع لدينا محصول وفير من المعلومات عن الحياة التعيسة لنفر كبير من الأطفال راحوا ضحية التفكك الأسرى وانفصال الأبوين بالطلاق. فيتزوج الأب وتتزوج الأم، ويتعذر على الطفل العيش فى جحيم زوج الأم أو زوجة الأب، فيهرب إلى جحيم أكبر، ويقع فريسة هذه العصابات، ويتحول إلى مجرم محترف. ونشرنا الحملة ولقيت أصداء طيبة.

وذات يوم فوجئت بطفل فى حوالى الثالثة عشرة يطرق باب مكتبى فى «الأخبار» ويقدم لى القلم الذى نشله من جيبى أثناء ركوبى الأتوبيس ولم أشعر بفقد القلم إلا بعد أن قدمه لى النشال الذى ذكر لى أن اسمه «سمير». وأن أباه صاحب محل عصير قصب بحى القلعة ومتزوج من غير أمه التى تزوجت بعد طلاقها من رجل آخر.. وأنه لم يجد له مأوى سوى الانخراط فى هذه العصابات، وأنه متخصص فى نشل الأقلام.. وأنه كان يتبع

خطواتى منذ غادرت الأتوبيس إلى المكتب. قلت له وأنا أعصر ذاكرتى: يخيل لى أننى رأيتك من قبل؟

قال: نعم فى وكر المعلمة «فهيمة» ببولاق.. أنت والمدام وكنتما تبحثان عن ابنكما المفقود.

ورأيت أن أقدم له بعض النقود، لكنه لوح بيده معترضا.

وقال: أنا لا أريد الفلوس!

قلت: ماذا تريد إذن؟

قال: أريد عملا شريفا أقتات منه لقمة نظيفة.. لقد زهقت من حياة النشل والإجرام.

فكرت برهة وقلت: حسنا... ستذهب معى إلى البيت وتعيش معى.

قال على الفور: ياريت.. هذا شرف لا أستحقه.

كنت فى ذلك الوقت أقيم فى شقة بالعجوزة من ثلاث غرف يشاركنى فيها زميلاى: الأستاذ جلال عارف، والمرحوم جلال سرحان . وعلتهما دهشة عندما وجدانى أعود إلى البيت وفى صحبتى نشال «!!» وكنت حينئذ متشبعًا بالفكرة التى تقول إن الإنسان ليس شريرا بطبعه، ولكن بفعل الظروف الاجتماعية القاسية أو الظالمة، متأثرا فى ذلك بقصة الفيلسوف الأيرلندى «برنارد شو» عن بائعة الورد التى كانت تعيش فى قاع المجتمع الإنجليزى، فلما تغيرت ظروفها ولبست الثياب الفاخرة اقتحمت

مـجـتـمـع اللوردات، وكـان «شـو» يقـصـد السـخـرية والتـهكم من البورجوازية التى تفتتن بالمظاهر الجوفاء، وظهرت القصة فى فيلم رائع قـامت ببطولتـه «أودرى هـيـبـورن» والمـمـثل العظيم «ريكسى هاريسون» وتم تمصيرها فى مسرحية «سيدتى الجميلة» بطولة شويكار وفؤاد المهندس.

قلت لنفسى: لماذا لا أخوض التجـربة وأثبت للناس أن «سـمـيـر» النشال ليس أقل استعداد للتطور والاستجابة للخير، من «صدفة بنت بعضشى» ونجحت التجـربة. فكنا نتـرك الشـقـة فى حـمـاية «سمير» ثم نعود فنجد كل شىء مرتبا وسليما.. لم تفقد منه قشة.. ولاحظت أن سمير كان يبدى اهتماما خاصا بالأقلام المتناثرة على مكتبى، فيعيد تنسيقها وترتيبها، فقد كانت لديه حساسية تجاه الأقلام، وهى مادة تخصصه فى النشل «!!»

كـان من الممكن أن تستـمـر التـجـربة إلى مالا نهاية.. ويتحـول سـمـيـر إلى مـواطن صـالـح، وعنصـر نافع فى المجـتـمع، لولا أننى تعجلت بنشر قصـتـه فى «الأخبار» مـصـحـوبة بصورته، وبعدها فـوجـئت بوالده يقـتحـم مكتبى بطريقـة غـوغـائيـة ويهـدد بإبلاغ الشـرطة بخطف ابنه. ويؤكد أنه لا يفرط فى فلذة كبده مهما كان رغادة المعيشة التى لقيها عندى. فاستمهلته إلى الغد وعندما عدت إلى البيت حكيت لسمير ما وقع من أبيه، فإذا بالدموع تتسال من عينيه ويقول: إنى أعرفه جيدا.. وأعرف نواياه الخبيثة.. ولن أكون سببا فى أحراجك معه.. سأعود إليه غدا حتى أخلى مسؤوليتك وبعدها يفعل الله ما يشاء.

فى اليوم التالى صحبت سمير إلى «الأخبار».. وتسلمه الأب بعد أن ألزمته بتوقيع أقرار بالإحسان فى معاملته... وقبل أن يفارقنى سمير التفت نحوى وقال: سيجازيك الله خيرا فى أولادك.

وانقطعت صلتى بسمير.. ولا أدرى بعد مرور أربعين سنة، ماذا فعلت به الأيام.. هل سار فى طريق الهداية كما كنت أتمنى.. أم جرفته موجة الإجرام العاتية«!!».

مصرع السفاح

فى عام ١٩٦٠ ـ قبل أسابيع قليلة من تأميم الصحافة ـ انشغل الرأى العام المصرى بحكاية «السفاح» محمود أمين سليمان، وهو عامل تشكك فى سلوك زوجته فحاول قتلها، ولكنها اختفت، فأخذ يتعقبها فى بعض البيوت التى تتردد عليها، مما أدى به إلى قتل أشخاص أبرياء (وهى القصة التى استوحى منها نجيب محفوظ رواية اللص والكلاب) ولجأت الزوجة إلى الصحافة لتحميها من الزوج الذى يطاردها، وتبنت «أخبار اليوم» القضية، ونشرت سلسلة من التحقيقات التى تنحو باللائمة على أجهزة الأمن لتقصيرها فى القبض على «السفاح»، وتركه حرا طليقا يهدد حياة الآمنين. وكان لهذه الحملة الصحفية أثرها عند وزارة الداخلية فكثفت جهودها للإيقاع بالسفاح قبل أن يتزايد عدد ضحاياه. ونشرت صوره فى الصحف ورصدت جوائز مالية لمن يرشد إليه.

•• وعقد مصطفى أمين عدة اجتماعات للمحررين حضرها كبار رجال الأمن، ورسمت خطة لإشراك بعض المحررين فى تعقب

السفاح، وتفقد الأماكن التى يحتمل تردده عليها، واشتركت مع بعض الزملاء فى التجول داخل القرافة الكبرى بالعباسية، بعد أن قيل لنا أنه يلجأ إلى المقابر أثناء الليل، حتى جاء يوم تلقينا فيه أخبارا من وزارة الداخلية بأن السفاح شوهد وهو يعبر كوبرى المرازيق عند مصانع الحديد والصلب بحلوان. وأنه يتجه نحو الصعيد عن طريق البدرشين،

•• صحبت المرحوم الأستاذ عبدالسلام داود - نائب رئيس التحرير - فى سيارته، واتجهنا إلى البدرشين، وهناك قيل لنا أن رجال المرور شاهدوا السفاح وهو يعود إلى حلوان وأنه تحدث معهم وعرفوه، وخافوا من القبض عليه لأنه مسلح، فانطلقنا إلى صحراء حلوان فوجدنا حشدا كثيفا من رجال الأمن يحاصرون كهفا حجريا يعلو عن سطح الأرض بمقدار متر ونصف، وله مدخل واحد ينزلق إلى جوف الوكر. وقالوا أن السفاح أطلق الرصاص عندما حاول رجال الشرطة الاقتراب من مدخله.

•• هبطنا من السيارة، واندمجنا فى صفوف رجال الأمن من كافة الرتب. وسمعنا صوت السفاح بوضوح من داخل الكهف، وعندئذ انبطح الزميل المرحوم مصطفى سنان على بطنه، وأخذ يزحف حتى صار على مقربة من المدخل، وأخذ مصطفى يسجل بالقلم حواره مع السفاح الذى أعلن أنه لن يسلم نفسه إلا فى حضور شخصين، أحدهما: زوجته، والثانى الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل. وبدون هذا الشرط فلن يقبضوا عليه إلا جثة هامدة(!!)

•• وفجأة .. اختفى صوت السفاح، واستنتج رجال الشرطة أنه يتجول داخل الكهف - مثل الفأر المحبوس فى المصيدة - ويتطلع إلى الأجواء الخارجية من خلال الشقوق الضيقة بين الصخور، وبين الحين والحين كان يطلق رصاصة لتشتيت القوات المحاصرة وإرباكها. ووجدت جندى الأمن الذى يقف بجوارى وهو يطلق صرخات مفزعة، ويتقافز فى الهواء.. ثم.. يسقط ميتا بعد أن أطلق عليه السفاح رصاصة أصابت ما بين فخذيه.. وكان من الممكن أن تكون الرصاصة من نصيبى... ولكنها إرادة الله.

•• عرض أحد الضباط استعداده لاقتحام الوكر. ولكن رؤساءه منعوه، حتى لا يتخذه السفاح رهينة يساوم بها على نجاته من القتل، ووجدوا أن أفضل طريقة هى إرغام السفاح على الخروج من الوكر بواسطة الدخان الخانق، وجاء ضابط يحمل بندقية ضخمة تحمل على فوهتها القنبلة، وسددها نحو فتحة الكهف، ولكنه - للأسف - أخطأ إصابة الهدف، واصطدمت القنبلة بالجدار الخارجى فانطلقت سحائب الدخان الخانق تملأ صدورنا وعيوننا بآلام أشبه بالنار المحرقة، فأخذنا نهرول بعيدا عن المكان بحثا عن نسمة هواء، إلى أن زال أثر السحابة فعدنا إلى الكهف.

•• مرة أخرى اقترب مصطفى سنان من باب الكهف، وأخذ ينادى على السفاح فلم نسمع جوابا، فأدركنا أنه انتحر بعد أن تسلل إليه جانب من الدخان الخانق، وإدراكه أنه مقتول لا محالة، وعندئذ تقدم ضابطان يحملان مدفعان رشاشان، واقتحما الوكر

وهما يطلقان وابلا من الرصاص. وبعد دقائق خرجا يحملان جثة السفاح، بينما دوى التصفيق فى أرجاء المكان «!!»

•• جاءت سيارة نجدة فألقوا بجثة السفاح فى داخلها، وكانت سيارات النجدة فى ذلك الوقت أشبه بسيارات (فان) العالية، ووجدت نفسى بدون سابق تفكير: أمتطى سطح السيارة ثم انبطح على بطنى، وانطلقت السيارة تسابق الريح، فتشبثت بقاعدة (الإيرال) الهوائى المثبت فوق السطح حتى أحمى نفسى من السقوط، وأخذت أمد رأسى لأتطلع إلى ما يجرى فى جوف السيارة، فرأيت الجثة ممدده على أرض السيارة، وعلى الجانبين كان يجلس بعض عساكر الشرطة وهم يتضاحكون، ويعبثون بالجثة شماته فى هذا الشقى الذى قتل الكثيرين دون ذنب جنوه..

•• توقفت السيارة أمام قسم شرطة حلوان، وهناك وجدنا كبار رجال وزارة الداخلية، فعقدوا مؤتمرا صحفيًا أعلنوا فيه أن السفاح محمود أمين سليمان لقى مصرعه برصاص قوات الشرطة. وأن أجهزة الأمن لن تتوانى فى مطاردة أى مجرم يعبث بأمن المواطنين.. كما وجهوا الشكر إلى الصحافة لما قامت به من جهود.. إلخ.

•• فى اليوم التالى: صدرت صحيفة «الأخبار» تحمل فى صدر صفحتها الأولى مانشيت يقول (مصرع السفاح) وتحته مباشرة مانشيت آخر يقول (عبدالناصر فى باكستان) وكان الرئيس عبدالناصر يقوم وقتها بزيارة رسمية لباكستان. وأغفل سكرتير

التحرير أن يضع خطًا فاصلا بين السطرين، مما جعلهما جملة واحدة تقول (مصرع السفاح عبدالناصر فى باكستان).

•• كانت غلطة غير مقصودة بالطبع، ولكن الذين تعودوا الصيد فى الماء العكر، أوحوا إلى عبدالناصر أن مصطفى أمين يعبر عن مكنون نفسه بهذا الأسلوب الإيحائى. ويمهد نفسية الجماهير للقضاء عليه... ولم يكن هذا التفسير مقبولا، لأن العلاقة بين عبدالناصر ومصطفى أمين فى ذلك الوقت لم تكن تسمح بمثل هذا الوهم. ولكن المؤكد أن هذه الواقعة ترسبت فى نفس عبدالناصر، واحتفظ بها فى ذاكرته وجعل منها ذريعة لتأميم الصحافة بعد أسابيع من هذه الواقعة.

فى أحضان السد العالى

نشأت بينى وبين «السد العالى» علاقة حميمة منذ أيامه الباكرة عقب قيام جمال عبدالناصر بتفجير الشحنة الأولى من الديناميت فى صخور أسوان يوم ٩ يناير ١٩٦٠ بحضور محمد الخامس ملك المغرب، وشكرى القوتلى الزعيم السورى، وأخذت أتردد على السد بين الحين والآخر لمتابعة الأعمال التى تجرى هناك وكان ايقاع العمل يجرى بطيئا إلى أن قام عبدالناصر بتعيين المهندس صدقى سليمان وزيرا مقيما للسد العالى فكانت اقامته الدائمة فى الموقع بين المهندسين والعمال كفيلة بسرعة الانجاز ومضاعفة المجهود وتذليل العقبات وصار العمل يجرى نهارا وليلا على أضواء كشافات ضخمة.. فكان مشهدا مهيبا ورائعا.

كنت أفضل الذهاب إلى أسوان فى قطار الليل الذى يغادر القاهرة قبل الغروب، ربما تأثرا بقطار الشرق السريع الذى كان يعبر أوروبا وينتهى عند ساحل الباسيفيك، وكان مصدرا لكثير من

القصص والروايات فى الأدب الروسى ومنها قصة الأديب العالمى تولوستوى : «أنا كارنينا» التى تمصرت فى فيلم «نهر الحب» وقامت ببطولته فاتن حمامة مع عمر الشريف وكانت نهايته المفجعة تحت عجلات القطار وكان قطار النوم يتيح لى مشاركة زميلى المصور، فنقضى الليل فى الدردشة ثم النوم إلى أن تشرق علينا الشمس فى الأقصر.

وأوحى لى القطار بكتابة قصة خيالية عن مهندس شاب شاركنى المبيت فى الكابينة، فحكى لى عن مأساته، إذ كان يستعد للزفاف إلى الفتاة التى يحبها من أعماق قلبه، وبينما كانا يهيئان عش الزوجية، شكت الفتاة من ألم بسيط فى أحد أضراسها، وبعد الفحص تبين أنه ورم خبيث انتشر فى كل وجهها، ثم لم تلبث أن لبت نداء ربها، فأظلمت الدنيا فى وجه الشاب، وغلب عليه اليأس من الحياة، ولكن بعض زملائه صحبوه للعمل معهم فى السد العالى وهناك وجد نفسه فى بيئة جديدة، وقيم إنسانية رفيعة تقوم على التعاون وانكار الذات والحب والتعاون فذابت آلامه فى غمرة العمل الكبير وأقبل على الحياة بروح عالية.

وقدمت الموضوع إلى الأستاذ موسى صبرى، وكان يقوم مقام الأستاذ سعيد سنبل فى الإشراف على جريدة «أخبار اليوم» أثناء سفره وبعد دقائق استدعانى موسى صبرى إلى مكتبة فلاحظت علامات التأثر بادية على وجهه، ولمحت آثار دموع فى عينيه وسألنى : هل تكتب القصة؟ فقلت له أننى أديب ضل الطريق إلى

عالم الأدب بسبب الصحافة، فأخذ يثنى على القصة، وقد توخيت أن تكون فى شكل تحقيق صحفى لكى تأخذ طريقها إلى النشر وشجعنى على الاستمرار فى هذا اللون من التحقيقات الأدبية.. ونشر الموضوع فى العدد التالى من «أخبار اليوم».

وعندما اقترب موعد تحويل مجرى النيل فى ١٥ مايو ١٩٦٤، أقمت بصفة دائمة فى أسوان، كنت أتجول بين أطراف الموقع، وأكتب كل يوم تحقيقا مصورا، وأبعث بالموضوع والفيلم مع الطائرة العائدة إلى القاهرة فينشر فى اليوم التالى، ولن أنسى تحقيقا كتبته عن «شهداء السد» تناولت فيه قصص البطولات التى بذلها العاملون حتى سقط منهم شهداء ولم أعبأ بتلك الحساسيات الوهمية التى كانت تتجنب الحديث عن الذين ماتوا أثناء العمل، ويرون فى ذلك اساءة للسد فلما نُشر الموضوع لاق استحسانا من الجميع بمن فيهم رئيس الدولة.

قبل التحول بأسابيع ذهبت إلى أسوان بصحبة الفنان «بيكار» والمصور أحمد يوسف والزميل جميل عارف، بدعوة من المهندس عثمان أحمد عثمان وكان مسؤولا عن بناء جسم السد، وفى أثناء ذلك بدأ كبار الصحفيين والأدباء والعلماء يتوافدون على أسوان، لالقاء نظرة على المشروع بعد اتمامه وقبل احتفالات التحويل الذى يحضرها عبدالناصر وخروشوف، وجاء مصطفى وعلى أمين بصحبتهما فى جولة حول معالم السد، وكانا يقيمان فى فندق كتراكت الجديد، بينما كنت أقيم فى كتراكت القديم، وتجمعهما

حديقة غناء وفى تلك الليلة صعد على أمين إلى فراشه مبكرًا، ويقيت مع مصطفى أمين على المائدة بالحديقة إلى ساعة متأخرة من الليل واستمتعت بالذكريات والحكايات التى رواها مصطفى أمين.. ومنها أن النحاس باشا استدعاه الملك فاروق لتشكيل الوزارة وانقاذ عرش البلاد، بعد أن قام السفير البريطانى «لامبسون» بمحاصرة قصر عابدين بالدبابات.

فى الصباح قلت لمصطفى أمين أن رئاسة الجمهورية أمرت باخلاء الفندق من النزلاء لاستيعاب الوفود التى سترافق عبدالناصر وخروشوف، فقال لى: لا تنزل فى فندق أقل من خمسة نجوم، وسوف أرسل لك بالتلغراف مائة جنيه كى تقيم فى الفندق العائم - ايزيس - وكانت تكاليف الاقامة فى تلك الفنادق الفاخرة لاتتعدى خمسة جنيهات فى الليلة وذهبت إلى البنك واستلمت النقود ونقلت مهماتى إلى المقر الجديد.

كان المخرج يوسف شاهين قد جاء إلى أسوان ومعه الفنانة نادية لطفى والفنان أحمد مظهر وحشد من الفنانين والفنيين لتصوير لقطة تحويل مجرى النيل ضمن فيلم كتب قصته موسى صبرى، واقاموا معنا فى كتراكت وكنت أتناول معهم طعام الغداء ونشأت بينى وبينهم صداقة خلال تلك الأيام المجيدة، وعندما سألتهم عن قصة الفيلم إذا بهم يحكون لى قصة شاب مهندس أصيب فى

حياته العاطفية بصدمة عنيفة ولم يجد له من مخرج سوى الذهاب للعمل فى السد العالى.. وتذكرت على الفور القصة التى كتبتها فى «أخبار اليوم» ولكنى التزمت الصمت.

ولا أدرى إذا كان من حسن الحظ - أو من سوء الحظ - أن هذا الفيلم لم يظهر إلى الوجود لأسباب لا أعرفها.

فى بلاد النوبة

اقتضى بناء السد العالى إغراق بلاد النوبة الممتدة من جنوب مصر إلى شمال السودان بعد أن ارتفع مخزون البحيرة إلى أعلى منسوب يغطى أرض النوبة، وهى المرة الثالثة منذ عام ١٩٠٢، فقد تمت تعلية خزان أسوان مرتين تم فيهما نقل أهل النوبة إلى مواقع أعلى فى نفس قراهم، أما فى المرة الثالثة: كان لا مفر من تهجير الناس إلى كوم أمبو وإسنا ـ شمال أسوان ـ فى قرى جديدة بُنيت على نفس النمط النوبى، وتحمل نفس الأسماء.

وكانت الضحية الثانية لمخزون البحيرة : المعابد الفرعونية فى منطقة النوبة، وأشهرها معبد «أبو سمبل» الذى أقامه رمسيس الثانى عن طريق الحفر فى جسم الجبل المطل على النيل بدقة هندسية عالية، فتشرق الشمس على وجه تمثاله الغائر فى عمق المعبد مرتين فى السنة : الأولى فى ذكرى ميلاده، والثانية فى ذكرى اعتلائه العرش ولإنقاذ هذه الكنوز الأثرية من الغرق قامت حملة

عالمية أشرف عليها وزير الثقافة يومئذ الدكتور ثروت عكاشة، تحت رعاية منظمة اليونسكو، وشاركت دول العالم بأموالها فى عملية الانقاذ وكان لابد أن تتم العمليتان : التهجير وانقاذ الآثار فى وقت واحد قبل تحويل مجرى النيل فى ١٥ مايو ١٩٦٤.

وذات يوم من عام ١٩٦٢ انعقد قسم التحقيقات الصحفية بصحيفة «الأخبار» برئاسة الاستاذ جلال الدين الحمامصى، فشرح الظروف الدرامية التى تجرى فى منطقة النوبة، وطلب قيام بعثة صحفية لتسجيل هذا الحدث الكبير، وانتظرت فلم أجد من الزملاء من ندب نفسه لهذه المهمة، وعندئذ أعلنت استعدادى للذهاب إلى هناك، ووافق الحمامصى على أن يرافقنى اثنان من الزملاء المصورين هما : فاروق إبراهيم ويحيى بدر، فسافرنا إلى أسوان، ومنها ركبنا الباخرة «البوستة» وسيلة الانتقال الوحيدة بين قرى النوبة المتناثرة على امتداد ضفتى النيل حتى وادى حلفا، وبدأت المركب العتيقة رحلتها عند الغروب، وأمضينا الليل على ظهرها فى السمر والحديث حتى أطلت علينا الشمس من وراء الجبال، وكانت أول قرية نوبية توقفنا عندها هى «توشكى» فهبطنا إليها وتجولنا فى ازقتها الضيقة وكان كل بيت قد أخرج ما خف حمله من متاع لتحمله الصنادل النيلية إلى مواقع التهجير الجديدة، ولاحظنا أنهم يحملون معهم فسائل من أشجار النخيل ليزرعوها فى أرض التهجير لأنها تنتج أنواعا ممتازة من التمور تباع بأثمان غالية فى أسواق المدن.

كانت الصنادل تقف على حافة اليابسة فيهبط إليها أهل النوبة حاملين أمتعتهم وقد امتلأت عيونهم بالدموع، حتى إذا أقلعت الصنادل ظلت عيونهم معلقة بالأرض التى عاش فيها أجدادهم منذ آلاف السنين، حتى إذا غابت عن عيونهم ظلت محفورة فى صدورهم، وفى أثناء رحلة الوداع الأخير، كان زميلاى يلتقطان صورا لتلك اللحظات المشحونة بالشجن، بينما قلمى يسجل ما يجول فى خاطرى عن هذا الشعب الطيب الذى فرضت عليه التضحية ثلاث مرات من أجل المصالح العليا للبلاد وكنت أجد العزاء فى أن انتقالهم إلى عمق الوادى سوف يقضى على عزلتهم القاسية، ويحقق لهم قدرا أكبر من التمتع بخدمات التعليم والصحة والاندماج فى السبيكة الاجتماعية.

والمعروف عن أهل النوبة أنهم من أشد المجتمعات حفاظا على التقاليد والتمسك بالأخلاق الفاضلة، ومن أشهر طباعهم الأمانة، ويندر أن تجد نوبيا متورطا فى جريمة سرقة، والرجل النوبى يهاجر إلى المدن بحثا عن الرزق، ويترك زوجته فى خدرها، ويمدها بالمال كلما تيسر له الحال، وقد تطول هجرته، ولكنه حتما يعود إلى موطنه فى «البوستة» فيجد فى انتظاره زوجة مخلصة، وأما صابرة، والنوبية لا تتزوج إلا من ابناء عمومتها، أو من أهل قريتها، ويصعب زواجها من خارج المجتمع النوبى.

والنوبة المصريون ينتمون إلى قبائل : الفديجة والكنوز، واختلطوا بالعرب بعد الفتح الإسلامى وأخذوا عنهم الإسلام واللغة

العربية، ومع ذلك ظلوا محتفظين بلغتهم الأصلية حتى الآن، وهى لغة غير مكتوبة ويتناقلونها شفاهة، وقد دخل الإسلام بلاد النوبة مع الفتح عندما أرسل إليهم عمرو بن العاص حملة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى السرح فلم يكتب له الانتصار الكامل، فعقد معهم معاهدة «البقط» وبمقتضاها تتعهد الحكومة الإسلامية بإمداد النوبة بشحنات سنوية من المواد التموينية، على أن يتكفل حكام النوبة بتقديم عدد من شبابهم للانخراط فى الجيش الإسلامى، وكان من ثمرات هذا الاتفاق أن أحد أبناء «دنقلة» - وهو يزيد بن أبى حبيب - جذبته الحركة العلمية التى نشأت فى مسجد بالفسطاط، فتلقى علوم الدين من التابعين وأكابر الفقهاء حتى صار مفتيا وتكونت من حوله أول مدرسة للفقه فى مصر الإسلامية، وقال عنه الفقيه المصرى الليث بن سعد : يزيد سيدنا ومعلمنا.

وذهبنا إلى معبد أبو سمبل، فراعنا مشهد الفنيين الإيطاليين وهم يقومون بتقطيع أوصال المعبد بواسطة مناشير من الفولاذ ويكتبون على كل قطعة بيانات دقيقة تحدد موقعها فى جسم المعبد، ثم تقوم الروافع الجبارة والشاحنات الضخمة بحملها إلى الموقع الجديد فى أعلى الجبل كان منظر المعبد وهو يتعرض للتقطيع يثير الفزع وكنت أقول لنفسى لو أن رمسيس علم بهذا المصير لفضل بناء معبده من أعمدة جاهزة وقطع حجرية يسهل تركيبها وفكها كما الحال فى معابد الأقصر، أما أن يبنيه عن طريق النقر فى صخور الجبال، فذلك هو التحدى الذى يبلغ حد الاعجاز، ومع ذلك

نجحت الخبرات الأوروبية فى نقل المعبد وإعادة تركيبه بنفس تصميم المعبد الأصلى، وعندما زرت المعبد الجديد منذ سنوات قريبة، لم أجد فارقا ملحوظا بين القديم والحديث.

أما قرى النوبة فقد غمرتها مياه بحيرة ناصر، وختمت على تاريخها إلى الأبد، وصارت موطنا للأسماك أما أهلها فقد كتبت لهم حياة جديدة أكثر أمنا ورقيا، تعويضا عما قدموه من تضحيات.

من أجل عيون صاحبة الجلالة

خرجت من المعتقل فى صيف ١٩٥٦ ولم أكن قد حصلت على شهادة التوجيهية التى تم الغاؤها فى نفس العام مع منح فرصة أخيرة لطلبة هذه الشهادة قبل تطبيق النظام الجديد فمكثت فى البيت عاما كاملا عكفت فيه على المذاكرة، ونجحت فى الامتحان بتفوق أتاح لى الالتحاق بقسم الصحافة فى كلية آداب القاهرة، وتحقيق أمنية حياتى فى العمل داخل بلاط صاحبة الجلالة.

كانت ظروفى الاجتماعية صعبة، وتستوجب البحث عن وظيفة ذات دخل ثابت يساعدنى على مواجهة أعباء المعيشة فوقعت فى مأزق الموازنة بين ضرورات الحياة، وجاذبية الهواية الصحفية وقرأت اعلانا فى الصحف عن مسابقة يجريها ديوان الموظفين بين الحاصلين على الثانوية العامة للتعيين فى وظائف حكومية فتقدمت إلى المسابقة، ولما ظهرت النتيجة وجدتنى ضمن الأوائل الذين يحق لهم التعين فى القاهرة، وتلقيت أخطارا بترشيحى للتعيين فى

مصلحة التليفونات.. فذهبت إلى هناك لاستطلاع الموقف، فأشاروا على بالنزول إلى البدروم لمقابلة «وديع أفندى» المسؤول عن شؤون الموظفين اجتزت ممرا تفوح منه رائحة العطن، وتتكدس على جانبيه ملفات من الأرض إلى السقف، ودخلت الغرفة شبه المظلمة فوجدت، رجلا طاعنا فى السن، ضئيل الجسم غارقا فى تلال الورق، ولا يظهر منه سوى رأس يعلوه طربوش، وعلى حافة منخاريه نظارة تعرف باسم «قعر الكوب» لسماكة عدساتها، كان أشبه بالممثل المعروف باسم «شرفنطح» ولم أكد أبرز له خطاب التعيين حتى قدم لى ورقة تتضمن مسوغات التعيين التى يجب على أن أقدمها خلال أسبوع.. ألقيت نظرة سريعة على الورقة فوجدتها متخمة بالمطالب فطويتها فى جيبى وانطلقت سريعا إلى شارع رمسيس متلهفا على نسمة هواء تطرد ما اختزنه صدرى من هواء فاسد.

دار فى رأسى صراع داخلى بين الوظيفة الحكومية، والهواية الصحفية التى تتطلب التفرغ لو أننى قبلت التعيين فلن أتمكن من الانتظام فى الدراسة الجامعية، وسوف ابتعد عن جو الصحافة واستخرت الله واتخذت قرارى فلم أذهب إلى «وديع أفندى» حتى ساعة كتابة هذه السطور، وتفرغت مع بعض زملائى لإصدار مجلة «صوت الجامعة» التى رويت قصتها فى مقال سابق إلى أن جاء مصطفى أمين وطلب منى العمل فى «أخبار اليوم» ووجدت منه كل رعاية، ولأنة كان يعرف ظروفى الاجتماعية فقد منحنى مكافأة شهرية توازى ثلاثة أمثال ما كان يحصل عليه زملائى فى نفس

الدفعة، وكان حريصا على أن اتفرغ للعمل ولا أحمل هم المشكلة المالية، ولجأت إليه مرة شاكيا من قلة المكافأة فرفعها دون تردد.

بعد تأميم الصحف : تغير الموقف، ولم يعد مصطفى أمين يملك صلاحية التدخل فى مرتبات المحررين، وتجمد مرتبى، ووجدتنى مضطرا إلى الانتقال إلى مؤسسة صحفية أخرى وقامت وكالة أنباء الشرق الأوسط بأختيار عدد كبير من محررى مؤسسة «أخبار اليوم» للعمل فى الوكالة والمجلات التابعة لها ضمن خطة تطوير واسعة وضعها الدكتور «زين نجاتى» رئيس مجلس الإدارة وقتئذ، وكنت من بين هؤلاء، واحتج مصطفى أمين على هذا «السطو» الذى يؤدى إلى تفريغ «أخبار اليوم» من أنشط عناصرها فلجأ إلى الدكتور محمد عبدالقادر حاتم وزير الإعلام المشرف على الوكالة، فأمر بوقف الهجرة واستثنائى من قرار الحظر، بناء على طلب مصطفى أمين الذى سمح لى بالانتقال إلى الوكالة حتى لا أحرم من المرتب المضاعف المعروض على من الوكالة، وعندما ذهبت إلى مصطفى أمين لكى أشكره، قال لى : لقد فرطت فيك لكى يتحسن مرتبك، وبعدها ستعود إلى مكانك فى «أخبار اليوم».

انتقلت إلى الوكالة دون أن يكون لى سابق خبرة بطبيعة العمل فى وكالات الأنباء والذى يعتمد بالدرجة الأولى على جلب الأخبار، وهو مجال حالت الاجراءات الأمنية دون خوضه، فقد كان محرما على أى صحفى سبق اعتقاله أن يدخل مقرات الوزارات، الأمر الذى دفعنى إلى التفرغ لعمل التحقيقات الصحفية، ولم يكن

للتحقيقات موقع فى نشاط الوكالة فى ذلك الوقت فانحصر عملى فى «الدسك» لمراجعة الأخبار واعادة صياغتها، وهو عمل روتينى لا يتفق مع استعدادى وخبرتى السابقة وشعرت أننى تجمدت، وأن قلمى قد علاه الصدأ وأن الطريق صار مسدودا أمامى لأشباع هوايتى.

ذهبت إلى مصطفى أمين، وقلت له أننى أشعر بالجمود وقد مرت ستة شهور دون أن أتجاوب نفسيا مع طبيعة العمل فى الوكالة، فقال : أننى مدرك الأزمة التى تمر بها، وتستطيع أن تعود فورا إلى مكانك فى «أخبار اليوم» وقبل أن أشكره، استدرك قائلا : ولكن اللوائح لا تسمح بمنحك المرتب الذى تتقاضاه من الوكالة، ولا مفر من تخفيض مرتبك، فقلت له على الفور.. موافق.

وكما ضحيت بالوظيفة الحكومية ذات الدخل الثابت من أجل عيون صاحبة الجلالة، كان على أن أضحى بالمرتب المجزى من أجل أن أمارس عملى فى مناخ يتفق مع هوايتى.. فالصحافة - عند من يعشقها - هى البحر الذى يسبح فيه السمك ويتنفس ويعيش.. فإذا خرج من الماء فقد كتب على نفسه الفناء مهما كانت المغريات.

لقد فضلت حياة أقل رفاهية وربما أكثر شظفا من أجل البقاء فى بلاط صاحبة الجلالة على النحو الذى يتفق مع ميولى.

مهندس الصحافة

كان جلال الدين الحمامصى ضمن خمسة صحفيين كبار تزين أسماؤهم «ترويسة» صحيفة «الأخبار» القاهرية بصفتهم رؤساء تحريرها ويعلوهم اسم «محمد التابعى» على أنه مديرا للتحرير، ولم يكن أحد من هؤلاء يمارس فعليا، سلطة رئيس التحرير غير مصطفى أمين، فكانت الترويسة أشبه بلوحة شرف لتكريم هؤلاء الكبار، والايحاء للقارىء أن صحيفته تضم أكبر وأضخم الأسماء الصحفية، وهم : مصطفى أمين، على أمين، كامل الشناوى، محمد زكى عبدالقادر، جلال الدين الحمامصى، وظل هذا التقليد ساريا إلى أن تولى موسى صبرى منصب رئيس مجلس الإدارة فى السبعينيات، فأطاح بالأسماء التى كانت تعلو صدر الصحيفة، وأبقى على اسمه فقط رئيسا لمجلس الإدارة ورئيسا للتحرير كما أبقى على اسمى مصطفى وعلى أمين كمؤسسين لدار «أخبار اليوم».

ويهمنى فى هذا المقام أن اتكلم عن جلال الدين الحمامصى فقد بدأ حياته السياسية منذ كان طالبا بكلية الهندسة فى جامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليا» وكان زعيما للطلبة بالكلية، وفى عام ١٩٣٥ اندلعت المظاهرات الطلابية تندد بالاحتلال البريطانى، وتطالب بالدستور وتدعو زعماء الأحزاب إلى نبذ الفرقة ووحدة الصف، وعندما وصلت المظاهرة إلى كوبرى عباس، قامت السلطات البريطانية بفتحه حتى تحول دون عبور الطلاب إلى القاهرة، وعندئذ هبط الطالب جلال الدين الحمامصى إلى جهاز تشغيل الكوبرى، وتمكن من غلقه، فتدفق الطلبة إلى حى الروضة حيث كانت القوات الإنجليزية فى انتظارهم، ووقعت معركة دامية سقط فيها من شهداء كلية الآداب محمد عبدالحكم الجراحى، ومن كلية الزراعة عبدالمجيد مرسى.

بعد تخرجه من كلية الهندسة اتجه جلال الدين الحمامصى للعمل فى الصحافة، وأعنى بها عملية الإخراج الصحفى التى تعتمد على الذوق الفنى وتنسيق المواد الصحفية، والتحق بصحيفة «المصرى» التى أصدرها عام ١٩٣٦ الملاك الثلاثة : محمود أبو الفتح وكريم ثابت ومحمد التابعى وفى عام ١٩٤٣ خرج الحمامصى على حزب الوفد وانحاز إلى مكرم عبيد باشا الذى أصدر كتابه الشهير «الكتاب الأسود» فى مثالب الوفد، وقام الحمامصى بالأشراف على توزيع الكتاب فى كل أنحاء البلاد رغم أنف الرقابة المشددة التى فرضتها حكومة الوفدلمنع ترويج الكتاب.

•• وجمعت الصداقة بين الحمامصى والأخوين مصطفى وعلى أمين، وساهم الحمامصى ببعض أمواله فى شراء المطبعة التى تأسست عليها «دار أخبار اليوم» فى أواخر الأربعينيات، وعند أصدار صحيفة «الأخبار» فى يونيو ١٩٥٢، كان الحمامصى من بين رؤساء تحريرها، وبقى إلى جانب الأخوين «أمين» فى السراء والضراء، حتى فقد نصيبه من رأسمال المطبعة بعد تأميم دار أخبار اليوم فى عام ١٩٦٠.

كان الحمامصى يتابع خطواتى الأولى فى «أخبار اليوم» باهتمام، فلما فكر فى انشاء قسم قوى للتحقيقات الصحفية، أختارنى ضمن المجموعة «الضاربة» ولكن القسم لم يكتب له الاستمرار بسبب حادث التأميم الذى عطل كل الخطط، ومع ذلك ظل الحمامصى يوالينى بالرعاية والإرشاد. وفى عام ١٩٦٦ خطر له تأسيس قسم يهتم بأخبار وحياة الناس من الأقاليم، فأطلق عليه اسم «ماذا يجرى خارج القاهرة» فاختارنى ومعى الزميل المرحوم زين الدين شكرى للإشراف على القسم فأخذنا مجموعة من شباب الصحفيين ودفعنا بهم إلى العواصم الكبرى فى المحافظات ليكون كل منهم محررا مقيما وبذلك ارتفع مستوى المراسلين فى الأقاليم وخصص الحمامصى صفحتين كاملتين لنشر كل ما يأتينا من هؤلاء المحررين من تحقيقات وأخبار وصور، وبذلك كسرنا الاحتكار الإعلامى الذى كانت تتمتع به القاهرة، واجتذبت الصفحتان أفكار القراء والمفكرين فأخذوا يدرسون كل ما ينشر من مشاكل اقليمية ويعملون على حلها.

وأفادني الإشراف على القسم إفادة كبيرة، فقد أتاح لى فرصة التغلغل فى أحشاء المجتمع والتجول فى أنحاء الريف، حتى لا أذكر أن هناك قرية لم أزرها، كذلك تعرفت على كثير من المحافظين الذين صاروا ـ فيما بعد ـ وزراء ورؤساء وزارات وتوسعت دائرة معارفى ومصادرى، وهو من أهم العوامل التى ترفع من حجم الصحفى، وكان مصطفى أمين يقول لنا أن الصحفى يكبر كلما كبرت أجندة تليفوناته.

أخذت الصحف الأخرى تقلد باب «خارج القاهرة» وتخصص مساحات كبيرة لأخبار المحافظات، وابتكرت الإذاعة والتليفزيون برامج على هذا النمط، ورأينا شباب الصحفيين يتسابقون على الذهاب إلى الأقاليم بعد أن كانت القاهرة هى مناط الاهتمام فلما وقعت حرب يونيو ١٩٦٧ تقلصت المساحة إلى صفحة واحدة ثم أخذت فى الانكماش حتى كادت تتلاشى، وبعد أن سافرت إلى الأمارات فى عام ١٩٧٢ تولى أحد أبناء القسم الإشراف عليه وظل فى موقعه حتى الآن وهو الزميل فايز بقطر.

كان الأستاذ جلال الدين الحمامصى يتمتع بصفات خلقية نادرة أهمها الاستقامة والجدية وكان مشهورا بالدقة فى المواعيد حتى كنا نضبط الساعة على موعد وصوله إلى الصحيفة ـ سيرا على الأقدام ـ فى تمام التاسعة صباحا، والانصراف فى تمام الثانية بعد الظهر، ولم يكن يميل إلى المزاح أو الترويح وتغلب على ملامحه الصرامة، ولكنه كان فى الحقيقة يجنح إلى الطيبة والسمو وعدم

الإيذاء وكان ينطوى على روح أبوية، وفى كلية الإعلام تربى على يديه مئات الطلاب الذين يشغلون الآن مواقع قيادية فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون، فضلا عن عشرات الصحفيين الذين تعلموا فنون المهنة واخلاقياتها الرفيعة.

كان للحمامصى عمود ثابت فى الصفحة الثالثة للأخبار عنوانه «دخان فى الهواء» اشتهر فيه بالجرأة فى النقد، وملاحقة مظاهر الفساد، مما كان يعرضه لبطش السلطة فيتوقف عن كتابته ثم يعود العمود إلى الظهور بعدما تتقشع الغيوم، ويتحقق قدر من الحرية، وله كتاب بعنوان «القرية المقطوعة» جمع فيه بعض هذه المقالات بالإضافة إلى قضايا الفساد التى فجرها، وإلى جانب ذلك تبنى قضية ديون مصر الخارجية ودعا الشعب إلى الاكتتاب من أجل تسديدها واستجاب له كثير من الناس وإلى الحمامصى يعود الفضل فى ابتكار كثير من الأبواب الصحفية التى ظهرت على صفحات «الأخبار» ثم قلدتها الصحف الأخرى مثل جريدة «الجمعة» وهى الصفحة الدينية التى تقدم للقراء ثقافة إسلامية، وصفحة «أيام ليالى رمضان» وتظهر يوميا خلال شهر الصوم، وباب «أين هم الآن» ويتناول حياة المشاهير الذين انحسرت عنهم الأضواء وغيرها كثير.

وعندما صدرت صحيفة «الوفد» فى أبريل ١٩٨٤ كنت مع زميلى المرحوم مصطفى شردى نجد التشجيع من أستاذنا جلال الدين

الحمامصى فلم يكن يبخل علينا بملاحظاته وارشاداته، وكان هو لا يخفى اعتزازه بأن بعض أبنائه نجحوا فى انجاز عمل ناجح، ولما مات الحمامصى فى عام ١٩٨٦ شعرنا بأننا فقدنا أستاذا، وأبا كريما يرحمه الله.

جريدة الفلافل

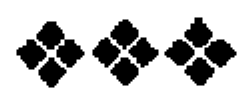
أشرت إلى قصاصة الصحيفة التى قرأتها فى السجن فى عام ١٩٥٥ وعرفت منها بعض الأخبار، ولهذه القصاصة حكاية يطيب لى أن أرويها، لأن الاهتمام بقراءة الصحف كانت الهواية التى دفعت بى إلى بلاط صاحبة الجلالة.

كانت الصحف والكتب من الممنوعات التى لا يسمح بتسريبها إلى المعتقلين، ورغم أن المسجونين المحكوم عليهم كان يسمح لهم بالتردد على مكتبة السجن للإطلاع على الكتب والصحف والمجلات، فإن هذه «النعمة» كانت محظورة على المعتقلين، وكان هذا الحرمان يشكل عذابا لأمثالى الذين تعودوا على قراءة الصحف منذ الصغر، لدرجة أننى كنت أهرع فى الصباح الباكر إلى محطة قطار الدلتا لأحصل على نصيبى من الصحف، ولا أطيق الأنتظار حتى يقوم البائع بتوزيعها.

فى سجن «قراميدان» كان الحرمان من القراءة لا يقل ألما عن

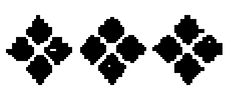
الحرمان من الحرية، وكانت إدارة السجن توزع علينا وجبة الأفطار من بعض أقراص الفلافل «الطعمية» ملفوفة فى قصاصات من ورق الصحف، وخطر لى أن أجعل من هذه القصاصات جريدة مقروءة، فعكفت على ترتيبها زمنيا وموضوعيا بقدر ما تسعفنى المادة المنشورة، ثم قمت بتنسيقها وتثبيتها بواسطة «الفتلة والأبرة» وتوفرت لنا بهذه الطريقة جريدة عامرة بالأخبار، وعن طريقها بدأنا نعرف ما يجرى فى العالم خارج جدران السجن، ورغم أن أوراق الجريدة كانت ملوثة ببقع الزيت الذى تُقلى به الطعمية، فقد تهافت المعتقلون على قراءتها وتداولتها الأيدى بطريقة سرية، فلا تتم قراءتها إلا بعد انصراف السجانين.. وفى خلال بضعة أيام توافرت لنا أعداد لا بأس بها من جريدة «الفلافل» لا تقل فى روعتها عن الصحف الكبرى.

وذات يوم قرأت قصاصة من صحيفة «أخبار اليوم» تحتوى على بضعة سطور من مقال للأستاذ على أمين يتحدث فيه عن النجم السينمائى أنور وجدى وكيف أنه باع شبابه ليشترى المجد فقال البائع لا يكفى، فباع صحته، وقال البائع لا يكفى، حتى فقد سعادته، وعندما أراد أن يسترد بضاعته : لم يجد البائع، ولم يجد الدكان «!» وفهمت من هذه السطور أن أنور وجدى قد مات، فتملكنى حزن عميق فقد كان أنور وجدى يمثل البطولة والرجولة لأبناء جيلى ولم أكن أستطيع «تفويت» فيلم يقوم ببطولته، وكان أخرها فيلم «أمير الانتقام» الذى بلغ فيه ذروة المجد.



ومن خلال قصاصات أخرى عرفت أن أنور وجدى مات فى أحد مستشفيات السويد بعد أن فشلت محاولات انقاذه من مرض السرطان، وأنه عاش الشهور الأخيرة من عمره يصارع هذا المرض اللعين الذى حرمه من تذوق أطايب الطعام التى كان يتمناها أيام فقره، وقالوا أنه فى لحظة من لحظات اليأس من الفقر والرغبة فى الثراء طلب من السماء أن تجود عليه بالمال ومعه السرطان.. واستجابت السماء لمطلبه فمنحته المال، وسلبت منه الصحة، وقالوا أنه كان فى مرض الموت يأسفُ لهذا الخطأ.. ويتمنى لو عاد فقيرا.. يستمتع بأكل الفول والطعمية والبصارة والعدس.. وهو المعنى الذى تناوله على أمين فى مقاله الحزين.

كان من الصعب أن أفصح عن لوعتى بوفاة أنور وجدى فقد كانت الاتجاهات الدينية التى تسود رفاق السجن لا تسمح بمثل هذه المشاعر أن تظهر وترى فيها خروجا على آداب الدين، ولم يكن أمامى إلا أن احتفظ بألمى بين جوانحى ولا أكشف عنه للآخرين.



ظلت «جريدة الفلافل» تصدر بصفة منتظمة، فهى النافذة الوحيدة التى يطل منها المعتقلون على العالم، ويستعجلون صدورها، ويستقبلونها بلهفة شديدة، وما أكثر الأخبار التى عرفناها عن طريق هذه الصحيفة التى تفوح منها رائحة الفلافل، إلى أن أكتشفت إدارة السجن امرها وذلك عندما فوجئنا بحملة تفتيش على العنابر والزنازين لمصادرة الممنوعات وعثر الضباط على نسخ

من الجريدة فأخذوا يقلبون صفحاتها وقد ارتسمت على وجوههم الدهشة، وسألوا عن «الشيطان» الذى ابتكر صحيفة رغم التعليمات، واعترف بعض المعتقلين بأننى صاحب الجريدة ومنفذها، فاقتادونى إلى مكاتب الإدارة، وفتحوا معى تحقيقا أنتهى بصدور قرار بأن أقضى يومين فى الحبس الأنفرادى عقابا على أننى أصدرت صحيفة بدون ترخيص «!!».

وقضيت اليومين فى عذاب مقيم، ورغم أن الحبس الانفرادى يخلو من الضرب والاهانة، إلا أن «الوحدة» بين أربعة جدران هى ذروة العذاب، لأن الحبيس يظل بدون أنيس أو جليس يتبادل معه الكلام، وتمر الساعات وهو تحت ضغط التفكير والهواجس.. وربما الهلاوس التى تفضى إلى الجنون.

وأدركت فداحة هذه العقوبة التأديبية التى توقع على المذنبين فى السجون وحمدت الله أننى قضيت العقوبة وأنا سليم العقل ولما حاولت استئناف أصدار الجريدة اكتشفت أن إدارة السجن حظرت وضع أقراص الطعمية فى أوراق الصحف، وطلبت من المتعهد أن يقدمها بدون ورق.. وكان قرارًا تعسفيا أدى إلى وقف صدور «جريدة الفلافل»!!

البعكوكة

كانت مجلة «البعكوكة» آخر العنقود فى الصحافة الفكاهية التى انتشرت فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين وإن كانت الصحافة الهزلية والساخرة قد بدأت مسيرتها فى أخريات القرن التاسع عشر بدءا من مجلة «أبو نظارة» لصاحبها يعقوب صنوع، وهو أديب يهودى كان عضوا دائما فى حلقة السيد جمال الدين الأفغانى التى كان يعقدها فى مقهى «متاتيا» بميدان العتبة الخضراء - يوزع السعوط بيسراه.. والثورة بيمناه - ويحض تلاميذه على أصدار الصحف لنقد الأوضاع السياسية بعد تفاقم أزمة الديون الأجنبية وتغلغل النفوذ الغربى، وأسراف الخديو إسماعيل مما دفعه إلى طرد «صنوع» من مصر ومن باريس استأنف صنوع إصدار مجلته تحت مسميات جديدة فهى أبو نظارة زرقاء حينا، وحمراء حينا آخر، ويبعث بها عن طريق البريد إلى أصدقائه فى مصر، فتتداولها الأيدى سرا وعلى نهج «صنوع» أصدر خطيب

الثورة العرابية عبدالله النديم سلسلة من الصحف الساخرة مثل : «حمارة منيتى» و «المسلة» التى كان يصفها بأنها «لا جريدة ولا مجلة» وانتهت بطرده إلى الأستانة إلى أن لقى حتفه.

ومع شدة وطأة الاحتلال البريطانى ازدهرت الصحافة الفكاهية، ولقيت قبولا شعبيا لأن القراء وجدوا فيها متنفسا عن ضغوط الاحتلال واستبداد القصر، وكانت هذه الصحف تحرر موادها باللهجة العامية، وتنشر الشعر «الحلمنتيشى» وهو اعادة صياغة القصيدة من الفصحى إلى العامية على نفس الوزن والقافية وتبتكر شخصيات كاريكاتورية تجرى على ألسنتها عبارات لاذعة مغرقة فى السخرية وكان بعض هذه المجلات يجنح إلى الجرأة فى التهجم على الحكام والوزراء وسلطة الاحتلال، الأمر الذى كان يعرضها إلى المصادرة، والمحاكمة أحيانا، مثلما حدث لصاحب مجلة «الصاعقة» واسمه أحمد فؤاد فقد نشر قصيدة مجهولة المؤلف تتضمن هجوما مسفا على الخديو عباس حلمى الثانى، وانتهت مباحث الداخلية إلى أن كاتب القصيدة هو الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى، فقدم مع صاحب المجلة إلى المحاكمة، فحكمت عليهما بالسجن ستة شهور.

كانت الصحف والمجلات الهزلية والفكاهية تحمل أسماء تنم عن طبيعتها مثل : «الكرباج، الطوربيد، الشطة، المطرقة، الصاعقة، أضحك، ألف نكتة، المسامير، البغبغان، السيف، الفارس، الشعلة»، ويشترك فى تحريرها كتاب قادرون على انتزاع الضحكة أو رسم

الابتسامة على وجوه القراء وتتنافس على تسلية القراء والتسرية عنهم بما تقدمه من مواد خفيفة سهلة الهضم، وقد بدأت صلتى - كقارئ - لهذا النوع من الصحافة عن طريق مجلة «البعكوكة» التى بدأت فى الظهور فى عام ١٩٣٤ تحت اسم «الراديو» وهو نفس العام الذى شهد مولد الإذاعة الرسمية، وظهرت «البعكوكة» فى أول أمرها كجزء من مجلة «الراديو» ثم استقلت عنها وصارت أشهر مجلة فكاهية فى الأربعينيات.

وصاحب «البعكوكة» شخص عصامى اسمه محمود عزت المفتى، تلقى قدرا ضئيلا من التعليم الأزهرى، وعمل موزعا للسندات فى أحد البنوك اليهودية، فاكتسب قدرة تجارية فذة، وابتكر طريقه لتوزيع الصحف والمجلات على القراء بالتقسيط الشهرى، وذلك قبل أن تقيم الصحف أجهزة توزيعها الخاصة بها، فلما توفر له قدر من المدخرات راق له أن يحترف مهنة الصحافة، ولم يخطر على باله أن ينافس الصحف السياسية ذات الوزن الثقيل، وفضل أن يدخل بلاط صاحبة الجلالة من بابها السهل الذى لا يعرضه للمتاعب، ومع انتشار جهاز الراديو كان ينشر برامج الإذاعة نقلا عن مجلة «الراديو المصرى» الحكومية وفتح صفحات «البعكوكة» لكتاب الزجل من أمثال بيرم التونسى ومحمد عبدالمنعم الذى اشتهر باسم «أبو بثينة» ودارت بينهما معارك زجلية عنيفة شارك فيها معظم كتاب الزجل، وكانت البعكوكة تنشر نصوص الأغانى، وملخصات لأفلام السينما، وابتكرت شخصيات فكاهية مثل : أم سحلول وفسوكة والمعجبانى.. فضلا عن القصص الأدبية التى يبعث بها الهواة.

فى منتصف الأربعينيات كنت متأثرا بأدبيات «المنفلوطى» ومشغوفا بأسلوبه الرومانسى، وبدأت أجرب حظى بتقليده، وبعثت بأول قصة كتبتها إلى «البعكوكة» وفوجئت بنشرها، وكانت فرحتى لا تقدر حين وجدت اسمى منشورا فى تلك المجلة ذائعة الصيت وتكررت المحاولة حتى وقر فى نفسى أن أكون قاصا وكنت فى ذلك مغايرا لجميع أصدقائى الذين كانوا يكتبون الشعر والزجل، وعندما أردت تقليدهم وحاولت بناء بيت من الشعر: تهدم بعد لحظة وانشأنا فى قريتنا - بسيون - «اتحاد الأدباء» وخطر لنا أن نقيم مهرجانا للزجل ووجهنا الدعوة إلى كبار الزجالين فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والمحلة الكبرى، فلبى الدعوة عدد كبير أذكر منهم : عبدالله أحمد عبدالله «ميكى ماوس» و «أبو فراج» زعيم زجالى الإسكندرية، ومحمود إسماعيل جاد وكان «صولا» فى إدارة موسيقات الجيش، وصار من كتاب وملحنى الملاحم الشعبية، وسيد عقل، وكامل حسنى ووحيدر أمام.

وانعقد المهرجان فى مارس ١٩٥٠ فى بيتنا ولمدة يومين وتبارى الزجالون فى القاء أحلى ما عندهم، وكان نصيبى قراءة قصة عاطفية، وفى اليوم الثانى دبرنا للضيوف رحلة نيلية فوق مركب كبير استمعوا خلالها إلى غناء المطربين المحليين الذين صاروا من المشاهير فيما بعد، عندما التقطهم رائد الفنون الشعبية زكريا الحجاوى، ومنهم إبراهيم حنجل، وفاطمة سرحان والدة المطربة المعتزلة سوزان عطية، وتولى «ميكى ماوس» نشر وقائع المهرجان على اتساع صفحتين بالبعكوكة - وكان من أكبر محرريها - ورأينا فى

هذا النشر تشجيعا لنا ـ نحن أبناء الريف ـ الذين يعجزون عن اختراق عالم الأضواء المركز فى الصحافة القاهرية.

لفظت «البعكوكة» آخر أنفاسها فى الخمسينات، وتلاشت الابتسامة عن وجه الصحافة المصرية وعندما توليت رئاسة تحرير صحيفة «الوفد» حاولت أحياء الصحافة الفكاهية، وخصصت صفحة لهذا الغرض جعلت عنوانها «ابتسم من فضلك».. واستعنت بالأستاذ عبدالله أحمد عبدالله «ميكى ماوس» والشاعر سيد الشوريجى والزجال أحمد البنهاوى وغيرهم لكن التجربة لم تنجح.. لأن نزعة الكآبة المسيطرة على الناس، كانت أكبر من رغبتهم فى الابتسام.

الفبركة

كلمة «الفبركة» من أوائل الكلمات التى حركت أذنى فى بلاط صاحبة الجلالة، وهى كلمة كريهة تعنى الاختلاق والكذب، وهى مشتقة من الكلمة الأجنبية «فابريكا» أى المعمل والمصنع، ودخلت هذه الكلمة ضمن المصطلحات الصحفية إشارة إلى عملية تزييف الأخبار واصطناع القصص الصحفية إما بهدف طعن الخصم وتلويث سمعته، أو بقصد اضفاء الإثارة على المادة الصحفية ولو كانت مغايرة للحقيقة.

وكان أستاذنا مصطفى أمين يحرص على تعليمنا أن الفبركة هى نوع من الغش والتدليس مثل تزييف العملة أو شهادة الزور ولا يمارسها إلا ضعاف النفوس العاجزون عن الوصول إلى الحقيقة، ولكن سرعان ما ينكشف زيفهم ويسقطون فى نظر القراء وتظل سمعتهم سيئة فى الوسط الصحفى ولكن شاء سوء حظى أن أقع فى براثن واحد من هؤلاء الذين لا يتحرجون عن ممارسة الفبركة

طالما أنها - فى نظره - لا تسبب ضررا لأحد وفى أول تجربة لى مع هذا النوع من التدليس شعرت بصدمة نبهتنى إلى خطورة الرضوخ لهذا التيار الفاسد.

فقد كتبت تحقيقا صحفيا عن الإنجازات العلمية فى المركز القومى للبحوث بالقاهرة، والتقطت بحثا مشوقا أجراه أحد العلماء الشبان على عيدان حطب القطن الجافة، وكيف تحولت بعد معالجتها كيميائيا إلى خصلات من الشعر الأبيض الناعم، وفى نهاية التحقيق طالبت وزارة الصناعة برعاية هذا البحث وتسويقه صناعيا وسلمت التحقيق والصور إلى رئيس القسم فإذا به ينشره تحت عنوان «سبعة شهور فقط وتلبس بدلة من حطب القطن» وهو عنوان مثير ولكنه يغاير الحقيقة فأنا لم أقل إن البحث دخل مجال التطبيق الصناعى وأن نسيج الحطب سيتحول إلى قماش لصنع بدل خلال سبعة شهور «!!» ولكن خيال الأستاذ المشرف على القسم سمح له بأن يختزل الزمن والواقع ويخدع الناس بأخبار مفرحة لم تتحقق حتى ساعة كتابة هذه السطور «!!»..

وبلعت الكذبه على مضض ولم أتجاسر على مجابهة الرجل الذى كان يتمتع بنفوذ وسلطان كبيرين.. إلى أن حدثت الواقعة الثانية عندما أجريت انتخابات الاتحاد القومى، التنظيم السياسى الوحيد فى مصر فى الخمسينات، وبمقتضاه كان على الناخب أن يختار عشرين مرشحا لتشكيل لجان الاتحاد، وجلسنا حول رئيس القسم نستمع إلى توصياته وتعليماته قبل أن ننزل إلى اللجان

الانتخابية لتغطيه ما يجرى فيها وكانت توصياته تتلخص فى شىء واحد وهو أن نبحث عن المواقف المثيرة، والمشاهد غير التقليدية التى ستصادفنا فى الانتخابات، وضرب لنا أمثلة على المطلوب مثل: الناخب الطاعن فى السن الذى حرص على أن يذهب إلى اللجنة محمولا على أيدى جيرانه، أو الناخب الكفيف الذى دخل اللجنة وقد كتب أسماء المرشحين العشرين بالقلم على ساعد يده.. وكل ذلك من أجل أن نخدع الناس بمدى اهتمام المصريين بانتخابات الاتحاد القومى.. وبهذه الطريقة المثيرة يكون للأنتخابات طعم ومذاق يعجب القراء ويرضى شغفهم.

واستوعبنا التعليمات والإرشادات التى ألقاها علينا رئيس القسم، وفهمنا جيدا ماهو مطلوب منا، وانطلقت ومعى المصور وطفنا على عديد من اللجان فوجدنا العملية الانتخابية تجرى بطريقة مملة وليس فيها شىء مثير.. وعدت إلى الجريدة لأكتب مشاهداتى وبلغ بى الاستخفاف إلى درجة أننى كتبت عن رجل كفيف دخل إلى اللجنة وعندما سأله رئيسها عن أسماء المرشحين الذين أختارهم كشف عن ساعد يده اليمنى وقد كتب عليه أسماء المرشحين العشرين «!!» تماما كما تخيل الأستاذ وهو يلقى علينا الإرشادات والدروس، وكانت عينى تتابع ملامح الأستاذ وهو يقرأ الأوراق التى كتبتها وتخيلت أنه سينتفض ثائرا ويقذف بالأوراق فى وجهى لأننى سخرت منه وكتبت نفس الأكاذيب التى ذكرها فى الصباح، ولكنى فوجئت بالرجل فى حالة من النشوى والطرب، ويوجه إلى عبارات التقدير والاعجاب، لأننى استطعت التقاط هذه

المشاهد المثيرة«!!» لحظتها شعرت باحتقارى لنفسى أضعاف ما شعرت باحتقارى لهذا الأفاك الذى يحترف الكذب ويربى تلاميذه على استمرار الفبركة.

ورأيت أنه لابد من اتخاذ موقف يبعدنى عن هذا الاتجاه الضار، فصعدت إلى مصطفى أمين فى مكتبه وطلبت منه أن يوافق على نقلى إلى قسم آخر.. وعندما سألنى عن السبب تحرجت من أن أذكر له حقيقة الرجل الذى يعلم صبيانه الفبركة فاتسبب فى أفساد العلاقة بينهما خاصة أنه كان أثيرا عند الأخوين مصطفى وعلى أمين.. ولما سألنى عن القسم الذى أرغب فى الانتقال إليه قلت : سكرتارية التحرير أى القسم الفنى الذى يشرف على إخراج الجريدة، وهنا غضب مصطفى أمين غضبا شديدا وثار ثورة عارمة . ووجه إلى اتهامات بالغة القسوة مثل الغباء.. لأننى أسعى إلى دفن موهبتنى فى قسم مغمور لا يحقق للصحفى شهرة وكنت أحس مدى اهتمام مصطفى أمين بمستقبلى الصحفى ورغبته فى أن يظل اسمى مطروقا فى صفحات الجريدة، ومع ادراكى لنبل أهدافه إلا أننى تمسكت بنقلى إلى سكرتارية التحرير وقلت له أن عملى فى القسم الجديد سيتيح لى فرصة لفهم مراحل أصدار الجريدة من التحرير إلى الطبع، ومعرفة الأصول الفنية للأصدار، ويبدو أن مصطفى أمين تفهم مقصدى على .

وابتعدت عن الرجل المولع بالفبركة، واتخذت موقعى الجديد فى قسم السكرتارية حيث كانت تصب عندنا كل المواد التحريرية

ومكثت فترة قابعا أمام المعلمين فى هذا الفن وهم : عثمان لطفى ومحمد طنطاوى وحازم فوده.. أراقب طريقتهم فى تحويل المادة المكتوبة إلى مادة مطبوعة تبدأ بالرسم على الماكيت بالقلم الرصاص.. ثم أنزل إلى المطبعة لمتابعة هذه العمليات المعقدة التى كانت متصلة بقسم حفر الكليشهات، ثم توضيب شاسيهات الرصاص ثم كبس الصفحات للمسبك وتركيبها على ماكينة الطباعة وأظل ساهرا بالمطبعة حتى خروج الاعداد الأولى من الجريدة فتحملها السيارات إلى أسواق التوزيع.

مكثت فى هذا القسم سنة تعلمت فيها الشئ الكثير ولم تعد صلتى بالعملية الصحفية مقصورة على التحرير وإنما أصبحت على معرفة بهذا العالم الخلفى أو المطبخ الفنى الذى يقوم بإعداد الجريدة للطبع وأعتقد أن أى صحفى ينشد الكمال لابد أن يقضى فترة من حياته فى هذا المطبخ.

فى براثن الإعلانات

عندما التحقت ببلاط صاحبة الجلالة : لم أحاول الاقتراب من الإعلانات، وأفرغت كل جهدى فى التحرير، ولا ادعى أن القطيعة بينى وبين الإعلانات مرجعها التعفف عن طلب المال ولو مقابل تحرير الإعلانات، وإنما لأن جهاز الإعلانات كان يقصر تعامله مع مجموعة محددة من المحررين يكلفهم بجلب الإعلانات مقابل الحصول على نسبة من العمولة المقررة، أو الحصول على أجر مقابل تحريرها، ولم أفلح فى اقتحام فى هذه الحلقة التى تحرص على احتكار هذا المورد الوفير.

وفجأة .. وجدت نفسى داخل الحلقة دون قصد منى، كنت قد أعددت تحقيقا صحفيا عن نظام التأمينات الاجتماعية، وكان جديدا، وأجريت حديثا مع السيد حسين الشافعى وزير الشؤون الاجتماعية - وقتئذ - وعضو مجلس قيادة ثورة يوليو، وتصادف أن كانت مجلة «آخر ساعة» تقوم بإعداد عدد خاص عن الخدمات

الاجتماعية، ولما قدمت الموضوع إلى مدير التحرير طلب منى أن أعرضه على صحفى كبير كانت تربطه بالشافعى علاقة ود، وبدأ الصحفى فى قراءة الموضوع، ولاحظت أنه يقرأه بكل حواسه، بما فيها حاسة الشم، ورأى بحاسته الإعلانية أن الموضوع يصلح للنشر كإعلان، وصعد بالموضوع إلى مدير الإعلانات الأستاذ عبدالله عبدالبارى صاحب الخبرة العميقة فى شؤون الإعلانات فتطابقت وجهة نظره مع رؤية الصحفى الكبير فى نشر الموضوع فى مجلة «آخر ساعة»، وذهب الصحفى بالموضوع إلى وزير الشؤون الاجتماعية واستطاع أن يحصل منه على أذن بالنشر ـ إعلانا ـ على اتساع صفحتين، وتم النشر، وحصل الصحفى الكبير على عمولته المجزية، أما أنا فكان نصيبى خمسة جنيهات هى أجر تحرير الموضوع، وبالطبع لم أحاول الاحتجاج على هذا الظلم الفادح، لأننى كنت أدرك أن احتجاجى لن يكون له جدوى مع هذه العصبة الجهنمية التى تسمح للسمك الكبير أن يلتهم السمك الصغير، ورضيت من الغنيمة بالقشور!!».

كانت تلك علاقتى الوحيدة مع الاعلانات حتى أواخر الستينيات عندما تولى الأستاذ طلعت الزهيرى مسئولية ادارتها بمؤسسة «أخبار اليوم»، بعد انتقال عبد الله عبد البارى إلى مؤسسة «الأهرام». وكان الزهيرى يشرف على اصدار ملحق اعلانى لصحيفة «الأخبار» عن «القطن» تقوم بتمويله شركات الأقطان، فاختارنى لكى أشرف على اخراجه وتحريره، ولم أجد حرجا فى القيام بهذا العمل الذى يقع فى المنطقة الوسطى بين الاعلانات

والتحرير، واستعنت بمجموعة من زملائى شاركونى فى تحرير الموضوعات . ولاشك أن هذا المورد المالى ساهم مساهمة جيدة فى تخفيف حدة الأزمة المالية التى أعانيها فى ذلك الوقت.

ولما توليت مسؤولية صحيفة «الوفد» اكتشفت أن عددا من المحررين يعملون فى جلب الإعلانات مقابل الحصول على العمولات، وانعكس أثر هذه السياسة الضارة على المواد التحريرية التى يكتبها المحررون الإعلانيون فى جريدة المعارضة الأولى فى مصر، وهى مواد تمالىء الوزارات والمصالح وشركات القطاع العام، وناقشت الأمر مع رئيس مجلس الإدارة الراحل فؤاد باشا سراج الدين، وأوضحت له مخاطر هذا الوضع على توجهات الجريدة، وكان فؤاد باشا بحكم مسؤوليته الأدبية والمالية، واقعا بين نارين : فهو من ناحية يوافقنى على أهمية الحفاظ على استقلال الجريدة، وعدم خضوعها لسطوة الإعلانات، ومن ناحية أخرى كان يغض النظر عن هذه الأشكالية حتى تستمر الجريدة فى الحصول على مواردها الإعلانية، وكان فؤاد باشا يوافقنى على منع المحررين من جلب الإعلانات، ولكن القرار كان يتعرض للأختراق عن طريق الاتفاقات السرية بين المحررين وبين مندوبى الإعلانات بحيث يصدر أمر النشر باسم المندوب، ثم يتقاسم الأثنان قيمة العمولة بعد التحصيل.

مشكلة أخرى كانت مثار نزاع وصداع مستمر بينى وبين الإعلانات بسبب أصرار المعلنين على حذف كلمة «موضوع

تسجيلى» عن رأس الموضوعات الإعلانية وكنت أصر على وجودها تطبيقا للمواثيق الصحفية واحتراما لشكل الجريدة أمام قرائها، فكانت الإعلانات تلجأ إلى فؤاد باشا وتقنعه بوجهة نظرها بزعم أن المعلنين يهددون بسحب الإعلانات إذا تضمن أية إشارة إلى طبيعته، وكان فؤاد باشا يضطر إلى الموافقة على طلب المعلنين حتى لا تخسر الجريدة موردها المالى وكنت أرى فى هذا الموضوع ابتزازا وليا للذراع، ومساسا بالحدود الفاصلة بين التحرير والإعلانات، وكانت هذه المشكلة إحدى مسببات المتاعب التى انتهت باستقالتى من صحيفة «الوفد» فى يونيو ١٩٩٨.

وستظل مشكلة الخلط بين التحرير والإعلانات قائمة، بل وتزداد تفاقما مالم ينهض القائمون على أمر الصحف بالتوصل إلى حل حاسم يحفظ لكل منهما هويته واستقلاله، وبما يؤدى فى النهاية إلى احترام عقل القارىء واستعادة ثقته المفقودة.

من مقاعد المشاهدين

التخصص صيحة العصر.. وهو فى مجال العلوم ألزم منه فى مجال الأدب، فالمشتغل بالدراسات العلمية يتخصص فى فرع دقيق من فروع الطب أو الهندسة أو الطبيعة أو الكيمياء، وكذلك من المفيد للصحفى أن يتخصص فى أحد الأنشطة العامة التى تهتم بها الصحيفة، كالسياسة والاقتصاد والرياضة والعلوم والفن والأدب، بشرط إلا يصرفه التخصص عن الإلمام بطرف من جميع الاهتمامات، حتى إذا تيسر له قيادة تحرير الصحيفة كان قادرا على فهم ما يقدم إليه، مثل «المايسترو» الذى يقود الأوركسترا.. ويعرف مهمة كل عازف وقدرته على الأداء.

وقد أتاح لى العمل فى التحقيقات الصحفية ممارسة معظم المجالات العامة، باستثناء الرياضة والسبب أننى درجت منذ بداية حياتى الصحفية على اعتقاد لم يزل يلازمنى حتى الآن وهو أن الأسراف فى نشر المواد الرياضية - وخاصة كرة القدم - صرف

الناس عن الاهتمام بالسياسة، فظهرت النوادى الرياضية لتحل محل الأحزاب السياسية، كما سحب نجوم الكرة الأضواء من نجوم السياسة، وفى مصر وغيرها عمدت بعض العهود السياسية إلى الترويج الكروى لكى ينشغل الناس عن شؤون الحكم، وظهرت ثمار ذلك فيما تعانيه الحياة السياسية من جفاف جماهيرى لدرجة أن الشوارع تقفر من المارة أثناء عرض مباريات الكرة فى التليفزيون، ولا نرى مثل هذا الاهتمام إذا ظهر زعيم سياسى مهما كانت قدرته الخطابية.

ولكن الفنون - وخاصة المسرح - جذبتنى إليها، لدرجة أننى حاولت الالتحاق بقسم النقد الأدبى بمعهد الفنون المسرحية لدراسة قواعد النقد على أصول علمية، ولكننى لم أوفق فى اجتياز امتحان القبول، واكتفيت بما فى بطون الكتب عن أدب المسرح، وكنت أكتب خواطر وملاحظات عن المسرحيات التى كانت تقدمها الفرق الجادة خلال فترة ازدهار المسرح فى الستينات واكتبها تحت عنوان «من مقاعد المشاهدين» لأتجنب الالتزام بالقواعد الفنية التى ينبغى على الناقد المتخصص الالتزام بها.

كنت أحرص على مشاهدة العروض المسرحية أثناء البروفات وأرى كيف يعمل المخرج على تحويل النص إلى مشاهد حية ومتحركة على خشبة المسرح، وفى حفلات العرض الأول كنت أذهب أحيانا بصحبة الأستاذ أحمد بهاء الدين، وكانت له نظرات عميقة فى النقد المسرحى يكتبها فى يومياته بالصفحة الأخيرة من

«الأخبـار» أو فى عمـوده اليـومـى «بالأهرام» كـان أسـلوبه الرشـيق وملاحظاته الجـذابـة تلفت أنظار القــراء لأنهـا لا تقل رونقـا عن كتاباته السياسية.

ونفس الاهتمام بالعروض السينمائية فكنت أكتب خواطرى عن الأفلام الجديدة أو النجوم الصاعدين فى مجلة «آخر ساعة» واذكر أننى عندما شـاهدت فيلم «السكرية» المأخـوذ عن ثلاثيـة نجـيب محفوظ لفت نظرى أداء الممثل الذى كان يقوم بدور «كمـال» الابن الثالث للسيد أحمد عبدالجواد، فلما سألت عنه قيل لى أن اسمه محمد جابر وأنه على وشك التخرج من قسم التمثيل بمعهد الفنون المسرحية، وأن المخرج حسن الإمام اقتـرح تغيير اسـمـه إلى «نور الشـريف» وتحـدثت مع موسى صبرى - رئيس التحرير وقتئذ - عن توقعاتى لنجاح هذا الشاب فطلب منى أن التقى به وأكتب عنه، ولما قلت له أننى مسـؤول عن قسم «خارج القاهـرة» الذى لا يدخل الفن فى نشاطه ضحك وقال : أبحث عن جذوره العائلية وربما كان من خارج القاهرة فيحق لك الكتابة عنه!!

وطلبت من بعض الاصدقاء المهتمين بالمسرح بعض المعلومات عن نور الشـريف فقالوا أنه بالفعل من أسـرة صعيدية بمركز مغاغة، وأنه يعيش مع عمـه فى حى السيدة زينب، وجـاء الاصـدقـاء بالنجم الصاعد إلى مكتبى فى «الأخبار» ووجدته شجاعا فى سرد ظروفه العائلية، لدرجة أننى عندما طلبت منه رقم تليفون منزله اعتذر بأنه لا يوجـد تليفـون فـى بيت عـمـه، واعطانى رقم المحل المجاور لمحل

عمه وكتبت عنه مقالا بصفته أحد النجوم الصاعدة الذين ينتظرهم مستقبل باهر، واعتقد أن نبوءتى صدقت، وصعد نور الشريف إلى القمة التى كانت تنتظره، وربما كانت تلك المقالة هى أول ما كتب عن هذا النجم وهو فى بداية حياته الفنية.

كنت أجد متعة فى الكتابة عن المسرحيات الجديدة اذكر منها «دائرة الطباشير القوقازية» للكاتب الألمانى بريخت، وهى أول مسرحية ظهر فيها النجم محمود ياسين فى دور ثانوى، و «مأساة الحلاج» للشاعر صلاح عبدالصبور، و «حاملات القرابين» من التراث الأغريقى، و «المهزلة الأرضية» ليوسف أدريس، و «الفتى مهران» لعبدالرحمن الشرقاوى.. وغيرها مما لا تعيه الذاكرة وكانت هذه التعليقات تجد صداها عند جمهور القراء وكانت سببا فى نشوء علاقة حميمة بينى وبين بعض نجوم السينما والمسرح.

وعندما أصدرنا صحيفة «الوفد» الأسبوعية كان لابد أن يكون للفن فيها نصيب ولكن كيف وأى منهج نلتزم به، كانت وجهة نظرى أن نهتم بالفن كمدرسة لتهذيب المشاعر والارتقاء بالأذواق عن طريق النقد المتخصص الذى يكتبه كبار الكتاب وكان فى ذهنى دائما الكتابات الرصينة التى كان يقدمها المرحوم الدكتور عبدالقادر القط، وأنور المعداوى، ورجاء النقاش. أما وجهة نظر صديقى وزميلى المرحوم مصطفى شردى فكانت أميل إلى نشر الأخبار والتحقيقات الفنية التى تجتذب القراء، وللتوفيق بين وجهتى النظر قررنا تقديم اللونين وبدأت أبحث عن بعض النقاد

من ذوى الوزن الثقيل لكن جهودى ضاعت هباء وقيل لى فى تفسير ذلك أن عهد الكتابات الثقيلة قد انقرض وأن جمهور القراء يفضل المواد سهلة الهضم ولكن هذا لم يمنع من ظهور أقلام نقدية متخصصة من أمثال ماجدة خيرالله والدكتورة عزة هيكل وحازم هاشم وعماد الغزالى وغيرهم.

سلاح الصحافة

عندما التحقت بقسم الصحافة فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ لمست ضعفا فى الدراسات العملية ولم يكن أحد من أساتذة القسم ـ وقتئذ ـ مؤهلا تأهيلا عمليا لتدريس فنون الصحافة، وكان ذلك النقص موضع تندر من كبار الصحفيين، حتى قال أحدهم : ذهبت إلى قسم الصحافة فوجدت القسم ولم أجد الصحافة!! وكانت إدارة القسم تعوض هذا النقص عن طريق انتداب بعض كبار الصحفيين لتدريب الطلاب على الصحافة العملية.

والانصاف يقتضى أن نعترف بأن هذا النقص كان يقابله تركيز على الدراسات النظرية مثل التطور فى الأساليب الكتابية، وكذلك تاريخ الصحافة وكان ينهض بهذا العبء رئيس القسم أستاذنا المرحوم الدكتور عبداللطيف حمزة وكانت سلسلة كتبه عن أدب المقاله الصحفية» سجلا وافيا لأجيال الصحفيين منذ أصدر محمد على باشا جريدة «الوقائع المصرية» لتكون منشورا يحوى انجازاته

الحضارية ولكن أهم ما خرجنا به من هذه الدراسات هو أن الصحافة كانت النبراس الذى اضاء حركة الوعى واليقظة، والبوتقة التى تخمر فيها الرأى العام فظهر لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كقوة مؤثرة على مجرى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

ويرجع الفضل فى ولادة الصحافة الشعبية إلى الخديو إسماعيل، فقد شجع بعض الأدباء على اصدار الصحف لتكون عنصرا من عناصر المدنية التى تحمس لها إسماعيل، وفى نفس العام الذى قام فيه مجلس شورى النواب «١٨٦٦» أصدر عبدالله أفندى أبو السعود صحيفة «وادى النيل» واصدر إبراهيم المويلحى وعثمان جلال «نزهة الأفكار» وأصدر محمد أنسى «روضة الأخبار» وتوالى صدور الصحف والمجلات حتى صار عددها ٢٣ مطبوعة وهو عدد لا يستهان به إذا أخذنا فى الاعتبار ارتفاع نسبة الأمية، كما صدرت مجلات متخصصة مثل : يعسوب الطب.

وأدى مجىء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر «١٨٧٢» إلى دفعة هائلة فى حركة الوعى ونضوج الرأى العام، وكان من المؤمنين بقوة سلاح الصحافة فى مقاومة النفوذ الأجنبى الذى بدأ يتغلغل فى مصر، وكان يشجع تلاميذه على اصدار الصحف ويمدهم بالأفكار الثورية التى كانت تزعج الخديو، فأصدر أديب اسحق، وهو سورى مسيحى، صحيفة «مصر» وأصدر يعقوب صنوع، وهو يهودى مصرى صحيفة «أبو نظارة» وقام أكبر تلاميذه الشيخ محمد

عبده بتحويل صحيفة «الوقائع» إلى صحيفة شعبية تطرق كل الأبواب التى تهم الناس.

ونشأ جيل من الكتاب الشجعان تجرؤوا على نقد الخديو فى إغراقه البلاد بالديون مما فتح الأبواب أمام الدول الأوروبية للتربص بمصر تمهيدا لاحتلالها، وتلفت إسماعيل فوجد الصحافة التى ظن أنها ستكون بوقا دعائيا له، قد صارت سوط عذاب يلهب ظهره بالنقد اللاذع، ونسى إسماعيل أن الصحافة الشعبية سلاح ذو حدين إذا اتجه أحدها إلى خصومه فإن السلاح الآخر يتجه إليه.

ورغم إبعاد الأفغانى عن مصر - بعد خلع إسماعيل - فقد ظلت الصحافة الوطنية على توهجها فساندت الثورة العرابية، ولعب الدور الأكبر فى ذلك عبدالله النديم من خلال الصحف التى كان يصدرها الواحدة تلو الأخرى، فلما انتكست الثورة لم يخمد صوت الشعب رغم وطأة الاحتلال وقسوته فى التنكيل بالوطنيين بين قتيل وسجين وشريد.

ففى باريس كان الأفغانى ومحمد عبده يصدران «العروة الوثقى» وأديب اسحق يصدر صحيفة «مصر» ويعقوب صنوع يصدر صحيفته تحت اسم «أبو صفارة» مرة و «أبو زمارة» مرة أخرى ليتحايل على قرار منع دخولها إلى مصر، فكان يرسلها فى طى الصحف الفرنسية وشهدت هذه الفترة هجرة الصحفيين السوريين واللبنانيين إلى مصر، فأصدر بشارة تقلا صحيفة «الأهرام» وانشأ

جورجى زيدان مجلة «الهلال» أما الثلاثى : فارس نمر، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس، فقد سخروا أنفسهم لخدمة سلطات الاحتلال، وجعلوا من صحيفتهم «المقطم» سيفا مسلطا على الحركة الوطنية التى تناوىء الاحتلال وزرعوا اليأس فى نفوس المصريين حتى يذعنوا لبقاء الإنجليز إلى الأبد، وتواكب معها ظهور صحيفة «المؤيد» للشيخ على يوسف فتصدى «للمقطم» ونادى بتدعيم الروابط مع الدولة العثمانية باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى السيادة على مصر وعاد النديم إلى وطنه، لا ليخلد إلى السكون والصمت، ولكن ليستأنف نشاطه الثورى فأصدر «الطائف» حتى انتهى به المصير إلى النفى إلى الأستانة إلى أن لقى حتفه.

وفى اليوم الأول من القرن العشرين أصدر الزعيم الشاب مصطفى كامل صحيفة «اللواء» فكانت بمثابة الشهاب الذى فرق الظلام الذى فرضه عميد الاحتلال «اللورد كرو مر» والتف الشباب من طلبة المدارس العليا والثانوية حول مصطفى كامل إلى جانب التجار والموظفين وقد وجدوا فيه العرق النابض بالأمل فى الخلاص، ولكن شاء القدر أن يلقى وجه ربه وهو فى شرخ الشباب وقبل وفاته ببضعة شهور أعلن عن قيام «الحزب الوطنى» أول حزب سياسى علنى فى مصر، وشهد نفس العام ١٩٠٧ ظهور «الجريدة» لتنطق بإسم «حزب الأمة» الذى كان يضم كبار ملاك الأراضى وعلى رأسهم الفيلسوف أحمد لطفى السيد، وجماعات المثقفين الذين خرجوا من عباءة الأمام محمد عبده وكانوا أميل إلى مهادنة الاحتلال والتركيز على الاصلاح السياسى إلى أن تنضج الحركة الوطنية وتصبح قادرة على استخلاص حقوقها الوطنية.

ورغم أن الشيخ على يوسف كان قد أصدر«المؤيد» فى عام ١٩٨٩ إلا أنه أعلن عن قيام حزب «الإصلاح على المبادىء الدستورية» فى اطار عملية ظهور الاحزاب السياسية فى العام ١٩٠٧ وكان حزبه معبرا عن سياسة الخديو عباس حلمي الثانى بصفته الحاكم الشرعى للبلاد.

نخلص من هذا إلى أن الاحزاب المصرية الأولى ولدت من رحم الصحف وهو أمر بالغ الدلالة على قوة سلاح الصحافة وقدرتها على بلورة الرأى العام على تفاوت اتجاهاتها السياسية.

ترحال

السفر والترحال : ضرورة مهمة للصحفى.. لكى تتاح له فرصة الاطلاع والمشاهدة العينية لمجرى الحياة فى هذا العالم الذى تقاربت فيه المسافات فتتسع مدارك الصحفى، وتزداد ثقافته وخبرته، وهناك صحفيون - مثل أنيس منصور - طاف العالم فى ٢٠٠ يوم، وكان مصطفى أمين يطلب من الصحفيين الشبان أن يحمل كل منهم جواز سفر حتى يكون جاهزا للسفر فى أية لحظة، وكانت مؤسسة «أخبار اليوم» من أولى الصحف التى كانت توفد محرريها إلى أقاصى العالم لتغطية الأحداث الخطيرة، ولا ننسى الرحلة التى قام بها الصحفى الشاب - وقتئذ - محمد حسنين هيكل إلى كوريا عام ١٩٥٠ لتغطية أخبار الحرب التى نشبت بين الكوريتين - الشمالية والجنوبية - وكادت تشعل فتيل حرب عالمية ثالثة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم رحلته إلى أيران أيام حكومة «مصدق» وطرد الشاه وكان حصيلتها كتاب هيكل «إيران فوق بركان».

وقيد شاء قدرى أن يكون حظى من السفر والترحال شحيحا فبعد تأميم الصحافة انكمشت فرصة السفر للصحفيين الشبان، وصار متاحا فقط للمندوبين الذين يعملون فى الوزارات حين يصحبون الوزراء فى رحلاتهم الخارجية، ولما كنت مبعدا عن العمل فى الوزارات : فقد حرمت من هذه الفرصة، وبقيت قابعا فى موقعى، أصول وأجول فى أنحاء الديار المصرية، إلى أن سافرت إلى دولة الإمارات العربية المتحدة فى مارس ١٩٧٢ للمشاركة فى اصدار «الاتحاد» اليومية.

وبعد ثلاث سنوات رأيت أوروبا لأول مرة عندما سافرت إلى باريس ضمن الوفد الصحفى المرافق لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان لتغطية زيارته الرسمية لفرنسا، وخصصت الحكومة الفرنسية لنا سيارة، فكنا نقضى الساعات الخالية من العمل لزيارة معالم باريس، وفى مقدمتها بالطبع «برج ايفل» الشهير، وعندما طلبت من السائق أن يمضى بنا إلى هناك لم يفهم المقصود، فأخرجت ورقة ورسمت له شكل البرج فأدرك على الفور وأخذ يردد «تورافيل» وتبينت أننى كنت أنطلق «الفاء» بالإنجليزية ذات الثلاث نقاط ولاحظت أن الفرنسيين عموما، متعصبون للغتهم، ولا يجيبون على أى استفسار إذا كان منطوقا بالإنجليزية حتى لو كانوا يعرفونها.

بعد انتهاء الزيارة الرسمية، مكثت فى باريس بضعة أيام على نفقتى لمشاهدة أكبر قدر من معالمها، معتمدا على المعلومات

المخزونة فى ذاكرتى من كتابات عشاق باريس : توفيق الحكيم والتابعى وأنيس منصور، فكنت أتجول دون حاجة إلى مرشد، مكتفيا بالخريطة المعلقة على كل عربات المترو، وخطر لى أن أزور موقع سجن «الباستيل» الكئيب الذى اندلعت منه شرارة الثورة الفرنسية الكبرى، فلما وصلت إلى الميدان راعنى أننى لم أجد سوى بنايات جديدة وجميلة ولا يوجد أثر من حطام السجن، وصادفتنى فتاة مهذبة فسألتها عن ركام سجن الباستيل، فأغرقت فى الضحك وقالت أن كل هذه المعالم اندثرت، أما المعلومات فمسجلة على هذا العامود وأشارت إلى عمود يتوسط الميدان وصحبتنى إلى موقعه وأخذت تقرأ لى البيانات التاريخية المحفورة على سطحه.

وكان لابد أن أزور متحف «اللوفر» وهو من أضخم وأغنى متاحف العالم، وقضيت ساعات طوال فى التجول بين أركان القسم المصرى الذى يضم أعدادا هائلة من الآثار الفرعونية ولا أدرى كيف ومتى حدث نقلها وتهريبها، ثم وقفت فى الطابور الذى ينتظر مشاهدة اللوحة الشهيرة «الجيوكندا» مستعينا بجهاز تسجيل يؤجر للزوار ليشرح لهم بكل اللغات تاريخ اللوحة التى تعتبرها فرنسا من أغلى مقتنياتها الحضارية، حتى أن الحكومة الفرنسية حرصت على إخفائها عندما دخلت الجيوش النازية باريس فى عام ١٩٤٢ خوفا من سرقتها، وقال لى زائر عربى أن اللوحة التى نراها هى صورة طبق الأصل من اللوحة التى لاتزال حبيسة الخزائن الفرنسية تخوفا من سطو عصابات المافيا عليها، ولا أدرى حتى الآن مدى صحة هذه المعلومة ولكنى أذكر أننى وقفت بضع دقائق

مبهورا أمام الابتسامة الغامضة التى تلوح على فم السيدة «موناليزا» وكذلك ظهر كفها، وقد أنفق الرسام الشهير ليوناردو دا فنشى عدة سنوات فى رسم اليد حتى تتاح له فرصة الاقتراب من الأرملة الحزينة.

قصر ذيل

لم يكن معقولا أن أزور باريس، لأول مرة، دون أن أتردد على الحى اللاتينى.. حيث جامعة السوربون وشارع سان جرمان، وشارع سان ميشيل، وباعة الصور والكتب واللوحات والهدايا التذكارية حيث يتزاحم عشاق الثقافة من كل أنحاء العالم..

وزرت متحف «الانفاليد» المقام على الطراز الكلاسيكى من القرن الثانى عشر ليكون دارا للمحاربين القدماء، ثم تحول إلى متحف حربى يضم نماذج من الأسلحة الفرنسية منذ القوس والسهم إلى الغواصة والصاروخ، وتحت قبته توجد مقابر كبار القادة، ويتصدرهم نابليون بونابرت فى تابوت من الجرانيت الأحمر، ووقفت لحظات أمام هذا الفاتح المغوار الذى دوخ أوروبا بحروبه، ولكنه أرهق فرنسا بما يفوق طاقتها، فتخلت عنه بعد هزيمته فى موقعة الطرف الاغر، وتركته يقضى بقية حياته منفيا فى جزيرة سانت هيلانه فى أعماق المحيط يتجرع مرارة الجحود،

وعذاب السجن حتى قضى نحبه، وفى عام ١٨٤٠ تذكرته فرنسا، وعادت بجثمانه إلى متحف الانفاليد.

وقادتنى قدماى إلى كنيسة «نوتردام» أكبر كاتدرائيات فرنسا والتى بُنيت على جزيرة تتوسط نهر السين على أنقاض معبد رومانى قديم وهى على الطراز القوطى وتزين واجهتها مجموعة تماثيل تهدم معظمها أثناء أحداث الثورة الكبرى، وكانت مناهضة للدين، واتخذت مقعدى مع الجمهور فى القاعة، وعلى المنصة واعظ يتكلم بصوت خفيض، وهدوء شديد بعيدا عن الانفعال والغضب وخرجت من هناك إلى «الشانزلزيه» أوسع وأشهر شوارع العالم، ويمتد من ميدان قوس النصر إلى ميدان الكونكورد وتتوسطه المسلة الفرعونية، وتتناثر على جانبيه أشهر محلات الأزياء والعطور والهدايا وتقصدها الباحثات عن أحدث الموديلات، وهناك المقاهى ذات المقاعد الصغيرة، وبحثنا عن المقهى الذى كان يجلس عليه الفيلسوف الوجودى جان بول سارتر فلم نجده.

وفى مجال الترويح ذهبت إلى كازينو «الليدو» ورأيت من الاستعراضات المبهرة ما يخلب اللب، وعلمت أن العرض يستمر سنوات عديدة دون تغيير.

من الصعب أن يشبع زائر باريس من معالمها، ولكن ما باليد حيلة فالعين بصيرة واليد قصيرة كما يقول المثل، ورأيت أن أستغل ما تبقى معى من نقود لزيارة لندن، فذهبت إليها بصحبة الزميل المصور يحيى بدر، وكان الانطباع الأول يوحى بالجهامة والجدية،

وركبنا الاتوبيس السياحى ذاالدورين فطاف بنا حول معالمها الرئيسية، وهبطنا فى ميدان «الطرف الاغر» ويتوسطة تمثال الادميرال «نيلسون» الذى نجح فى تدمير أسطول بونابرت فى خليج أبى قير بالإسكندرية، وأحبط آمال القائد الفرنسى فى إقامة أمبراطورية لاتينية فى الشرق ثم قدر له أن يقضى على طموح بونابرت فى موقعة «الطرف الاغر» ذات الاسم العربى، ولكن «نيلسون» فقد حياته فى المعركة فأقامت له بلاده هذا التمثال فوق عمود شاهق.

وذهبنا إلى «وستمنستر» حيث مقر البرلمان الإنجليزى، وكان فى الاصل مقرا ملكيا، وشهدت قاعته الكبرى المحاكمات الشهيرة التى كانت تنتهى غالبا بالإعدام، وبعد حريق المبنى فى عام ١٨٣٤ أعيد البناء ليكون مقرا لمجلس العموم واللوردات.

،لما كنت من عشاق الريف الإنجليزى، منذ قراءاتى الأولى للأدب الإنجليزى، فقد هيأت لنا إدارة الفندق رحلة جماعية إلى مقاطعة «يوركشر» حيث قلعة «وندسور» التى كانت مقرا للأسرة المالكة منذ عهد وليم الفاتح وكان المرشد الجالس بجوار سائق الباص يشرح لنا كل صغيرة وكبيرة على جانبى الطريق منذ غادرنا لندن حتى وندسور، وفى القلعة هبطنا إلى القبو، حيث توجد مدافن ملوك انجلترا، وتوقفت أمام قبر الملك «جورج السادس»، الذى عاصرنا تاريخه طوال الحرب العالمية الثانية ثم خلفته ابنته الملكه الحالية اليزابيث، وأكملت نصف قرن على عرش المملكة المتحدة، فهى أطول

الملوك عهدا وأثناء وجودنا فى القلعة قيل لنا أنها متواجدة فى المقر الملكى بالقلعة للاستجمام بين أحضان الطبيعة الخلابة.

وكان لابد أن نزور قصر باكنجهام، المقر الرسمى الملكى، وحرصنا على رؤية المشهد الشهير الذى يحرص عليه كل زوار لندن، وهو ساعة تغيير الحرس الملكى، وبالطبع التقطنا لأنفسنا بعض الصور بجوار رجال الحرس الذين اكتسبوا شهرة عالمية لثباتهم، حتى يخيل إلى المشاهد أنهم تماثيل صماء.

ومن أكثر ما أعجبنى من مبانى لندن، أن البلدية تصنع لافتات على المنازل القديمة تحتوى على معلومات عن اسم صاحب المبنى وتاريخ انشائه، والاعمال التى قام بها فى مجاله.

وغادرت لندن على الرغم منى، على أمل العودة إليها فى رحلات قادمة، ولم يتحقق الأمل إلا من خلال الزيارات التى يقوم بها الرئيس حسنى مبارك، وهى زيارات عمل سريعة، شأن كل رحلات الرئيس، وأتيح لى أن أزور إيطاليا ورومانيا وتركيا، فضلا عن الصين واليابان وكوريا الشمالية، وفى هذه الجولات السريعة رأيت بلادا لم يكن من الميسور أن أراها على نفقتى، أو عن طريق الصحف التى أعمل بها.. وجاءت هذه السفريات الخاطفة تعويضا عن الحرمان الطويل من السفر وليس أمامى إلا أن أحمد الله على هذا القدر الذى تحقق لى وربما وجدت العزاء فيما يقال أن بعض كبار الكتاب لم يسافروا، مثل الأستاذ العقاد الذى لم يغادر مصر سوى مرة واحدة إلى السودان هربا من الجيوش النازية التى هددت

حدود مصر فى بدايات الحرب العالمية الثانية، وكان معروفا عنه العداء الشديد لهتلر، وكذلك الأديب العالمى نجيب محفوظ، فلم يغادر وطنه إلا فى زيارة خاطفة إلى اليمن ولعل السفر على الورق لا يقل متعة عن السفر عبر الطائرات والسفن وما يستلزمه من جهد وتعب.. وربما يوصف هذا التعليل بأنه قصر ذيل، مثل الثعلب الذى عجز عن دخول بستان الكرم، فوصف العنب بالمرارة فقيل له: بل هو قُصر ذيل!!

الصورة تطلع حلوة

قضيت فى مدينة دبى خمسة أيام أهاجت فى نفسى ذكريات سنوات عزيزة عشتها فى الامارات خلال السبعينيات، كانت دبى هى المنتجع الذى نهرع إليه فى الاجازات للتجول نهارًا فى أسواقها، والترويح ليلاً فى برها.. ولكن شتان بين الامس واليوم.. فقد صارت دبى مدينة ضخمة تضارع المدن الكبرى فى نشاطها وعمرانها.

ذهبت إلى دبى لأشارك فى لجان تحكيم «جائزة الصحافة العربية المكتوبة» التى ينظمها نادى دبى للصحافة واختيار الاعمال المتميزة فى ثمانية مجالات، الصحافة السياسية، والصحافة الاقتصادية وتكنولوجيا المعلومات، والتحقيقات الصحفية، والصحافة البيئية، والعمود الصحفى، والصحافة الثقافية، والصحافة الرياضية، والروسوم الكاريكاتورية والصور الفوتوغرافية ولا أدرى لماذا اختارتنى الأخت الفاضلة «منى المرى»

الأمين العام للنادى لعضوية اللجنة الأخيرة مع الزميلين : جلال السعيدى، المصور الصحفى «من لبنان» والرسام المعروف جلال الرفاعى «من الأردن» فصار موقفى بين الجلالين مثل الشاطر والمشطور وبينهما طازج.. وهو التعريف اللغوى الذى أطلقه مجمع اللغة العربية فى مصر على «الساندويتش» ولكن الاصطلاح لم يكتب له الذيوع مثل : التليفون والتلفاز والحاسوب لاستحالة استخدامه فى لغة التعامل اليومى، فبقى للتندر فقط.

وربما لاتعرف الأخت «منى» أن بينى وبين التصوير علاقة قديمة، فقد هويت التصوير منذ صباى، واقتنيت كاميرا بدائية لا يزيد ثمنها على مائة وخمسين قرشا ولكن هذه الهواية أفادتنى عندما شرعت فى دخول بلاط صاحبة الجلالة، واستثمرت مدخراتى فى شراء كاميرا أكثر رقيا، كنت استعملها فى تصوير تحقيقاتى الصحفية عندما يتعذر وجود مصور صحفى لمرافقتى فى تنفيذ التحقيقات وزادت خبرتى فى تجهيز الصور من خلال الدراسات النظرية التى تلقيناها فى قسم الصحافة بالجامعة فكنت أدخل الغرفة المظلمة «المعمل» لانتقاء الصور من النيجاتيف.

ولا شك أن الصحفى الذى يجمع بين التحرير والتصوير أفضل من الصحفى الذى لا يتقن التصوير، ويجب على من يهوى الصحافة أن يحمل الكاميرا على كتفه، إلى جانب القلم فى جيبه، لأن الكاميرا سوف تمكنه من التقاط الصور عند حدوث مفاجآت يتعذر معها استدعاء المصور الصحفى من الجريدة وبذلك تتاح له

فرصة تحقيق خبطات صحفية لا تتاح لمن لا يعرف التصوير وربما حصل على صورة صحفية نادرة حتى لو كانت فى مستواها الفنى أقل من الصور التى يلتقطها المصور المختص ومن خلال السنوات التى ترددت فيها على السد العالى أثناء بنائه، كنت أحمل الكاميرا على كتفى أثناء تجولى بين المواقع، والتقط الصور التى تخدم الموضوع، ثم أذهب إلى المطار لأبعث بالتحقيق والفيلم مع طاقم الطائرة إلى مقر الجريدة بالقاهرة ويظاهر التحقيق فى اليوم التالى تحت وصف «تحقيق وتصوير فلان» وهو وصف له قدر فى «تثمين» الصحفى.

ورغم تقدم السن فقد بقيت هواية التصوير تلازمنى، لدرجة أننى كنت أحرص على حمل الكاميرا، ووضعها على تابلوه السيارة، تحسبا لوقوع أى حادث يستوجب التصوير وأذكر أننى كنت أقود سيارتى فوجدت أمامى سيارة شرطة من طراز «بيك أب» وفى صندوقها الخلفى يجلس شرطى شاب وبجواره «خروف» ذلك أننا كنا على مشارف عيد الأضحى، ووجدت أن المشهد يستحق التصوير فصوبت الكاميرا نحو خلفية السيارة، فلما رآنى الشرطى ويبدو أنه كان خفيف الظل أراد أن يضفى على المشهد جوا من المرح، فخلع الكاب من فوق رأسه، ووضعه على رأس الخروف، فصار المشهد أكثر ظرفا، وهرعت بالفيلم إلى غرفة التحميض وأنا اتوقع الحصول على صورة نادرة تصلح للنشر فى الصفحة الأولى، ولكن.. كم كانت صدمتى كبيرة عندما اكتشفت أن الكاميرا خالية.. وأن الفيلم الذى بداخلها قد بلغ نهايته «!!».

ولذلك نصيحتى إلى الصحفى الذى يجمع بين التحرير والتصوير أن يتأكد من سلامة الكاميرا للعمل قبل أن يغادر مكتبه أو بيته، وأن يحتفظ فى جيبه بفيلم خام على سبيل الاحتياط، حتى يكون جاهزا للعمل إذا صادفه موقف يستحق التصوير تماما مثل الجندى الذى يحتفظ بخزنة اضافية من الطلقات على سبيل الاحتياط.

معضلة الإعلانات

الخصومة بين التحرير والإعلانات خصومة أزلية كل منهما يحاول الاستحواذ على أكبر مساحة من الصحيفة أو المجلة، وتظل هذه الخصومة مشروعة وصحية طالما تحددت العلاقة بينهما تحديدا واضحا بمعنى : لا تُستغل المادة التحريرية للترويج الإعلانى، ولا تتخفى الإعلانات فى زى التحرير فتصير العلاقة تنافسية لخدمة أغراض كل منهما فتنجح الصحيفة فى أداء رسالتها.

وإلى زمن قريب كانت هذه الحدود موضع احترام الصحف الكبرى، فلكل من الجانبين ميدانه يصول فيه ويجول، ولكل منهما جهازه الإدارى والمالى والفنى، ولا يتعدى على اختصاص الآخر.. ثم.. تزايدت سطوة الإعلانات بأعتبارها إلى جانب عائد التوزيع المورد المالى الرئيسى لتغطية التكلفة الحقيقية لصدور الصحيفة، ودخل التليفزيون منافسا خطيرا للإعلانات، فاقتطع نسبة كبيرة

من أموال الدعاية التجارية والصناعية، فهو أوسع انتشارا، وأكثر جاذبية، وأقدر على الوصول إلى الفئات التى تجهل القراءة والكتابة وبدأ المعلن يفرض شروطه على الصحف كى تحصل على نصيبها من الإعلانات، وأخذت الصحف تتراجع عن التزامها القديم بالتمييز بين المادة التحريرية والمادة الإعلانية، وحين كان المعلن يطلب نشر إعلاناته فى شكل تحقيقات صحفية كانت الصحف تذكر من زاوية صغيرة أنها «موضوع إعلانى» ولكن المعلنين أخذوا يتأففون من كلمة «إعلان» فحلت محلها عبارة «موضوع تسجيلى» ومع ذلك اعترض المعلنون فاختفت العبارة ولجأت الصحف إلى احاطة الموضوع الإعلانى ببرواز تمييزا له عن الموضوع التحريرى ولاتزال سلسلة الاعتراضات والتراجعات قائمة وكلها تهدف إلى إزالة الحواجز بين التحرير والإعلانات.

وقليلة هى الصحف التى ترفض هذا المزج الذى يخل بمبدأ الاستقلال الصحفى، ويشكل خداعا وتدليسا على القارئ، وكثيرة هى الصحف التى لا تقوى على الصمود أمام سطوة الإعلانات، وتضطر إلى الأذعان كى تحافظ على أقل القليل من الموارد المالية فتواصل الصدور، ولاتزال هذه الأشكالية موضع عناية المؤسسات والنقابات والجمعيات الصحفية بهدف الحفاظ على حرية الصحافة واستقلالها عن ضغوط رأس المال الإعلانى.

وهناك خطر أكبر يتمثل فى الخلط بين مهمة المحرر الصحفى ووظيفة مندوب الإعلانات الذى يتخصص فى جلب الإعلانات

ويتقاضى عمولة مجزية إلى جانب راتبه فلأن المحرر أكثر اتصالا بمصادر الإعلانات الحكومية فإن بعض الصحف تسمح لنفسها بتكليف المحرر بجلب الإعلانات من الجهة الحكومية التى يعمل مندوبا لديها، ويجد هذا التصرف ترحيبا من الوزارة لأنها تراه وسيلة لتطويع المحرر عن طريق العمولة التى ستدخل جيبه وشيئا فشيئا يتحول المحرر إلى مندوب للجهة الحكومية لدى صحيفته بعد أن كان مندوبا للصحيفة لدى الوزارة، فيغض النظر عن نقدها أو نشر مساوئها، عملا بالمقولة المشهورة : «اطعم الفم تستحى العين»، وتزداد الظاهرة استفحالا عندما يقوم كبار الصحفيين من ذوى المستويات العليا بجلب الإعلانات ضاربين عرض الحائط باللوائح والقرارات التى تمنع المحررين من جلب الإعلانات.

ولا شك أن هذا الخلط المزرى بين مهمة التحرير ومهمة الإعلانات يهدد حرية الصحافة، ويزعزع استقلالها ويجعلها أداة خاضعة للمعلن سواء كان جهة حكومية أو شركة تجارية وفى بعض الأحيان يحاول بعض رؤساء التحرير الجادين منع المحررين من جلب الإعلانات غير أن هذا الإجراء يتعرض للأختراق من الباب الخلفى، فالمحرر يحصل على الإعلان متخفيا تحت اسم مندوب الإعلانات، ثم يتقاسمان العمولة فيما بينهما وبهذه الطرق الملتوية يفقد الصحفى استقلاله ويصبح ولاؤه للجهة التى تغدق عليه تحت ستار الإعلانات وتعوضه عن ضعف الراتب الذى يحصل عليه من الصحيفة.

وإذا كنا نلوم الصحفى الصغير مرة لانطوائه فى موجة الإعلانات فإننا نلوم آلاف المرات الصحفى الكبير الذى يستغل موقعه الأثير فى الصحيفة وينشر دعاية مستترة فى تضاعيف مقالاته دون اعتبار للقارئ الحصيف الذى يستطيع بسهولة كشف هذا التدليس ولا يملك إلا أن يفقد ثقته فى الكاتب الذى دس له السم فى العسل ثم يفقد ثقته فى الصحيفة التى تسترت على هذا الغش وسمحت بإزالة الفوارق بين الكلمة التحريرية والكلمة مدفوعة الأجر.

أنها مشكلة عويصة وتزداد تعقيدا مع ارتفاع تكاليف الطباعة والأجور وحاجة الصحف إلى زيادة مواردها حتى تستمر فى الصدور ولو على حساب حرية الصحافة واستقلالها.

القائمة السوداء

بعد انفصال سوريا عن مصر فى سبتمبر ١٩٦١، عمل جمال عبدالناصر على إعادة بناء التنظيم السياسى على اساس اقصاء اعداء الثورة وتحالف قوى الشعب العاملة وتضم العمال والفلاحين والجنود والرأسمالية الوطنية والمثقفين.. ودعا إلى عقد لجنة تحضيرية فى شكل مؤتمر كبير لأقرار هذه الاجراءات وهو المؤتمر الذى انبثق عنه «الاتحاد الاشتراكى العربى» من الفئات المذكورة واستبعاد عناصر الثورة المضادة.

وكلفت صحيفة «الأخبار» محررها البرلمانى المرحوم محمد نزيه بتغطية وقائع المؤتمر الذى انعقد لمدة أيام فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة وطلب منى المرحوم الاستاذ أحمد بهاء الدين أن أرافق الأستاذ نزيه فى هذه التغطية حتى اتعود على هذا اللون من العمل الصحفى الذى درسناه نظريا تحت اسم «الماجريات» أى تسجيل ما يجرى فى البرلمان والمحاكم وصارحت

الأستاذ بهاء بأن اسمى لايزال مدرجا فى «القائمة السوداء» لدى أجهزة الأمن المبثوثة فى الوزارات والمصالح الحكومية، وتحظر على المشبوهين وأصحاب السوابق دخولها، ولذلك تحاشيت العمل فى الاقسام الخبرية، واتجهت نحو التحقيقات حيث التحرك أسهل ولا تعترضه عوائق ولكن الاستاذ أحمد بهاء الدين استبعد هذه التخوفات ظنا منه بأن الظروف تغيرت، فاسمى يظهر فى الصحف، ولا أحمل شعورًا عدائيا للنظام فاستجبت لطلبه.

كنت أعرف محمد نزيه منذ كنت قارئا لمجلة «المصور» وكان هو محررها البرلمانى ويكتب بابا عنوانه «كنت هناك» ورحب الرجل بمرافقتى له، وطلب منى أحضار صورتين لكى يستخرج بطاقة تتيح لى حضور المؤتمر، وذهبت معه إلى مبنى البرلمان حيث تستخرج التصاريح، وقُوبل نزيه باحترام شديد يتناسب مع تاريخه الصحفى، وقدمنى إلى الضابط المسؤول عن الأمن فطلب منى تسليم الصورتين إلى الموظف المختص فى غرفة مجاورة، فلما دخلت الغرفة لم يكن موجودا.

ولفت نظرى وجود سجل ضخم فوق مكتبه مفتوح على صفحة مسجل فيها بيانات عن أحد الصحفيين، وعليها ختم «مسموح» فأوحى إلى شيطانى بتقليب صفحات المجلد، فوجدته يضم أسماء كافة الصحفيين مع تغيير صيغة الختم بين «مسموح» و «غير مسموح» فأدركت على الفور أن اسمى لابد أن يكون مدرجا تحت ختم «غير مسموح» وتركت صورتين على المكتب، وعدت إلى مكتب

رئيس الامن فطلب منى الحضور فى اليوم التالى لاستلام التصريح.

فلما ذهبت إلى مبنى البرلمان، إذا بجندى الحراسة القابع فى كشك البوابة ينتفض من مقعده ويرفع يده ليحول بينى وبين الاقتراب من المبنى، ويأمرنى بالانصراف إلى حيث جئت إيثارا للسلامة، ولما أستأذنته فى الدخول لاستعادة الصورتين، قال بلهجة صارمة : مفيش صور ولا دياولو.. اذهب مع السلامة!!

عدت إلى الأستاذ بهاء، وحكيت له ما جرى فظهر الأسى على وجهه، وأبدى استياءه من هذا التصرف المنافى للديمقراطية ووعدنى بالتدخل لدى أولى الأمر لرفع اسمى من القائمة السوداء، ولكن جهوده لم تثمر عن تغيير واقع الحال وقام الاتحاد الاشتراكى فانضم إليه العاطل والباطل والصالح والطالح، وحظرت عضويته على أعداء الثورة، ورغم أن إدارة شؤون العاملين فى «أخبار اليوم» كانت تخصم من مكافأتى الشهرية رسم العضوية «عشرين مليما» إلا أن لجنة الاتحاد الاشتراكى بالمؤسسة كانت ترفض عضويتى أستنادا إلى القائمة السوداء المقدمة إليها من أجهزة المباحث، ورغم أن عدم العضوية لم يكن يؤرقنى فى شىء إلا أنه كان عقبة أمام انضمامى إلى نقابة الصحفيين فقد تعدلت شروط العضوية ونصت على ضرورة انضمام الصحفى إلى الاتحاد الاشتراكى، وكلما اجتمعت لجنة القيد بمبنى محكمة الاستئناف - اعترض ممثل الاتحاد الاشتراكى لأن مسوغات العضوية لا تتضمن وثيقة

انضمامى إلى الاتحاد الاشتراكى، وتكررت الاجتماعات، وتكرر الرفض ولم أسكت وتقدمت بتظلمات إلى كبار المسؤولين ومنهم حسين الشافعى الذى كان فى ذلك الوقت مشرفا على إدارة الاتحاد الاشتراكى، وكنت أرافقه فى المؤتمرات الشعبية التى كان يعقدها فى القاهرة والأقاليم، ومع ذلك بقيت هذه المسألة معلقة دون حل إلا أن شاء القدر وتغيب ممثل الاتحاد الاشتراكى عن حضور اجتماع لجنة القيد لسبب لا أعرفه، ولم يحدث اعتراض، فأفلت من المقصلة، وأصبحت عضوا فى نقابة الصحفيين فى يونيه ١٩٦٣ أى بعد حوالى ثلاث سنوات مكثت خلالها أزاول العمل الصحفى بطريقة غير قانونية وزال الحجر بفعل القدر وحده، فعندما تغلق جميع الأبواب يفتح الله بابا للرحمة والعدل.

العمود الصحفى

كان الله فى عون كتاب الأعمدة الصحفية.. أنهم مطالبون بأن يقدموا إلى قرائهم فى كل يوم «برشامة» مكثفة تجمع بين الحيوية والطرافة والثقافة، كى يحظى العمود بالقبول عند القراء، وليس كل كاتب عمود يتمتع بهذه المقدرة، فمنهم من يشغل هذه المساحة من الصحيفة بحكم منصبه القيادى فيها فينصرف عنه القراء.

والمشكلة الكبرى التى تواجه كاتب العمود هى العثور على «الفكرة» التى يبنى عليها المقال، فالفكرة بالنسبة للمقال هى بمثابة الروح للجسد، فإذا كانت الفكرة هزيلة،أو سطحية فقد العمود مقومات بنائه، وصار مجرد لغوا وثرثرة لا تسمن ولا تغنى، ولا تبنى الجسر الروحى بين الكاتب والقراء ولذلك فإننى أعذر كاتب العمود اليومى لأنه يبدأ يومه بالتنقيب عن الفكرة الجيدة، وعليه أن يتجول - مثل النحلة - بين أغصان السياسة والاقتصاد والثقافة وقضايا الجماهير، ليمتص الرحيق، ثم يعيد صياغته فى قالب

رشيق، وسطور قليلة ترضى نهم القارئ، أما إذا اقتصر على شأن واحد من شؤون الحياة، فما أسرع أن يتسرب الملل إلى قرائه ولذلك عليه أن يحرص على تنويع الموضوعات التى يطرقها.

وفى الصحف الأميركية والأوروبية كتاب متخصصون فى كتابة الأعمدة، وهناك وكالات تقوم بتوزيع هذه الأعمدة على كبريات الصحف، مثلما يحدث فى وكالات الأنباء، ومن أشهر كتاب الأعمدة فى الخمسينيات والستينيات : والتر ليبمان وجون السوب.. وعمود كل منهما يُنشر فى عشرات الصحف فى وقت واحد دون غضاضة، لأن الصحف ترى أن لهؤلاء الكتاب جماهير غفيرة تتابعهم أينما كانوا أما الصحف العربية فلم تتعود هذا الشكل الشائع للأعمدة، ولكل صحيفة كاتب أو أكثر يتخصص فى كتابة العمود، وغالبا ما يكون كاتب العمود من كتاب المقالات الذين اكتسبوا خبرة طويلة فى فن تحرير المقال، وباتت لديه رؤية شاملة للقضايا العامة ومقدرة على تناولها.

وفى الأربعينيات كان أشهر عمود صحفى هو «ماقل ودل» الذى كان يكتبه الصحفى الكبير الأستاذ أحمد الصاوى محمد ، على رأس العمود الثامن فى «آلأهرام» وكان عموده - كما ينم عنه عنوانه - يتميز بالتركيز الشديد، وتنوع الموضوعات. فلما انتقل صاحبه إلى صحيفة «الأخبار» فى عام ١٩٦٠، انتقل معه العمود، ولكن فى الصفحات الداخلية، لأن صحف «أخبار اليوم» لم تكن - فى ذلك الوقت - تنشر مقالات فى الصفحة الأولى، ومع تقدم السن بالأستاذ الصاوى تحول العمود إلى مجرد ردود على رسائل القراء، ففقد العمود بريقه القديم.

وفى نفس الوقت كان الأستاذ محمد زكى عبدالقادر ينشر عموده الشهير «نحو النور» فى «الأهرام»، ثم انتقل معه إلى الصفحة الخامسة من «الأخبار» وكان هذا العمود يتميز بالدسامة والتنويع وربما كان السبب فى ذلك أن الأستاذ زكى عبدالقادر لم يكن يعمل رئيسا فعليا للتحرير، فلم تشغله مشاكل العمل اليومى عن التفرغ لكتابة مقالاته، فكان يبعث بها من مكتبه الخاص بشارع قصر النيل، وكان يخصص «نحو النور» يوم الجمعة لنشر آراء القراء أما فى اليوم التالى - السبت - فكان المقال ينشر فى «أخبار اليوم» على عمودين ويتناول مشاكل السياسة العالمية وكان عمود زكى عبدالقادر يختلف - من حيث الشكل والمضمون - عن اليوميات التى يكتبها كل يوم أحد على الصفحة الأخيرة، وكانت أشبه بالخواطر الوجدانية، والنفثات العاطفية بأسلوب مغرق فى الرومانسية، كان هذا الكاتب من الموهوبين القلائل الذين جمعوا بين الكتابة العقلانية - فى عموده اليومى - وبين الكتابة الرومانسية فى يومياته الأسبوعية.

ومن أشهر الأعمدة الصحفية عمود «مصريات» الذى كان يكتبه الصحفى محمد خالد فى صحيفة «المصرى» وكان هناك عمود آخر عنوانه «أنا بيش» للكاتب عبدالرحمن الضبع، وكان ضليعا فى التراث العربى، ويستخرج روائع النوادر والطرائف من بطون التراث وجمعت فى أكثر من كتاب، وفى صحيفة «الوفد» استدعيت ابنه «عادل الضبع» وطلبت منه أن يستأنف نشر كتابات أبيه، وظل ينشر هذه الإبداعات لعدة سنوات إلى أن اجتذبته صحيفة «الاتحاد».

ولما صدرت صحيفة «الأخبار» فى يونية ١٩٥٢ كان على أمين يكتب عمودا يوميا على الصفحة الأخيرة تحت عنوان «على فكرة» وبمرور الأيام حذفت كلمة «على» وبقيت «فكرة» لتصبح أشهر عمود صحفى، وكان على أمين بارعا فى اثارة النزعة الإنسانية عند القراء، فيتناول المحن والكوارث التى تصيب الناس، ويدعو إلى التفاؤل والصبر والتحمل كى ينتصر الإنسان على آلامه ومتاعبه، وكانت هذه النزعة تلقى قبولا لدى الجماهير وبعد أن مات على أمين عام ١٩٧٥ تابع أخوه مصطفى أمين كتابة «فكرة» ولكنها اصطبغت بصبغة سياسية وجعل منها منبرا للدفاع عن الديمقراطية ومقاومة حكم الفرد، فكانت تتعرض للمصادرة فى عهد الرئيس الراحل السادات، ولم تتعرض لمثل ذلك فى عهد الرئيس مبارك.

ومن ناحيتى فقد بدأت فى كتابة العمود اليومى فى صحيفة «الأخبار» عام ١٩٦٦ عندما كنت مشرفا على قسم «خارج القاهرة» واخترت له عنوان «كل صباح» ولما صدرت صحيفة «الوفد» كتبت بابا أسبوعيا ثابتا تحت عنوان «كان وأخوتها» أعرض فيه ملامح من التاريخ بهدف انعاش الذاكرة لدى جماهير القراء، وبعد صدورها اليومى كنت أكتب عمودا يوميا على الصفحة الثالثة تحت عنوان : «ماذا.. وإلا» فلما توليت مسؤولية رئيس التحرير توقفت عن كتابته وتفرغت لكتابة المقال السياسى على الصفحة الأولى للوفد وزال عن صدرى هم كتابة العمود اليومى.

صانع النجوم

فى العملية الصحفية جنود مجهولون لا يعرف القراء اسماءهم لأنهم يعملون وراء الأضواء، وليس أمامها، ومنهم محرر التصحيح الذى يقوم بتصحيح الأخطاء اللغوية أو المطبعية، حتى تخرج المادة المنشورة خالية من الأخطاء ويفترض فى المصحح أن يكون ضليعا فى قواعد اللغة العربية وأدابها، وأن يملك حسا أدبيا يمكنه من تقويم العبارة الصحفية كى تستقيم مع الأساليب البيانية المعتبرة، وقدمت أقسام التصحيح إلى الحياة الأدبية والصحفية أدباء وشعراء كبارا لعل أكثرهم شهرة : كامل الشناوى.

نشأ كامل الشناوى فى بيئة دينية وأدبية وأخذ طريقه إلى التعليم الأزهرى، وليس الجبة والقفطان والعمامة، ولكنه ضاق بالمناهج الدراسية المعقدة فهجر الأزهر إلى الثقافة الحرة، وبنى كيانه الأدبى من التراث العربى كما كان يفعل الأدباء فى الزمن القديم، حتى اتيحت له وظيفة مصحح فى جريدة «كوكب الشرق»

التى كان يصدرها أحمد حافظ عوض، ثم ابتسم له الحظ عندما تولى الدكتور طه حسين إدارة تحرير صحيفة «السياسة» فى عام ١٩٣٠، واكتشف موهبة كامل الشناوى الأدبية فعهد إليه بكتابة مقالات قصيرة تتميز بسهولة اللفظ ووضوح المعنى وذاع صيته حتى تخاطفته الصحف فتنقل بينها إلى أن ألقى مراسيه فى «الأهرام» بدعوة من رئيس تحريرها أنطون الجميل باشا وكان أديبا وشاعرا، وأجرى كامل الشناوى أحاديث صحفية مع كبار المسؤولين لفتت إليه الأنظار، فقد استطاع أن يستنطق ألسنة معروفة بالصمت. واستخرج منها آراء وأفكارا وأخبارا حازت أعجاب القراء، ورسخت مكانته الصحفية فتولى رئاسة تحرير صحف كبيرة منها الجريدة المسائية والجمهورية والأخبار.

ورغم وصوله إلى أعلى المواقع الصحفية فقد ظلت مكانته الأدبية تضارع شهرته الصحفية، وتنافس كبار المطربين على غناء قصائده المغرقة فى الرومانسية ومنهم عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ ونجاة الصغيرة، وإلى جانب موهبته الشعرية كان كامل الشناوى يتمتع بموهبة القاء الشعر فقد وهبته الطبيعة حنجرة عريضة وعميقة ومؤثرة فى الاسماع، وكان أمير الشعراء أحمد شوقى بك يعهد إليه بالقاء قصائده فى المحافل والمنتديات العامة، إذ من المعروف عن شوقى أنه كان يتهيب القاء شعره أمام الجماهير.

والجانب الإنسانى فى شخصية كامل الشناوى لا يقل روعة وإثارة عن الجانب الأدبى، فقد آثر أن يعيش وحيدا بلا زوجة تؤنس وحشته، أو تقاسمه هموم الحياة، وبقدر ما كان الرجل محبا للحياة، مقبلا عليها بكل جوانحه، بقدر ما كان متخوفا من تصاريف القدر، وغدر الزمان، فهرب من قيوده مكتفيا بالبقاء - وحده - على قيد الحياة، ووجد العزاء فى صحبة الاصدقاء والتلاميذ الذين كانوا يلتفون حوله كما يلتف المريدون حول شيخهم، فيقضون معه الليل ساهرين، وهو يفيض عليهم من الحديث الشجى والنوادر والنكات والتشنيعات ما يملأ الاجواء مرحا وبهجة، يتنقلون معه من بيت إلى بيت ومن فندق إلى فندق، ولا يفارقونه إلا مع ضوء النهار، فيأوى إلى مخدعه مطمئنا إلى أنه أفلت من شبح الموت الذى كان يخشى أن يطبق عليه فى ظلمة الليل.

فى جلسات كامل الشناوى بزغ نجوم فى سماء الأدب والفن والشعر والصحافة فقد كان الرجل مغرما برعاية المواهب، يتعهدها بالتدريب والتثقيف، ويدفعها دفعا إلى عالم الشهرة وكان جسمه الضخم المترهل ينطوى على قلب طفل، ولكنه كان قلبا مرهفا حساسا يقع فى بحر الغرام من أول وهلة، ودون احتراز، فينطلق لسانه بشعر رقيق، ولأنه لم يكن يجيد السباحة فى بحر الغرام كان يتعرض لصدمات الغدر والخيانة، فيرتد إلى ذاته بكاء ونحيبا وهو القائل :

لا تكذبى أنى رأيتكما معا

ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى

من عين كاذبة فأنكر وادعى

كان المستفيدمن الحالتين، حالة الهيام وحالة الإحباط هو حركة الشعر العاطفى التى كان الشناوى أبرز دعائمها، فلم يترك لنا من آثار أدبية - فى حدود علمى - سوى ديوان صغير يحوى أشعاره العاطفية : ولم يهتم بجمع تراثه الأدبى والصحفى المتناثر فى عشرات الصحف والمجلات قانعا بمئات التلاميذ والمريدين الذين حفظوا اثاره فى ما كتبوه عنه.

رأيت كامل الشناوى خلال السنوات الأولى من عملى فى دار «أخبار اليوم» وكان اسمه يتصدر قائمة اسماء رؤساء تحرير صحيفة «الأخبار»، وهى قائمة شرفية أكثر منها عملية، ويكتفى بكتابة «يوميات» على الصفحة الأخيرة، وكنت التقيته بالصدفة فى ردهات الدار، فألقى عليه التحية فيقابلها بأحسن منها، وكنت أتمنى أن أكون ضمن فريق المريدين والتلاميذ الذين يتصلون به حتى أنهل من علمه وظرفه وأسعد بالجلوس إليه، ولكن القدر لم يحقق لى هذه الأمنية، وبقيت صلتى به مقصورة على حفظ أشعاره، وتلقف أخباره ونوادره التى اسمعها من أكبر رواته : أنيس منصور.

وفى عام ١٩٦٥ دعوته إلى ندوة فى نادى «أخبار اليوم» يلتقى خلالها بشباب المحررين، فقابل دعوتى بترحيب ودود، وقبل الموعد المحدد بيومين كان كامل الشناوى يغادر الدنيا التى عاش فيها كما يعيش الطائر الطليق، يحلق فى الفضاء العريض، ويأبى الركون إلى عش دافىء، وعندما جاء نعيه ووضعوا أمامى الأوراق والمعلومات التى تروى قصة حياته وطلبوا منى اعادة صياغتها فى صفحة كاملة، فعكفت على كتابتها، وأفرغت فيها كل ما يختزنه قلبى من أسف ولوعة على هذا الأديب الذى بدأ حياته مصححا مغمورا، وانتهى علما من اعلام الأدب والفن.. ولايزال تلاميذه يذكرونه كلما شدهم الحنين إلى ذلك العصر.

التصوير.. والتشهير

تقليد غريب ظهر فى الصحافة خلال السنوات الأخيرة : وهو نشر صور شخصية للقضاة والمستشارين ضمن أخبار الجرائم، فيخيل للقارئ - لأول وهلة - أنها صورة المتهم أو المحكوم عليه، فإذا بها صورة رجل النيابة الذى تولى التحقيق، أو القاضى الذى أصدر الحكم، فيلتبس الأمر على القارئ.

وقديما : كانت الصحف تتحرز فى نشر صور القضاة، بل كانت تمتنع عن نشر صورهم وأسمائهم حتى تظل الهيئة القضائية بمنأى عن شبهة الدعاية، ولاتزال التقاليد القضائية فى بعض الولايات المتحدة الأمريكية والبلاد الأوربية تحظر التصوير أثناء المحاكمة حفاظا على هيبة القضاء، وحتى لا تترك فلاشات التصوير «تلعلع» فى قاعة المحكمة، وأن كانت تسمح للرسامين بتسجيل ملاحظاتهم فى صمت عن طريق الريشة والورق ولا يطلع القراء على الماجريات القضائية إلا من خلال هذه الرسوم.

وبعد أن أفرطت الصحف المصرية فى نشر الصور الشخصية للقضاة : تعالت الأصوات باستهجان هذا التصرف ومع ذلك بقيت الظاهرة على حالها، ربما لأن الهيئات القضائية لم تعترض معارضه جدية، ووجدت فيها وسيلة لا بأس منها للشهرة مثل غيرهم من فئات الصفوة.

تقليد آخر أشد وأنكى : وهو نشر صور لأشخاص لا علاقة لهم بالموضوع المنشور، ويحدث ذلك عندما يكتب المحرر تحقيقا صحفيا له صفه العموم، وعندئذ يلجأ المخرج ـ المسئول عن التنفيذ ـ إلى الاستعانة بصور أرشيفية للقضاء على رمادية الموضع، ويختار منها صورة أو أكثر لأشخاص مجهولين بقصد تجميل الصفحة حتى لا تبدو قاتمة فى عين القارئ، وأحيانا يلجأ المخرج إلى طمس جزء من الوجه كمحاولة منه لتجهيل الشخص، والطمس قد يكون مقبولا فى حالة نشر صورة «بورتويه» لشخص واحد، ولكنه يصبح منفرا وقبيحا فى حال تعدد الأشخاص فى صورة واحدة، ويفاجئ هؤلاء الأشخاص بظهور صورهم دون مبرر، ويرون فى ذلك مساسا بسمعتهم، فيحتجون، وتضطر الصحيفة إلى نشر اعتذار لهم فى اليوم التالى، وتوضيح أن هؤلاء الأشخاص لا علاقة لهم بالموضوع المنشور، الأمر الذى يهز ثقة القارئ فى صحيفته وفى البلاد الأجنبية يلجأ الشخص الذى تنشر صورته بلا مبرر إلى القضاء ويحصل على تعويض عن الضرر الذى لحق به من جراء النشر، ولذلك تدقق هذه الصحف فى نشر الصور حتى لا تقع تحت طائله الغرامات الفادحة.

وفى الجرائم الخلقية، أو التى تمس النزاهة والشرف كالسرقة والاختلاس : يلجأ المتهمون إلى تغطية وجوههم وإخفائها عن عدسات التصوير، وعلى العكس من ذلك إذا كانت القضية المنظورة سياسية، فيجد المهتمون فى نشر صورهم وسيلة للشهرة والبطولة، وكان الأستاذ مصطفى أمين - أثناء محاكمته فى عام ١٩٦٥ - يطل من خلف قضبان القفص الحديدى، ويشير على المصور فاروق ابراهيم بأختيار الزاوية التى تمكنه من التقاط صور جيدة وهى حالة فريدة فى تاريخ المحاكمات. تعو دإلى طبيعة مصطفى أمين الذى كان يضع الفن الصحفى فى الاعتبار الأول قبل أى اعتبار آخر.

أما من حيث المبدأ : فليس من حق الصحف أن تنشر صور المتهمين أثناء محاكمتهم، لأن التصوير - الذى هو شكل من أشكال التشهير - يهدر المبدأ القضائى المعروف : وهو أن المتهم يظل بريئا حتى تثبت إدانته بحكم نهائى، و «الاتهام» فى مصطلحات اللغة العربية معناه «الشكك» وقد اتفقت معاجم اللغة على ذلك أى أن المتهم يظل فى المنطقة الواقعة بين الأدانه والبراءة إلى أن يتقرر مصيره ولكن مفهوم الاتهام تطور فى اللغة الدارجة إلى الأدانة، ورسخ هذا المفهوم فى الذهنيه الشعبية حتى صار من المستحيل إعادته إلى معناه الأول، وجاءت الصحافة لتؤكد هذا الأنحراف عن طريق النشر بالكلمة والصورة منذ لحظة القبض على المتهم، ونتج عن هذا الخلل : الاساءة إلى الكرامة الإنسانية، وتلويث سمعة المتهم، وتدمير مستقبله، وحتى لو حكم له بالبراءة فقد يصعب عليه استعادة اعتباره بعد أن صار مضغة فى وسائل الإعلام.

وذهبت أدراج الرياح : أصوات العقلاء من زملاء المهنة الذين يناشدون الصحف التريث فى نشر أسماء المتهمين، والامتناع عن ظهور صورهم، حتى يبقى خط الرجعه قائمًا فى حالة ظهور البراءة... فيعود المتهم إلى حظيرة المجتمع دون جروح نفسية.

هذه قضية جوهرية تحتاج إلى جهود مشتركة وجادة من كافة الصحف العربية وأعتقد أن اتحاد الصحفيين العرب هو الجهة المرشحة لتبنى هذه القضية حفاظا على كرامة الإنسان.

فتاة العتبة

منذ عشر سنوات تقريبا تفجرت حادثة «فتاة العتبة» التى كانت تصعد سلم إحدى الحافلات فى ميدان العتبة المزدحم بالبشر، وعلى سلم الباب احتك بها شاب، وامتدت يده الى مكان حساس من جسمها بما أدى إلى زوال عذريتها، فتعالت صرخاتها، وقبض الجمهور على شاب اتهمته الفتاة بأرتكاب الجريمة، وانتقل الجميع الى قسم شرطة الموسكى القريب من العتبة، وهرع الصحفيون الى القسم وسجلوا الأحداث كما وردت فى محضر التحقيق، واهتز الرأى العام لبشاعة الجريمة، وطالبوا بتشديد الوجود الأمنى فى محطات الباصات، ومطاردة العابثين الذين يستغلون الزحام فى الاعتداء على الحرمات، فى حين اعترض كبار رجال الأمن على وقائع الجريمة كما نشرتها الصحف، واتهموا الصحافة بالمبالغة فى سرد الحدث وتصاعد الجدل إلى المستويات العليا إلى أن طرحت القضية فى اجتماع إعلامى كبير بمقر رئاسة الجمهورية حضره

الرئيس حسنى مبارك فدعا الصحافة إلى الالتزام بالدقة فى النشر، وعدم الانسياق وراء الأقاويل والإشاعات بقصد زيادة التوزيع.

وعندئذ طلبت الكلمة وقلت للسيد الرئيس ان الصحف لا تنشر شيئا من عندها، وإنما تلتزم بما هو وارد فى تحقيقات الشرطة والنيابة العامة دون زيادة أو نقصان، ولا تستطيع أية صحيفة أن تحرف فى النشر حتى لا تتعرض للمساءلة القضائية، ووصف وقائع جريمة العتبة ليس من تأليف المحررين، لأنه عند وقوع الحادث، لم يكون هناك مندوب لأية صحيفة حتى يقال أنه بالغ فى الوصف، فإذا كانت هناك مبالغة فمرجعها سجلات التحقيق وقلت أن المندوبين يذهبون إلى الأقسام بناء على استدعاء من الأقسام.

وسألنى الرئيس مبارك، ولماذا يلجأ بعض الضباط إلى المبالغة، فقلت له: أن ذلك يرجع لسببين، أولهما السعى وراء الشهرة، فبعض الضباط يحرصون على نشر أسمائهم واسماء رؤسائهم والمبالغة فى ذكر الجهود التى بذلها فى ضبط الجناة، ولابد أن يتضمن النشر سلسلة طويلة، من أسماء الضباط، تتدرج من الأعلى إلى الأدنى، حتى يكون النشر موضع الاعتبار عند الترقيات، أما السبب الثانى فهو الحصول على المكافئات المالية، فعقب حدوث جريمة من الجرائم التى تشغل الرأى العام: يعكف الضباط على إعداد كشف بأسمائهم للحصول على المنح التشجيعية التى تصرف فى هذه المناسبات وتتناسب المكافأة طرديا مع ضخامة الجريمة.

وأبدى الرئيس مبارك دهشته من التفسير الذى ذكرته حول أسباب المبالغة فى وصف الحوادث الأجرامية، وقال أنه يلاحظ كثرة أسماء الضباط أثناء نشر الحوادث، حتى أنها فى بعض الأحيان ـ تشغل مساحة أكبر من الحدث نفسه(!!).

وسألنى الرئيس مبارك: وما هو العلاج؟

فقلت له: أن أخبار الجرائم تمر عبر قناة تبدأ من أقسام الشرطة حيث يقوم ضباط المباحث بالتحقيقات الأولية، ثم تنتقل القضية إلى النيابة العامة لاستكمال التحقيق والتصرف فى القضية إما بالإحالة إلى المحاكم، أو بالحفظ، والصحفى يستقى معلوماته من هذه المصادر، والعلاج هو أن تلتزم هذه المصادر بالدقة فيما تدلى به من وقائع، حتى يكون النشر مطابقا للحقيقة، ولابد من تنظيم العلاقة بين الصحافة وأجهزة التحقيق.

واقترح الرئيس مبارك أن يعقد رؤساء تحرير الصحف اجتماعا عاجلا مع الوزراء المعنيين لوضع صيغة جديدة للعلاقة بين الصحافة وأجهزة التحقيق الأمنى والقضائى، وعقد الاجتماع بمكتب السيد صفوت الشريف وزير الأعلام، وحضره المستشار فاروق سيف النصر وزير العدل، واللواء عبدالحليم موسى وزير الداخلية، والمستشار رجاء العربى النائب العام، وطرح الزملاء وجهات نظرهم، وأعربوا عن شكاويهم من الضغوط التى سيتعرض لها المندوبون الصحفيون من جانب بعض ضباط الشرطة، الذين يفرضون على المندوبين نشر الحوادث كما يصفونها هم. حتى لو كانت مشوبة بالمبالغة، كما أنهم يحرصون على نشر أسماء رؤسائهم

حتى ولو لم يكن لهم دور، حتى يأمنوا غضبهم، فإذا تجاهلت الصحيفة نشر الأسماء - كاملة - تعرضت للحرمان من النشر، فتبدو متخلفة عن زميلاتها. ولذلك تضطر الصحيفة إلى الأذعان والافراط فى نشر الأسماء لتضمن مشاركتها فى تغطية الحوادث.

واقتنع وزير الداخلية بالآراء التى طرحت، وأصدر قرارا بعدم نشر أسماء الضباط، حتى يسد الباب امام الراغبين فى الشهرة، وكلف قسم الاعلام التابع للوزراء بإصدار نشرات يومية عن الحوادث التى تقع فى أنحاء البلاد. وإبلاغها إلى الصحف عن طريق الفاكس لتستقى منها الصحف معلوماتها، والتزمت الصحف لفترة زمنية محدودة بعدم نشر الأسماء، ثم أخذت تتخفف شيئا فشيئا من هذا الحظر، وعادت تنشر أوصاف الرتب دون أسماء أصحابها.. ثم زال الحظر نهائيا.. وعادت ريمة.. إلى عادتها القديمة(١١).

وقبل أن أختم حديثى عن واقعة «فتاة العتبة» من المهم أن أذكر أن المحكمة حكمت ببراءة الشاب المتهم بالأعتداء عليها، خاصة وقد تبين أنه مشلول الساق. ولكن الأهم من ذلك أن تداعيات الحادث لم تسفر عن تغيير جدى فى أساليب النشر، وبقيت العلاقة بين الصحافة وأجهزة التحقيق كما كانت قبل الحادث، وظلت الصحف تسعى إلى ما تجود به أقسام الشرطة تطبيقا لمبدأ السبق الصحفى. والحصول على معلومات إضافية حتى لو كانت مشوبة بالمبالغة.

صحافة قال... ويقولون!

الأمر الذى لا شك فيه أن التقدم العلمى فى وسائل الاتصالات:

أتاح للصحفى الحصول على المعلومات بطريقة أكثر يسرا مما كان فى الماضى، ولكنه ـ فى نفس الوقت ـ جاء على حساب العلاقات المباشرة التى كانت تنمو بين الصحفى وبين مصادره، والتى تتحول إلى صداقة تمكن الصحفى من الانفراد بأخبار يصعب على غيره الحصول عليها.

يروى إحسان عبدالقدوس أنّه عندما بدأ يخطو أولى خطواته فى بلاط صاحبة الجلالة ـ وكان لا يزال تلميذا يرتدى الشورت ـ ذهب إلى فندق سيسل بالاسكندرية، حيث كان يجلس الدكتور محمد حسين هيكل باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين ورئيس مجلس الشيوخ، وحوله عدد من رجال السياسة، واقترب احسان من هيكل وقال له بصوت خفيض: ماما بتسلم عليك.. وبتقولك

أعطينى شوية أخبار (!!) وضحك هيكل باشا وسأله ومن تكون ماما/ فقال إحسان: فاطمة اليوسف. وربت هيكل على كتف الصحفى الناشىء، وزوده «بشوية أخبار» تقديرا لعفويته وبراءته. ومن يومها نشأت صداقة حميمة بين السياسى العجوز والصحفى الشاب كان لها أثرها فيما بعد.

وكلنا يذكر الصداقة التاريخية بين الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل، والزعيم الراحل جمال عبدالناصر، والتى بدأت قبل أيام معدودة من قيام ثورة يوليو، ١٩٥٢، ثم تنامت عبر لقاءات مباشرة تخللها أحاديث ومناقشات ومباريات فى لعبة «الشطرنج» ولم يكن لهذه العلاقة أن تبلغ مداها، لو أن هيكل اقتصر فى اتصالاته مع عبدالناصر على سلك التليفون.

وعندما بدأنا العمل فى مؤسسة أخبار اليوم فى الستينيات - كان مصطفى أمين يهدد بخلع أجهزة التليفونات المرصعة فوق مكاتب الصحفيين بعد أن لاحظ أن معظمهم يفضلون الجلوس على المكاتب، والاتصال بمصادرهم عن طريق التليفون مما يحرم الصحفى من الحصول على أهم الأخبار لو أنه ذهب إلى المسئول وجلس معه، فربما التقط أسرارا هامة من خلال اتصال هاتفى يتلقاه المسئول أثناء تواجد الصحفى، وربما التقى المندوب فى مكتب الوزير بشخصيات مهمة تضيف إليه المزيد من الأخبار، أما القبوع على المكتب والاكتفاء بالاتصال التليفونى فلن يمكن المندوب من الحصول إلا على الفتات ، لأن المسئول قد يكون مشغولا ومضطرا إلى إنهاء المكالمة التليفونية.

وكان مصطفى أمين ينصحنا بالاهتمام بسكرتير الوزير أو مدير مكتبة أكثر من الاهتمام بالوزير نفسه، لأن كل أعمال الوزير تصب فى جهاز مكتبة وقد يحجب الوزير الأخبار عن الصحفيين، ولكن الصحفى البارع يستطيع استخلاصها من السكرتير عن طريق الصداقة المباشرة وروى لنا أنه علم بأن أحد المحررين كانت تربطه صداقة متينة بعاملة التليفون فى قصر عابدين أثناء العهد الملكى، فكان مصطفى أمين يرعى هذه الصداقة، ويتدخل إذا حدث ما يعكر صفوها ، لأن عاملة التليفون كانت تطلع صديقها (محرر الأخبار) على الاتصالات الهاتفية للملك فاروق، وبذلك كان مصطفى أمين يقف على أسرار القصر.

وقصة أخرى: أثناء المفاوضات التى أجراها رئيس الوزراء اسماعيل صدقى باشا، مع مستر بيفن وزير خارجية بريطانيا، فى لندن عام ١٩٤٦، كان مصطفى أمين يقوم بتغطية المحادثات التى تجرى فى سرية بالغة، فقد اتفق الطرفان : المصرى والبريطانى على عدم تسريب أية معلومات قبل الوصول إلى الاتفاق النهائى، وعجز الصحفيون عن اختراق هذا الحصار، وفى أثناء الاستراحات كان الصحفيون والموظفون الانجليز يتناولون الشاى فى الكافتريا، ومن بينهم الموظفة الإنجليزية التى تقوم بتحرير المحادثات على الآلة الكاتبة ولاحظ مصطفى أمين أنها تشرب الشاى بدون سكر، وتحتفظ بنصيبها من قطع السكر فى حقيبة يدها من أجل أطفالها، وذلك بسبب الأزمة التموينية التى كانت تعانى منها بريطانيا فى أعتاب الحرب واشترى مصطفى نصف كيلو سكر

وأهداه إلى السكرتيرة فكادت تطير من الفرح وعرضت عليه المقابل، فقال لها أن لا يطلب منها سوى ورقة «الكربون» التى تستخدمها فى نسخ المحادثات، بشرطٍ أن لا تستخدم الكربون اكثر من مرة، حتى يسهل عليه قراءتها، واستجابت السكرتيرة لهذا الطلب (البسيط) وعن طريق ورقة الكربون استطاع مصطفى أمين أن يقف على تفاصيل المحادثات ويبعث بها إلى أخبار اليوم فتنشرها بين ذهول ودهشة صدقى باشا ومستر بيفن.

وكانت نصائح مصطفى أمين تذهب سدى، وظل الغالبية العظمى من المحررين يستسهلون الاتصال التليفونى خاصة بعد أن تعقدت أزمة المواصلات، وبات الانتقال فى شوارع القاهرة أمرا مرهقا، وجاء ظهور التليفون المحمول (النقال) وأصبح فى إمكان الصحفى أن يقوم باتصالاته وهو قابع فى بيته دون أن يتجشم الانتقال الى مكتبة فى الجريدة، بل ربما بعث بالمواد الصحفية التى لديه إلى جريدته عن طريق الفاكس(١١).

والمؤسف أن عدوى الاتصالات الهاتفية: انتقلت من المندوبين الخبريين إلى محررى التحقيقات الصحفية، وبعد أن كان المحرر يذهب بنفسه إلى موقع الحدث ويحقق بنفسه فى شتى جوانب القضية المطروحة، ويبحث عن البيانات التى تخدم الموضوع: أصبح يكتفى باستطلاع آراء المختصين عن طريق التليفون، وبذلك فقد

التحقيق الصحفى حيويته ورونقة ، وأصبح مجرد أقاويل ترد على السنة المختصين، مما جعلنى أطلق على هذا النوع من التحقيقات «صحافة قال.. ويقولون» لأنك تقرأ التحقيق من أوله إلى اخره فتجده مجرد «أقوال» مرصوصة خالية من الجهد والتعمق وهى عملية سطحيه يستطيع أى شخص أن يقوم بها طالما يحتفظ فى أجندته على بعض أرقام التليفونات(١١).

سجناء الرأى

كُتاب وأدباء وزعماء كثيرون اتخذوا من الصحافة منبرا للدفاع عن الرأى والمطالبة بالاستقلال والدستور، ومقاومة الاحتلال والاستبداد، وتجرأوا على نقد السلطات الحاكمة التى كانت تتحالف مع سلطات الاحتلال فى كبت الحريات، وخنق أصوات الأحرار، فدفعوا الثمن من حريتهم، وسيقوا إلى السجون، وأُلقى بهم فى الزنازين مع اللصوص وقطاع الطرق، ورفضوا المساومات والإغداقات التى كانت تعرض عليهم مقابل الصمت والسكوت على استبداد الحكم، وسطوة الاحتلال.

وبعد انكسار الثورة العرابية، ووقوع الاحتلال، وصدور قانون المطبوعات بدأ توافد الكُتاب والصحفيين على السجون، ويشاء القدر أن يكون الأديب العظيم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أول من يُزج به إلى السجن مع بداية القرن العشرين فى جريمة نشر لم يكن له فيها دخل، ولم توجد قرينة تدل على ارتكابه لها، فقد حدث

عند قدوم الخديوى عباس حلمى الثانى من أداء فريضة الحج عام ١٩٠٢ أن وجد فى استقباله قصيدة منشورة فى صحيفة «الصاعقة» التى كان يصدرها أحمد فؤاد الذى اكتسب شهرته باسم الصاعقة نسبة إلى تلك الصحيفة التى كانت من أشد صحف الإثارة والهجاء.

كانت قصيدة «الاستقبال» طافحة بالتهجم على الخديوى، وعلى أسرته الحاكمة، وتعيرهم بأصلهم «المقدونى» المتدنى، وأن مجيئهم إلى مصر كان نكبة على أهل مصر، يقول مطلع القصيدة:

قدومٌ ولكن لا أقولُ سعيدُ
وملك وانْ طال المدى سيبيدُ
يذكرنا مرآك أيام أنزلتْ
علينا خطوب من جدودك سوء
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
سهامُ بلاء وقعهن شديد
أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ودَّ آباء ورامَ جدود
فياليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الأرض حين تسود

وثارت ثائرة الخديوى، وطلب من سلطات التحقيق أن تباشر مهمتها فألقت القبض على صاحب المجلة، فقال أنه لا يعرف اسم مؤلف القصيدة، وادعى أنه نقلها سماعا عن الأديب الكبير المنفلوطى، فألقى القبض عليه، ونفى أنه ناظم القصيدة، ومع ذلك قدمته النيابة إلى المحكمة فحكمت عليه وعلى «الصاعقة» بالسجن لمدة شهور مع النفاذ. ومع ذلك لم يقنع الخديوى بهذه النهاية ، وصرف همه لمعرفة المؤلف الحقيقى، واطلاق جواسيسه فى المنتديات الأدبية لعلهم يتوصلون إلى الجانى. فعادوا إليه زاعمين أن كاتبها هو السيد توفيق البكرى: نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية، وزعيم بيت البكرية الذين ينتسبون إلى الخليفة الأول أبى بكر الصديق، ويضعون أنفسهم فى مكانة تطاول مكانة البيت المالك، بل تتفوق عليها من حيث شرف النسب وعراقة الأصل، ولأن الحديث عن الأصول والجدود لا يتعاطاه إلا من ينتسب إلى أهل النسب والحسب.

وكان الخديوى يعرف جيدا مكانة زعيم البيت البكرى فى المجتمع. وكذلك قربه من «اللورد كرومر» جبار الاحتلال البريطانى، والعدو اللدود للخديوى، ولكل هذه الاعتبارات أدرك عباس صعوبة التنكيل بالبكرى على النحو الذى جرى مع المنفلوطى وغيره من البسطاء الذين ليس لهم ظهر يحميهم فلجأ إلى أسلوب التآمر للإيقاع بالبكرى، فقد كان عباس مثلما وصفه كرومر: أستاذاً فى تدبير المؤامرات وهداه تفكيره إلى حفر «مقلب» لتلويث سمعة البكرى الأخلاقية، ويحط من شأنه فى نظر كرومر ويقضى على حظوته عنده.

كلف الخديوى أحد الأدباء المتصلين بالقصر هو حفنى ناصف لتدبير المقلب، فذهب إلى البكرى فى قصره بالخرنفش. وافتعل معه نقاشا حادا حول مكانته فى نظم الشعر، ونجح فى استفزاز البكرى وتحداه أن ينظم قصيدة فى الأدب الفاحش بزعم أن هذا هو الميدان الوحيد لإبراز القدرة الشعرية، وبلع الرجل الطعم، وعكف على كتابة قصيدة فى الغزل المحظور، وأخذ حفنى ناصف الورقة وقرأ محتوياتها واعترف له بالتفوق، ثم تظاهر بتمزيق الورقة وألقاها فى سلة المهملات، ولكنه أخفاها فى كمه، وهرع بها إلى الخديوى، فبعث بها إلى كرومر، وكانت النتيجة شطب اسم البكرى من قائمة الكبراء الذين يحضرون حفلات الوكالة البريطانية، أما الخديوى فأصدر أوامره إلى الوزراء والعظماء بالامتناع عن زيارة قصر الخرنفش.

وفى أثناء هذه المغامرات البوليسية كان «المنفلوطى» يقضى عقوبة السجن فى جريمة لم يتركبها، أما ثانى الصحفيين الذى ذاقوا مرارة السجن فهو: أحمد حلمى الذى اشتهر اسمه من خلال موقف السيارات المجاور لمحطة سكة حديد القاهرة، وله قصة أخرى.

سجين الحرية

كان أحمد حلمى ثانى صحفى مصرى ـ بعد المنفلوطى ـ يسجن بتهمة العيب فى الذات الخديوية ـ الملكية .. حدث ذلك سنة ١٩٠٩ عندما أعادت الحكومة العمل بقانون المطبوعات الصادر فى العام الثامن للاحتلال البريطانى، فقاد حلمى مظاهرة شعبية سار فيها حوالى خمسة وعشرون الف شخص للتنديد بهذا القانون الذى يصادر الحريات العامة، ويكبت صوت الأحرار، فقدم الى المحاكمة، وحكم عليه بالحبس البسيط لمدة اربعة شهور وكفالة عشر جنيهات لمدة ستة شهور، وكتب أحمد حلمى ردا على الحكم فقال: إن حكم المحكمة نقابله بما يليق به من الاعتبار ، وإنا لنبتهج أن أتيح لنا أن نحاكم فى سبيل الفضيلة، لأن الإنسان فيما يجهر فيه من رأى لا يبتئس أن يحمل فى سبيل ذلك مصاعب أهونها أن يخسر شيئا من المال، فمرحبا بالخسارة، وأن كان لنا من هذا الحكم أمل فى عدل الاستئناف.

ولكن محكمة الاستئناف لم تقتصر على تأييد الحكم الابتدائى، بل ضاعفت الحكم بالحبس من ستة شهور الى سنة..» لتطاوله فى جريدته على مقام الحضرة الفخيمة الخديوية، وسيق الرجل، وكان قد تجاوز الثلاثين من عمره الى سجن «قرة ميدان» القائم فى سفح القلعة، لا ليركن الى الدعة والخمول والانطواء على النفس، وإنما لينظر فيما يعانيه المسجونون من معاملة غير آدمية، ويكتب ملاحظاته على الحياة القاسية داخل السجون، وكانت تابعه لسلطة الاحتلال، وجعل من هذه الملاحظات مادة غزيره لكتاب أصدره بعد قضاء العقوبة، فكان أول كتاب يصدر بالعربية عن السجون، وجعل عنوانه «السجون المصرية فى عهد الاحتلال الانجليزى» واستهله بعبارة نصها «سجن الجسم خير من سجن الضمير»، وقدم تعريفا للسجون وتاريخها وأنواعها منذ العصر الرومانى، والسجون فى الشرق، والسجون عند العرب فى الجاهلية والإسلام، وسجون الهند القديمة، وأساليب تعذيب المسيحيين فى روما وبيان مستفيض عن سجون انجلترا واسماء مصلحيها، وتقسيم المسجونين حسب أنواع جرائمهم وأشغالهم ومأكلهم ونظافتهم وصحتهم وتشغيلهم وعقابهم.

وفى الجزء الثانى من الكتاب يشرح احمد حلمى أسباب دخوله السجن، وأدوار القضية الأولى ومرافعات النيابة والمحاماة والأحكام فى الدرجتين الأولى والثانية، ووصف تفصيلى لسجن «قرة ميدان» وسلوكه فى السجن والصداقات التى اكتسبها وراء الاسوار، والاغراءات التى تعرض لها كى يكتب اعتذارا مقابل العفو عنه،

والاجرة التى قبضها عن عمله فى السجن وقدرها ٤٩٨ مليما تبرع بها الى الحزب الوطنى وكان من ابرز أعضائه.

بدأ أحمد حلمى حياته العملية موظفا صغيرا فى إحدى الشركات الأجنبية بالأسكندرية ولكنه لم يقنع بالمستوى الوظيفى، وعمل على بناء ثقافته عن طريق القراءة والاطلاع على امهات الكتب الإسلامية ، وتعلم اللغة الفرنسية وآدابها، ثم التحق بوظيفة حكومية بالقاهرة، وهناك جرفته الحركة الوطنية التى أشعل نارها الزعيم مصطفى كامل، فالتصق به وصار من أتباعه المقربين، فلما أعلن مصطفى كامل عن إصدار صحيفة، اللواء فى يناير ١٩٠٠ شعر الفتى أنها فرصة العمر، ووجد فيه الزعيم طاقة هائلة الى جوانب متانة خلقية، ووطنية متأججة، مثلما وجد أحمد حلمى فى زعيمه المثل الأعلى، والنموذج الكامل للوطنى الثائر، ولما كان قانون المطبوعات يمنع الموظفين من الاتصال بالصحافة. فقد عمل أحمد حلمى فى اللواء كاتبا غير متفرغ، إلى أن حصل على أجازة من الوظيفة وتفرغ للعمل الصحفى، وأضحى الرجل الثانى فى الصحيفة بعد مؤسسها مصطفى كامل، وعلى صفحاتها بزغ نجمه، وذاع صيته، وصار اسمه يضارع اسماء كبار الكتاب من امثال على يوسف، وأحمد لطفى السيد والشيخ عبدالعزيز جاويش، وخاض أحمد حلمى معارك شرسة لفضح جرائم الاحتلال وأذنابه من شاكلة أصحاب «المقطم».

أما أشد كتاباته تأثيرا فى الجماهير، فهى وصفه لمحاكمة الفلاحين المصريين فى حادثة «دنشواى» سنة ١٩٠٦، والتى نشر فيها وصفا دقيقا لهذه المهزلة الفظيعة التى جرت وقائعها على أرض مصر، وكان أحمد حلمى يغمس قلمه فى دماء الجرحى والشهداء ويكتب مجريات هذه المحاكمة التى انتهكت العدالة باسم العدالة، وفى يوم تنفيذ أحكام الاعدام والجلد على المظلومين: كان أحمد حلمى شاهد عيان فكتب تحت عنوان:

«يا رافع البلاء: كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة فلم أستطع الوقوف بعد الذى شاهدته، فقفلت راجعا. وركبت عربتى، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه، كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه هذا، ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى من عدم وصف ما فى البلدة من مآتم، وكآبه سادت كل بيت وحزن بسط ذراعيه حول الأهالي، حتى أن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، ومعذرتى واضحة: لأنى لا أتمالك نفسى وشعورى أمام هذه البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح.

وكان من أثر هذه الكلمات التى فضحت الاحتلال وأذنابه: أن التهبت مشاعر المصريين والأحرار فى كل مكان، حتى أن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى. وكان لا يزال طالبا بمدرسة الحقوق. يعترف بأنه حين قرأ هذه المقالة لأحمد حلمى اقشعر بدنه من

هول ما قرأ، ورأى التناقض الكبير بين ما يقرأه فى كتب القانون عن منهج التحقيق والمحاكمة والعدالة، وما يجرى على أرض دنشواى. وتساءل: ما فائدة الدروس ونظريات القانون إذا كانت لا تتطبق على الناس كافة، وادرك مبلغ هوان المصريين فى نظر الاحتلال ، وأنه لا كرامة لوطن بغير استقلال.

بعد وفاة الزعيم مصطفى كامل: عز عليه أن يعمل تحت قيادة أخرى، فاصدر صحيفة «القطر المصرى» ليواصل فيها حملته على الاحتلال، وظل مثابرا على العهد. وفى أخريات حياته انشغل بالزراعة، فاستأجر عزبة بالقرب من حى شبرا، شمالى القاهرة، ولكن الازمة الاقتصادية أطاحت بكل ثروته ، إلى أن لقى ربه فى عام ١٩٣٦، وان ظل اسمه باقيأ على الشارع الممتد من عزبته الى محطة القاهرة حيث يقع موقف السيارات الذى يحمل اسمه. وهو العلامة الوحيدة على هذا الرائد الصحفى الكبير. وان كانت سيرته قد تجددت فى حفيده الشاعر والفنان والصحفى الراحل صلاح جاهين.

جريدة «المصرى»

تعلمت القراءة السياسية فى جريدة «المصرى.. وعلى صفحاتها عرفت أن حرية الكلمة قيمة ثمينة تستحق الدفاع عنها مهما كانت التنظيمات، وان الديمقراطية موقف يتطلب من صاحبه الشجاعة، وليست مجرد شعار يرفعه تجار السياسة ويعملون ضده أو يساومون عليه.

فى سن العاشرة كانت معظم الصحف اليومية تدخل بيتنا. فأتصفحها بسرعة، ثم اتوقف عند «المصرى» لأقرأها قراءة متأينة، ومتعجبا من خطها السياسى الذى كان يبدو متحررا من القيود الحزبية، الضيقة، فرغم أنها كانت مرتبطة بحزب الوفد، إلا أنها كانت بعيدة عن التطرف الحزبى الذى كان سمة الصحف الحزبية فى الأربعينيات ، وكان للوفد صحف أخرى تجنح الى الشطط والمغالاة فى التهجم على الخصوم بأقذع الكلمات، ولا تتورع عن

اتهامهم بالخيانة، وكنت أرى فى ذلك - رغم صغر سنى وعدم انتمائى لأى حزب - إسفافا وخروجا على أدب الخلاف السياسى.

ظاهرة أخرى لفتت نظرى، وجذبتنى إلى «المصرى» هى نزعتها الليبرالية فقد كانت تفتح صفحاتها لكل أصحاب الرأى والفكر من غير الوفديين، والذين ينتمون الى تيارات سياسية مخالفة للوفد: ماركسيون واشتراكيون وإخوان مسلمين..

كل هؤلاء كانوا يتنفسون فى «المصرى» ويجدون لهم موقعا على صفحاتها ، لم تكن نشرة حزبية كالنشرات التى تصدرها الأحزاب الأيدولوجية، وإنما جريده لها صفة العموم والاستقلال يقرأها الوفدى وغير الوفدى، وفى بعض الأحيان كانت تتمرد على توجهات الحزب إذا وجدت فيها تناقضا مع مبادىء الديمقراطية، وسأضرب على ذلك مثلا عاصرته بعد أن نضجت سياسيا، وأدركت أن الديمقراطية ممارسة عملية لا يمكن المساومة عليها.

فعندما جاءت حكومة الوفد الى الحكم فى يناير ١٩٥٠: كانت سمعة العائلة الملكية فى الحضيض. كان الملك فاروق قد غرق الى شوشته فى الفساد. وصارت مباذله على كل لسان، ثم زاد الطين بلة تصرفات أمه الملكة نازلى التى هاجرت مع ابنتيها فايقة وفتحية إلى الولايات المتحدة، وقيل أن الأم ارتدت عن الإسلام واعتنقت الكاثوليكية، أما ابنتها فتحية فقدتزوجت من مسيحى اسمه رياض غالى، وثار الرأى العام فى كل أنحاد مصر، واهتز عرش فاروق. وبدلا من أن تعمل الحكومة على كبح هذا الانحلال الملكى، لجأت

إلى أسلوب المداهنة، وعملت على استصدار تشريع يقضى بتقييد حرية الصحافة، ومنع نشر أخبار القصر الملكى، وكلفت عضوا وفديا فى مجلس النواب - اسمه إسطفان باسيلى المحامى - بتقديم مشروع القانون إلى المجلس معتمدة على أغلبيتها فى المجلس.

وهبت الصحافة الوطنية لمقاومة المشروع الذى يحفر للصحافة قبرا، ويمنعها من كشف فساد الملك وأسرته، وكان على رأس هذه الكتيبة الجسور: أحمد أبو الفتح رئيس تحرير «المصرى» فشن حملة شعواء على المشروع وصاحبه. وفتح صفحات جريدته للكتاب الأحرار من كل الاتجاهات غير عابئ بانتمائه الحزبى، وأنه عضو فى مجلس النواب، وكانت معركه شرسة دارت وقائعها على صفحات «المصرى» ولم يحفل هؤلاء الكتاب الشجعان بسطوة الملك، وتراجعت الحكومة أمام صلابة أنصار حرية الصحافة بقيادة أحمد أبو الفتح، وسحبت الحكومة مشروع القانون حيث أدركت أن مصيره الخذلان فى المجلس.

هذا مثل واحد لمواقف مشابهة انحازت فيها جريدة المصرى الى خندق الحرية والديمقراطية، غير مكترثة بما يصيبها من تضييق وعسف من جانب أنصار الطغيان والاستبداد. ولسوف يبرز هذا الدور فى صدام «المصرى» مع التيار الدكتاتورى الذى سيطر على ثورة يوليه ١٩٥٢ أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ إذ وقف أحمد أبو الفتح على الضفة المناوئة لحكم الفرد. ودفع الثمن غاليا وهو خنق صوت «المصرى» الى الأبد.. فلفظت آخر أنفاسها فى ٣ مايو ١٩٥٤ بقرار

من مجلس الثورة، وباختفاء «المصرى» انطفأ آخر شعاع من أشعة الصحافة الحرة التى عرفتها مصر بعد ثورة ١٩١٩ وبعد أن عاشت ثمانية عشر عاما نموذجا للصحافة العصرية ذات المضمون السياسى المستنير.

صدر العدد الأول من جريدة المصرى فى ١١ اكتوبر ١٩٣٦ عن طريق شركة متواضعة من ثلاثة صحفيين من تيارات سياسية متباينة. دفع كل منهم ألف جنيه فقط وفى نيتهم إصدار صحيفة يومية ذات طابع عصرى يختلف عن الصحف التقليدية. وأول الثلاثة: محمد التابعى رائد الأسلوب الصحفى الحديث، وصاحب التجربة الخصبة فى روز اليوسف وآخر ساعة، وثانيهم: كريم ثابت وهو لبنانى متمصر وأبوه خليل ثابت أحد أقطاب جريدة «المقطم» الناطقة باسم الاحتلال البريطانى، أما ثالثهم فهو محمود أبو الفتح: الوفدى العريق، والمحرر الأول فى «الأهرام» ولم تكن الأحزاب فى ذلك الوقت تملك صحفا.. وتعهد بهذه المهمة الى بعض أنصارها من ذوى الامكانات المالية، فيصدرون صحفا تتبنى سياسة الحزب وتروج له بين الجماهير، وأعلنت المصرى فى عددها الأول أنها لسان حال حزب الوفد المصرى، وكان من الصعب على التركيبة المالكة للجريدة أن تتواءم مع هذا التوجه الحزبى، فثارت الخلافات بين الشركاء الثلاثة، وكان أول الخارجين التابعى فباع حصته للحزب. ولم يلبث الوفد أن باع نصيبه الى محمود أبو الفتح مقابل خمسة آلاف جنيه، وتلاه كريم ثابت، فاستقل محمود أبو الفتح بملكية الجريدة.

كان محمود أبو الفتح، إلى جانب كونه صحفيا لامعا ومرموقا، يتمتع بعقلية اقتصادية ، فجعل من «المصرى» مشروعا تجاريا ناجحا حقق له مكاسب جمة، خاصة بعد أن زاد توزيعها، وقفزت إلى الصفوف الأولى، وزادت حصيلتها من الإعلانات، فجلب لها المطابع الحديثة، واتخذ لها موقعا فخما فى شارع قصر العينى، وأقام جهازا إداريا ينقسم إلى إدارات متخصصة فى الإعلانات والتوزيع والطباعة والتحرير، وإلى عام ١٩٤٦ كان محمود أبو الفتح هو الشخصية المهيمنة على المشروع يعاونه إخوته الثلاثة: محمد وحسين وأحمد، وبعدها تفرغ محمود لمشروعاته التجارية فى مصر والخارج، وبعد وفاة محمد آلت إدارة الصحيفة إلى الأخوين حسين وأحمد، ولما كان الأول يميل إلى الإدارة اكثر من ميله إلى الكتابة والتحرير. فقد تحمل هذه المسئولية «أحمد»، فنهض بها على أكمل وجه ، وحشد لجريدته طرازا جديدا من الكتاب مثل عبدالرحمن الشرقاوى، وعبدالرحمن الخميسى، ويوسف إدريس، ومحمود عبدالمنعم مراد، ولطفى الخولى وغيرهم.

حكومة صدقى باشا

بدأت أنتبه إلى دور صحيفة «المصرى» فى تنمية الوعى العام المناهض للدكتاتورية، والمؤيد للديمقراطية منذ عام ١٩٤٦ عندما عهد الملك فاروق إلى إسماعيل صدقى باشا بتأليف الوزارة فى مصر، وهو رجل بغيض إلى الشعب بسبب مواقفه المعادية للديمقراطية، ومشاركته فى تدبير الانقلابات الدستورية، وتحقيره للحركة الشعبية، فقد كان يعتبر الشعب قاصرا يحتاج إلى وصاية، ويرى فى نفسه الوصى القادر على أن يسوق الشعب بالعصا، وهو أول من ابتكر تزوير الانتخابات العامة عندما كان وزيرا للداخلية فى حكومة زيوار باشا عام ١٩٢٤، وعندما تولى رئاسة الوزارة فى عام ١٩٣٠ ألغى الدستور، واصطنع دستورا استبداديا يسحب السلطات من الشعب، ويضعها فى كفة الملك فؤاد، واستخدم أبشع وسائل القمع ضد معارضيه ولم يتورع عن تدبير محاولة لاغتيال النحاس باشا أثناء زيارته للمنصورة.

من أجل هذا قُوبلت وزارة صدقى فى فبراير ١٩٤٦ بغضبة شعبية عارمة، نظرا لسجله الحافل فى خنق الحريات العامة، خاصة وقد ارتفع المد الشعبى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية للمطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر، فضلا عن التهاب الصراع الطبقى بتأثير التيارات اليسارية، وصدق حدس الشعب. واقترن مجىء صدقى إلى الحكم بتعاظم نفوذ القصر الملكى على حساب الدستور الذى يحدد سلطات الملك ويحول دون تدخله فى أعمال السلطة التنفيذية المخولة للحكومة، واستهان الملك فاروق بالوزارة، وأذعن صدقى لطغيان فاروق، فلم يعترض على تعيين رجل القصر المدلل - كريم ثابت - مستشارًا صحفيًا بمرتب من المصروفات السرية، وبدأت سلسلة التنازلات، مما أدى إلى تفاقم الغليان الشعبى، وخرجت المظاهرات تهتف. لأول مرة، بسقوط فاروق، وانتشرت الاضطرابات بين طوائف العمال والمعلمين والمهندسين وطلبة الجامعات والمدارس الثانوية، فتصدى لها صدقى بالحديد والنار، وأصدر سلسلة من القوانين المقيدة للحريات، وبمقتضاها أغلق العديد من الصحف، وألقى القبض على كبار الكتاب والصحفيين مثل الدكتور محمد مندور ومحمد زكى عبدالقادر وسلامة موسى وغيرهم حتى غصت بهم السجون.

هنا برز دور صحيفة «المصرى» كمنبر من منابر الحرية التى تناصر العدل، وتقف فى وجه الظلم والاستبداد، ولقد تفتحت عينى على مقالات أحمد أبوالفتوح الذى تولى رئاسة تحرير «المصرى» فى هذا العام. وجعل منها ملاذا لأصحاب الفكر الحر، وتحرر من

القيد الحزبى لينفتح على الرأى العام، ويحتضن آماله وآلامه، وعندما تفجرت قضايا الصراع الاجتماعى كانت «المصرى» تنشر أخبار الاضطرابات وما ينتج عنها من مواجهات دامية.. دون أن تنزلق إلى الحض على الإتلاف والتخريب، مثلما كانت تفعل الصحف اليسارية، وكانت «المصرى» تدعو إلى مناقشة جذور المشاكل الاجتماعية.. لا آثارها السطحية، وتفند الاتهام التقليدى الذى كانت تشهره الحكومة فى وجه الاحتجاجات الشعبية وتصفها بالشيوعية. وترى أنه من الأجدى البحث فى مسببات الظلم الذى يدفع الجماهير الغفيرة إلى السخط. وقال أحد كتاب الصحيفة: «هذه هى المرة الأولى التى يضرب فيها الموظف المصرى للمطالبة بالإنصاف وهذه هى المرة الأولى التى يلجأ فيها إلى العنف للحصول على حقه».

وتفنيدًا للقوانين التى أصدرها صدقى لمحاربة الشيوعية، كتبت «المصرى»: مما لاريب فيه أن أصحاب رؤوس الأموال فى مصر، وهم خارج نطاق الزراعة أجانب، وأما جمهور المصريين فهم إجراء.. ولم يدر بالأذهان يوما أن هذا الجمهور من الاجراء قد بلغ درجة من المعرفة تمكنه من فهم المبادئ الشيوعية، فهى مجهولة جهلاً تامًا، إن أوجه الإصلاح كثيرة، أما أن يضيع الوقت فى المنازعات الحزبية والاضطهادات الشخصية، ووضع تشريعات تسىء إلى البلاد فى الداخل والخارج على السواء فمن شأنه أن يرجع بها إلى الوراء.

وشغلت القضايا العربية اهتمامات صحيفة «المصرى» وعلى رأسها قضية فلسطين، فكانت توالى قراءها بتطورات هذه القضية بشكل أوسع مما كانت تفعل الصحف الأخرى، واعترض أحمد أبوالفتح على عزم الدول العربية إرسال وفودها إلى لندن لبحث قضية فلسطين مع إقصاء الطرف الفلسطينى وهو الأساس فيها. وقال: لا تجاملوا.. وتذهبوا دون أن تأخذوا وفدًا يمثل هذا الشعب، ولا يمكن أن يقال أنكم أحرص على مصلحة فلسطين من شعبها وزعمائها.

وفى دراسة للدكتورة سهير إسكندر حول «الصحافة المصرية والقضايا الوطنية» وهى فى الأصل رسالتها للدكتوراه قارنت بين مواقف ثلاث صحف كانت تتصدر الساحة الصحفية المصرية فى تلك الفترة، وهى «الأهرام والمصرى وأخبار اليوم» فتقول بشأن المفاوضات التى أجراها صدقى مع بيفن وزير خارجية بريطانيا حول الاستقلال: أيدت «الأهرام» الدعوة إلى جمع الصفوف خلف المفاوض المصرى، وناهضت القوانين المقيدة للحريات تحت دعوى مكافحة الشيوعية، أما «المصرى» فقد بادرت بعداء الوزارة التزاما بموقف حزب الوفد. وإن كانت ألزمت نفسها بتأييد المفاوض المصرى مما جعل إسماعيل صدقى يخصها بالتحية، ولكنها عمدت إلى إحراجه فى أى عمل يقوم به يخالف الخط الوطنى والدستورى سواء كان من الناحية الوطنية أو إزاء حملته ضد الشيوعية. أما «أخبار اليوم» فقد تعاطفت مع صدقى وحملت على الحزبية، ووصفت حزب الوفد بالتعنت، وأيدت صدقى فى حملته ضد

الشيوعيين، وبالنسبة للقضية الوطنية اتخذت «الأهرام» موقف الإدانة للدفاع المشترك «الأحلاف» وناقشت مشروع المعاهدة وأوضحت جوانب النقص فيها، وكان أميل إلى إظهار الأثر السلبى لدور الاتحاد السوفيتى، أما «المصرى» فقد وقفت ضد أى نوع من أنواع التحالف والدفاع المشترك، وظلت حريصة على استمالة المعسكر الشرقى، وأما «أخبار اليوم» فركزت هجومها على استفزازات الإنجليز فى مظاهرات الجلاء، واتخذت موقفًا سلبيًا من معاهدة صدقى ـ بيفن، وإن كان مصطفى أمين أيدها فى مقال له بمجلة، «آخر ساعة» تحت عنوان: «أوقعها.. وألعنها».

وبالنسبة للموقف من الملك فاروق فقد كان موقف «الأهرام والمصرى» تقليديا من حيث الاحتفاء به فى المناسبات، وكانت «أخبار اليوم» أكثر احتفاء ومديحا للملك، أما بالنسبة للقضايا الاجتماعية فقد كان للأهرام أسلوبها الخاص فى عرض وجهات النظر المختلفة بين أطراف الصراع الطبقى، أما المصرى فاهتمت أخباريا بكل أنواع الاضراب وتناولت المشاكل الاقتصادية بشكل تفصيلى منظم، أما أخبار اليوم فانفردت بموقف محدد مع قانون الشركات الذى يحد من استخدام الشخصيات العامة فى إدارتها، وبالنسبة للقضايا العربية فقد احتلت القضية الفلسطينية اهتماما كبيرا من الصحف الثلاث كل بطريقتها، فكان اهتمام المصرى يشمل كل القضايا العربية وقضايا التحرر فى العالم العربى والتركيز على الدور الأمريكى فى فلسطين أما «أخبار اليوم» فقد غلب الطابع الصحفى على اهتمامها بالمشاكل العربية وكانت تصدر طبعة خاصة للدول العربية.

فارس السينما

انتـقل إلى جـوار ربه الـفنان أحـمـد مظهـر الذى اكـتـسب وصـف فارس السـينمـا العـربيـة، وهـو ليس وصـفا مـجازيا، ولكنه حقـيقـى لأن مظهـر كان ضـابطا فـى سـلاح الفرسـان قبل أن يحتـرف الفن ، وظل نشاطه بـارزا فـى نادى الفروسـيـة أما تحـوله إلى السينمـا فقـد حدث عـام ١٩٥١ عندمـا رأيناه لأول مـرة فى فـيلم «ظهـور الإسـلام» الذى أخـرجـه إبراهيم عـز الدين عن قـصـة «الوعـد الحق» للدكـتـور طه حسين، وتروى جهاد الرعيل الأول من المسلمين فى مكة، وصمودهم النبيل أمام أعمال التعذيب التى كان يقوم بها كفار قريش، وفـى هذا الفيلم رأينا وجوهـا جـديدة صـار لهـا شـأن فـيمـا بعـد، مـثل: توفـيق الدقن وكمـال يسن وأحـمـد مظـهـر الذى قام بدور «أبى جهل» وكـان أدؤاه ملفتا للنظر، فقد كـان بارد الأعصـاب خاليا من نـزعة التشنج واللهـجـة الخطـابيـة، ربما لأن مظهـر لم يدخل السـينمـا من باب المسرح فلم يتأثر بالطريقة المسرحية.

وبعد ذلك رأينا مظهر فى دور البرنس علاء المناهض للثورة، فى قصة يوسف السباعى، «رد قلبى» وبعدها توالت عليه أدوار البطولة فى عدد من الأفلام الممتازة التى تعتبر من علامات السينما المصرية. مثل فيلم «دعاء الكروان» عن قصة الدكتور طه حسين، وقام بدور «الباشمهندس» الذى لم نعرف له أسما طوال الفيلم، أمام سيدة الشاشة العربية فاتن حمامة، وكان أدؤهما أشبه بمبارزة بين عملاقين ،وارتبط اسم أحمد مظهر بالقصص التى كتبها كبار الكتاب مثل الأيدى الناعمة لتوفيق حكيم، وعدد من قصص أحسان عبدالقدوس. الطريق المسدود والنظارة السوداء وامبراطورية ميم، «واسلاماه» لعلى آحمد باكثير وقصه فى سبيل الحرية التى كتبها جمال عبدالناصر عندما كان طالبا فى المرحلة الثانوية، أما أخلد ادواره التاريخية فهو دور الناصر صلاح الدين، وقصة جهاده ضد الصليبيين حتى استعاد القدس، ودحرهم فى حطين، وكانت الفروسية هى أبرز المواصفات التى رشحت مظهر للقيام بهذا الدور. وحفل سجل أحمد مظهر بحوالى مائة واربعين فيلما ما بين تاريخى ومعاصر إلى أن طعن فى السن فلزم داره يجتر ذكرياته وأمجاده إلى أن رحل عن خمسة وثمانين عاما.

فى بداية حياتى الصحفية بجريدة «الأخبار» التقيت بالفنان أحمد مظهر ولهذا اللقاء قصة بدأت عندما كنت أقوم بتحقيق صحفى فى الكلية الحربية بمصر الجديدة، ومديرها يومئذ اللواء محمد فوزى الذى صار وزيرا للحربية بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ وأثناء وجودى فى مكتبه: وجدت صورة معلقة لدفعة الكلية عام

١٩٣٨، وفى الصف الأول للخريجين يجلس جمال عبدالناصر وأنور السادات، وفى الصفوف الأخرى يقف العديد من الضباط الشبان الذين صاروا نجوما: وزراء وسفراء ورؤساء مؤسسات ومحافظين مثل زكريا محى الدين وعبداللطيف البغدادى، وعز الدين ذو الفقار الذى صار مخرجا سينمائيا. وهو الذى أخرج فيلم «رد قلبى».. ولكنى توقفت طويلا أمام الضابط الشاب الذى يجلس بجوار جمال عبدالناصر، لأن ملامحه كانت تنطبق على الفنان أحمد مظهر، وعندما سألت اللواء فوزى أكد لى أنه فعلا الممثل أحمد مظهر وقد تخرج فى هذه الدفعة، وعمل فى الجيش لمدة سنتين ثم نقل إلى سلاح الفرسان (السوارى) الى أن تقاعد عن الخدمة العسكرية وهو برتبه العقيد ليتفرغ للسينما، واستأذنت اللواء فوزى فى نقل الصور (فوتوغرافيا) لتكون موضوعا صحفيا عن هذه الدفعة الغريبة بعد أن تفرق أفرادها إلى مجالات متناقضة ، فوافق.

فى اليوم التالى: عدت الى الكلية ومعى الزميل المصور المرحوم محمد رشوان الذى لقى مصرعه فى حادث المنصة مع الرئيس السادات، فقام بالتقاط عدة صور نقلا عن الصورة الأصلية، وبعدها اتصلت بالفنان أحمد مظهر وطلبت مقابلته، فحدد لى موعدا فى شقته الانيقة بشارع البطل احمد عبدالعزيز بحى المهندسين، وذهبت إليه ومعى الصديق الصحفى الاستاذ: حامد زيدان، واستقبلنا الرجل بترحاب شديد، وعندما أطلعته على الصورة بدت عليه الدهشة الممزوجة بالفرح، لأنه لم يكن يقتنى نسخة منها، وكاد يطير من السعادة، وطلبت منه أن يدلنى على

أسماء زملائه فى الدفعة ومصير كل منهم، بعد مرور ربع قرن على تخرجهم.

وانفتحت شهية أحمد مظهر للحديث، وزيادة فى التبسط: وضع الصورة على السجادة المفروشة على أرض غرفة الصالون، وانبطحنا نحن الثلاثة حول الصورة. وهو يشير الى من يتذكرهم: هذا الوزير فلان . . وهذا السفير علان.. وهذا المحافظ.. إلى أن جاء على ذكر جمال عبدالناصر فقال: لقد كنا صديقين حميمين خلال فترة دراستنا فى الكلية الحربية، وكانت شخصية جمال تجمع بين نقيضين: الجدية والمرح.. كان جادا الى حد التزمت فى المواقف التى تستلزم الجدية، وكان مرحا غاية المرح عندما نتحرر من قيود العسكرية، ونخرج فى الأجازة الأسبوعية لنتردد على دور السينما والمسرح، وكان يحرص على زيارة بيت عمه الحاج خليل حسين بالخرنفش، ويجلس إلى زوجة عمه ويعتبرها بمثابة أمه، لأنه فقد أمه وهو طفل فقامت هذه السيدة مقام أمه، وهى التى خطبت له السيدة تحية كاظم، واستطرد مظهر: وظلت علاقتى قويه بجمال عبدالناصر حتى بعد أن فرقت بيننا الخدمة فى الجيش، إلى أن فوجئت به على رأس الثورة ليلة ٢٣ يولية قلت له: معنى ذلك أنك لم تكن عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار؟

قال على الفور: لا.. لم يسعدنى الحظ بالانضمام الى هذا التنظيم.. ثم أردف: ربما لأن السينما شغلتنى منذ فيلم (ظهور الإسلام) وأخذت كل وقتى .. إلى جانب نشاطى فى نادى

الفروسية الذى كان يضم - الى جانب نادى الجزيرة - الطبقة الإرستقراطية، وكانت محل امتعاض من جانب قادة الثورة.. ولكن كان عبدالناصر يبارك نشاطى الفنى وقد أنعم على بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى تقدير الدورى فى فيلم الناصر صلاح الدين.

كان هذا ملخص اللقاء الذى جرى بينى وبين الفنان أحمد مظهر وقد نشرت الصورة واللقاء فى مجلة «آخر ساعة» فى غضون عام ١٩٦٤ على ما أذكر - وأشرت الى المواقع التى يشغلها خريجى هذه الدفعة.

وقبل أن اختم هذه الذكريات، لابد أن أشير الى واقعة إضافية، فقبل سنوات قليلة شاهدت على شاشة التلفزيون مقابلة مع الفنان الراحل أحمد مظهر ، وتطرق الحديث الى علاقته بتنظيم الضباط الأحرار.. ففوجئت به يؤكد أنه كان عضوا فى هذا التنظيم(!!) ولم أملك سوى أن ابتسم. وأستعيد نص الحوار الذى دار بيننا قبل ثلاثين عاما، وقلت فى نفسى: لعل التقدم فى السن وضعف الذاكرة جعله ينسى هذه الأحداث.

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له العطاء بقدر ما أسعد الملايين.

عناء صبيانى!

كان العمل فى إحدى الصحف الكبرى، يشغل تفكيرى منذ التحاقى بقسم الصحافة بكلية آداب القاهرة، وكانت أمنيتى المفضلة أن أعمل فى مجلة «روز اليوسف» لعدة أسباب منها: أننى كنت أدوام على قراءة هذه المجلة الرصينة ذات الاتجاهات السياسية والثقافية، وشجاعتها فى الدفاع عن الحريات والديمقراطية، وكان اسم رئيس تحريرها - إحسان عبدالقدوس - قد اكتسب شهرة كبيرة منذ فجر قضية الأسلحة الفاسدة. قبل الثورة، ثم معارضته للمنحى الدكتاتورى الذى جنحت إليه الثورة بعد أزمة مارس ١٩٥٤، ولا زلت اذكر مقاله الجسور عن (الجمعية السرية التى تحكم مصر) ويقصد مجلس قيادة الثورة، ودفع احسان ثمن هذه الجرأة: بضعة أسابيع قضاها معتقلا فى السجن الحربى.

وكان اعجابى بإحسان عبدالقدوس يرجع أيضا إلى قصصه العاطفية التى جمعها فى كتابين: إحدهما (بائع الحب) والثانى

(صانع الحب) كما كان يحرر بابا ثابتا فى مجلة «الاثنين) التى كانت تصدر عن دار الهلال تحت عنوان (إثنين.. إثنين) ويوقعه باسم (.. سان) وكانت مجلة روز اليوسف مدرسة للوعى السياسى، ومنبرا لكبار رجال الفكر والأدب والثقافة من أمثال: أحمد بهاء الدين، وخالد محمد خالد، ومحمود أمين العالم، وعبدالرحمن الشرقاوى وسامى داود، وعميد الأمام وصلاح عبدالصبور، وكان طالب الطب صلاح حافظ يكتب زاوية متميزة تحت عنوان (انتصار الحياة) يخلط فيها السياسة بالعلم، ويفسر الصراع الاجتماعى بنفس قوانين الصراع البيولوجى بين الكرات الحمراء والكرات البيضاء.

فى يناير ١٩٥٦ أصدرت دار روز اليوسف «صباح الخير» وعهدت برئاسة تحريرها إلى أحمد بهاء الدين، ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره، مما شجع شباب الصحفيين على الاقتداء به، وكنت من أشد المعجبين برشاقة أسلوب بهاء، وثقافته العالية، وصار بالنسبة لى نموذجا أهتدى به، وأتمنى العمل معه، فأخذت أتردد على مبنى الدار القديم على أمل مقابلة بهاء ومرت الأيام، وتكرر الذهاب ولم يتحقق الأمل، فعقدت العزم على الذهاب الى بيته فى شارع هارون بالدقى ، واستقبلنى مرحبا ومندهشا فى نفس الوقت لذهابى إليه دون موعد سابق، ولما شرحت له مشكلتى طلب منى مقابلته فى مكتبه بالمجلة.

وعدت للتردد على ركن الاستعلامات المتواضع بالدار، وكنت ألمح كبار الكتاب والرسامين: مصطفى محمود وأحمد عبدالمعطى حجازى وعبدالستار الطويلة وصلاح جاهين وزهرى ورجائى وحجازى. وأتمنى أن أكون معهم مشاركا فى عملهم الجميل، ويبدو أن وجودى المنتظم لفت نظر الآنسة نيرمين القويسنى سكرتيرة. وكانت فى غاية الرقة والذوق، وسألتنى عن سبب تواجدى فأوضحت لها أن ما أطلبه هو: فرصة التدريب فى روز اليوسف.

فاستمهلتنى، وعادت بعد فترة، وقادتنى الى مكتب الشاعر صلاح عبدالصبور، وبعد أن استمع الى مطلبى، استدعى أحد المحررين وقدمنى إليه، وطلب منه أن يصحبنى إلى مكتبه لأعمل معه.

وتصورت أن الحظ قد ابتسم لى، وأننى وضعت قدمى على الطريق الصحيح، وكان المحرر المذكور يقوم باعداد التحقيقات الصحفية، فأخذ يكلفنى باستطلاع آراء الخبراء لخدمة التحقيق الصحفى فأتجول بين الجامعات والنقابات وأعود إليه محملا برصيد جيد فينشر التحقيق موقعا باسمه، ولا يشير مطلقا إلى الجهد الذى قمت به، وسكت عن هذا التصرف على مضض، وعلى أمل أن يعود الحق إلى صاحبه، ولكن المحرر تمادى فى أنانيته، فصارحته بما فى نفسى، فأظهر لى نواياه الحسنة، وعزمه على الاقلاع عن هذا التجاهل، فلم يتغير الموقف، وأدركت أنه يخدعنى مستغلا صمتى، وأنه من ذلك النوع الذى لا يتورع عن بناء مجده

الصحفى على حساب المستضعفين من أمثالى فقررت الامتناع عن الذهاب إلى روز اليوسف، وذاب أملى فى الارتباط بهذه المجلة العريقة.

وانطويت على نفسى فترة من الزمن، وانتابتنى حالة اليأس. وكان يحز نفسى أن ألقى هذه المعاملة المجحفة من الدار التى أحبها وأتمنى أن أصبح أحد نجومها، وشعرت أننى أحرث أرضا صلبة شديدة المراس مما يقتضينى الصبر والاحتمال. وأنه لا ينبغى أن أركن إلى اليأس والقنوط من أول تجربة فاشلة، وأن العمل فى هذه المهنة - ذات القمة المدببة - يتطلب التضحية والصمود إلى أن تواتينى الفرصة فبدأت على الفور فى إصدار مجلة «صوت الجامعة» من داخل قسم الصحافة بالكلية. ودب الحماس فى بعض زملائى حتى صارت المجلة واقعًا تعلمنا منها الكثير من فنون الصحافة، وصارت المجلة هى جواز مرورى الى «أخبار اليوم» بعد أن جاء مصطفى أمين للتدريس فى القسم، وطلب منى الالتحاق بالأخبار، ووجدت منه التعويض عن الفشل، وانفتح أمامى باب العمل فى مدرسة أخبار اليوم.

نسيت أن أذكر إننى - عندما جئت من بلدتنا إلى القاهرة - كنت أحمل خطابا من أحد أخوالى موجها إلى إحسان عبدالقدوس، وتجمعنا به صلة مصاهرة يوصيه برعايتى وتحقيق رغبتى فى العمل بروز اليوسف.

ولكننى أحجمت عن تقديم الخطاب إلى إحسان، لإيمانى بأن العمل فى الصحافة لا ينبّغى أن يقوم على الوساطة الشخصية، وإنما على الجهد والمثابرة والموهبة،.. وظل الخطاب فى حوزتى سنينا طويلة، وكلما عدت إلى قراءته كنت أسأل نفسى: هل كنت محقا فى امتناعى عن الاعتماد على الواسطة؟ أم أننى كنت مخطأ فى هذا العناد الصبيانى؟؟

فاطمة اليوسف

ذكرت أننى كنت اسعى ـ فى مقتبل حياتى الصحفية ـ إلى العمل فى مجلة «روز اليوسف» لألحق بركب مشاهير الكتاب الذين برزت اسماؤهم على صفحاتها ولأنها المجلة التى كانت تعنى بنشر الآراء والأفكار التى استحوذت على اهتمامى وأراها اقرب إلى ميولى، وكنت أواظب على قراءاتها طوال السنوات العشر السابقة على التحاقى بقسم الصحافة فى جامعة القاهرة. كذلك كنت أحرص على قراءة مجلة «صباح الخير» منذ صدورها فى يناير 1956. وترأس تحريرها الكاتب الشاب أحمد بهاء الدين قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره.

واخذت اتردد على مقر «روز اليوسف» فى مبناها المتهالك يومئذ ـ بأحد الشوارع المتفرعة من شارع قصر العينى وطال جلوسى فى «كشك» الاستعلامات فى انتظار الفرصة التى تحقق امنيتى واثناء جلوسى كنت المح صاحبة الدار ـ السيدة فاطمة

اليوسف ـ وهى تتنقل بين مكاتب المجلة تتفقد سير العمل، وكانت تميل إلى البدانه ـ وتتميز بوجه ملائكى تعلوه هالة من الشعر الفضى. فتضفى عليها مسحة من الوقار والسكينة فالاحقها بنظرات الاكبار لما كنت أعرفه عن تاريخها وكفاحها وصمودها أمام قوى الطغيان. وسيرة حياتها التى تبلغ حد الاساطير وقد روتها فى صراحة مدهشة فى كتاب صدر عن سلسة الكتاب الذهبى ولا شك أن هذه الصفات جعلتنى أسعى إلى العمل فى كنفها، وكنت بمقتضى اعجابى بالبطولات اضع اصحابها فى مكانة عالية اتمثلها واحتذيها.

لقد وصفها استاذنا الدكتور إبراهيم عبده ـ مؤرخ الصحافة المعروف ـ بأنها اول صحفية عز شراء ضميرها وانها تصدت لكفاح الظلم والطغيان ووقفت وحدها امام حكام مصر جميعا. وأبت أن تلين بالرغم من تعطيل صحفها وسجن محرريها ومن بينهم ولدها الوحيد: احسان عبدالقدوس كانت عنيدة ولو أدى عنادها إلى السجن والاضطهاد والتشريد.

فكيف وصلت فاطمة اليوسف الى هذا الموقع العالى من مواقع الريادة الصحفية والسياسية فى زمن كان فيه الرجال يتكبدون المشاق والأهوال والتضحيات الجسام؟ وكيف تسنى لها أن تخوض عالم السياسة من باب الفن المسرحى؟ بل كيف صنعت هذا المجد وهى التى خرجت من قاع الحياة فتاة وحيدة شريدة القت بها عواصف الزمن إلى ميناء الإسكندرية وهى دون الرابعة عشرة ـ بلا أهل ولا أسرة ولا سند.. ولا معين!!»

ولدت فاطمة فى مدينة طرابلس بلبنان من أب مقدسى الأصل يعمل فى التجارة وأم أسمها جميلة ماتت عقب ولادتها وتربت فى احضان مربية أسمها خديجة كانت مربيه أمها وظلت على وفاء للوليدة وكان الأب دائم الترحال بين المدن والاقطار ليرعى تجارته وترك ابنته ومربيتها وديعة لدى اسرة مسيحية فى طرابلس ويتردد عليها كلما سنحت له الفرصة ليرى ابنته ويمنح تلك الأسرة نفقات كفالتها إلى أن انقطعت اخباره نهائيا، ولقى حتفه فى إحدى سفرياته دون أن يترك اثرا يدل عليه يحفظ لوريثته حقوقها وبالطبع انقطع المورد المالى الذى كنت تتقاضاه الأسرة، فتغيرت معاملتهم للفتاة وغيروا اسمها من فاطمة إلى روز ليتمشى مع وجودها فى أسرة مسيحية واسرفوا فى اضطهادها حتى أنهم كانوا يضربونها بالكرباج لأتفه الأسباب وعجز عقل الفتاة الصغيرة عن تفسير هذه القسوة التى لا يمكن أن تصدر عن ابوين.

وحدث التحول الدرامى فى حياة الصبية «روز» عندما جاء رجل لبنانى يزمع الهجرة الى البرازيل وعرض على الأسرة أن يصحب معه الفتاة لتخدمه ورحبت الأسرة بالعرض الذى سيزيل عنهم تبعات تربيتها وفى ليلة السفر اختلت المربية بالفتاة وكاشفتها بالحقيقة التى كانت تجهلها وحكت لها قصة ابويها الحقيقيين وكيف انها مسلمة واسمها «فاطمة» وليست «روز» و.. و.. وتمنت لها حياة اقل تعاسة من حياتها فى طرابلس.. وحملتها السفينة مع الراعى الجديد الى الإسكندرية حيث توقفت لبضع ساعات. وهناك تسللت الفتاة الى المدينة فهالها صخب الحياة. واسرت فى

نفسها امرا وهو عدم العودة إلى السفينة وقررت البقاء فى مصر لتبدأ حياةجديدة وقد اسلمت مصيرها للأقدار ولا أحد يعرف كيف سارت بها الحياة فى الإسكندرية وتلك فترة غامضة من سيرتها الى أن نلتقى بها فى القاهرة حيث عاشت فى كنف اسرة فى حى الفجالة ومن هناك قادتها قدماها إلى «دار التمثيل العربى» لتتفرج على المسرحيات وعلى أبطال هذه الحياة الغريبة التى تجرى أمام عينيها ولم تكن تفهم شيئا مما يجرى على خشبة المسرح، وإنما كانت تبهرها الأضواء الساطعة والمناظر والألوان والملابس التاريخية التى يرتديها الممثلون موشاه بالذهب والفضة.

وبينما كانت تتسلل الى الكواليس لتشهد حركة الممثلين والممثلات ضبطها الممثل الكبير عمر وصفى وكان ضخم الجثة جاحظ العينين، فلما سدد لها نظرات مخيفة انهارت وانهمرت فى البكاء وعندئذ تعطف عليها القدر عندما سمعت كلمات ملؤها الحنان والشفقة صدرت عن رجل طيب القلب اخذها من يدها وجلس بها إلى مقهى قريب. وطيب خاطرها عن طريق «واحد شربات» ولم يكن ذلك الرجل الطيب سوى الرائد المسرحى عزيز عيد الذى ادرك عشقها للمسرح فعقد عزمه على تدريبها وتثقيفها وتكفل هو بتعليمها اللغة الفرنسية وجاء لها بشيخ ليعلمها اللغة العربية. ولكنها بقيت الى آخر حياتها تجهل الكتابة ولا تعرف من حروفها سوى التوقيع باسمها أما مقالاتها فكانت تمليها على أحد تلاميذها ومنهم احمد بهاء الدين وفتحى غانم وتضعهما فى مكانة ابنها احسان.

ولما كـان من النادر ظهـور المرأة المصـرية على المسـرح فى ذلك الوقت. فكانت الفرق المسرحية تستعين بالسيدات المسيحيات السوريات لأداء الأدوار النسائية وانفتح الباب أمام «روز اليوسف» لتأخذ طريقها الى النجومية واحتلت المكانة الأولى بين ممثلات المسرح واشتهرت بدورها الخالد فى مسرحية «غادة الكاميليا» المقتبسة عن الفرنسية واشتركت مع يوسف وهبى فى بطولة مسرحياته بعد أن انشأ فرقة رمسيس وبالرغم من وصولها الى القمة فى عالم الفن المسرحى، فإنها قررت تغيير مجرى حياتها وان تخوض مجالا جديًا هو مجال الصحافة، ولهذا قصة أخرى.

من المسرح إلى المطبعة

فى لحظة من لحظات التحول الفجائى، قررت السيدة فاطمة اليوسف أن تهجر المسرح بأضوائه وشهرته وأن تصم أذنيها عن تصفيق الجمهور، وان تسدل الستار على هذه المرحلة الثرية من حياتها، لتخوض مجالا جديدا خارت دونه عزائم الرجال. فما بالك بامرأة لا تملك من عناصر الصراع سوى العزيمة القوية والإرادة الصلبة. ثم تقتحم بلاط صاحبة الجلالة وتصدر صحيفة تحمل اسمها، وقيل وقتئذ أنها نزوة سرعان ما تشفى منها فتخرج من الحلبة بأقل الجروح ولكن النزوة لم تلبث أن صارت حقيقة ثابتة،

وبقيت روز اليوسف صرحا من صروح الصحافة العربية تخرج فى بلاطها أجيال من الكتاب والمفكرين والصحفيين والساسة والرسامين ولا تزال - إلى ما شاء الله - تواصل دورها بكل اقتدار.

وإذا كنا نعزو نجاح فاطمة اليوسف الى صفاتها الشخصية واهمها العناد والصلابة والتحدى الا ان علينا أن نعزو هذا النجاح

ايضا الى المناخ العام الذى ولدت فيه صحيفتها عام 1925 فهو عصر النهضة السياسية والاقتصادية والثقافية التى شهدتها مصر كأثر من اثار ثورتها الكبرى فى عام 1919 عصر قيام بنك مصر، وصدور الدستور، وبدء الحياة النيابية وانشاء الجامعة الحكومية وازدهار الصحافة والمسرح والإذاعة والطباعة.. عصر الرواد فى الطب والعلوم والأدب والغناء والموسيقى والشعر.. ولو أن فاطمة اليوسف فكرت فى مشروعها الصحفى، قبل ذلك بعشر سنين لما كتب لها النجاح، لأننا لانستطيع الفصل بين الحدث والظروف العامة التى ولد فيها أنه الحبل السرى الذى يمد الجنين بمقومات الغذاء حتى يكبر وينمو .. ويكتب له البقاء.. وبدونه يولد ميتا.

وليس معنى ذلك أن فاطمة اليوسف وضعت وليدها على طبق من فضة، بل العكس هو الصحيح ولم يغفر لها المجتمع المصرى انها «امرأة» مكانها الطبيعى البيت، أما حرفة الصحافة فهى من شأن الرجال ولم تواجهها هذه المشكلة عندما احترفت التمثيل لأن جنسيتها الشامية كانت جواز دخولها المسرح، فقد كان المجتمع المصرى فى ذلك العصر لا يسمح للمرأة المصرية بالظهور على المسرح فكان أصحاب الفرق التمثيلية يسندون الأدوار النسائية إلى غير المصريات ومنهن فاطمة اليوسف وبقيت عقدة المرأة تطاردها عندما إتجهت الى الصحافة.

تروى فى ذكرياتها ان مشكلتها الكبرى لم تكن فى المال القليل، ولا الجهد المضنى ولا سوق الصحافة الضيق بل كانت فى أنها

«سيدة» ليس من حقها ان تدخل ميدان الحياة العامة، ولم يكن المجتمع يعترف بها إلا «جارية» تضع على وجهها الحجاب وفى هذا الجو كان على أن امضى وان اتحمل مسؤولية عمل يحمل اسمى وان اشن الحملات للهجوم المضاد وان أرأس مؤسسة كل من يعمل فيها رجال وان اذهب لمقابلة رجال هم امام الناس وزراء وكبراء ولكنهم فى حقيقتهم ليسوا إلا رجالا لا يعرفون عن النساء إلا أنهن لهو ومتاع.. كانت هذه فى واقع الأمر مشكلة المشاكل، وكان على أن اجتاز تجارب قاسية.. وان اتعلم دروسا كثيرا.

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ . صدر العدد الأول من روز اليوسف مجلة اسبوعية ادبية مصورة. فى ورق اسمر «ستانية» عدد صفحاتها، 16، ومعظم أخبارها ومقالاتها عن المسرح والتمثيل ولم يكن فى ذلك ما يدعو الى الدهشة لأن موضوع الفن والفنانين كان الدافع الأول لإصدار هذه الصحيفة كل تجعل من نفسها خط دفاع ضد الصحافة التى كانت تتعيش من وراء التهجم على الفنانين وتبتزهم بعد أن تخوض فى أعراضهم، وقد لمعت الفكرة فى ذهن فاطمة اليوسف أثناء جلوسها فى محل حلوانى «كساب» بوسط القاهرة وكان معها يومئذ الكاتب المرموق محمود عزمى، والفنان زكى طليمات واثنان من رفاق الفن والأدب هما إبراهيم خليل وأحمد حسن، وألقى إليهم بائع الصحف بمجلة اسمها «الحاوى» تطفح بالأكاذيب والفضائح المختلفة عن أهل الفن، وبعد أن تصفحتها إذا بها تسأل نفسها: لم لا أقوم بإصدار مجلة تنتصف للفنانين من خصومهم؟ وبعد أن أفاقت من تأملها، أخذت تعرض الفكرة على

أصحابها فأخذوها مأخذ الخفة، وطالت بينهم المناقشة حتى سادها بعض الحدة والتعليقات الساخرة.

من بين الحاضرين انفرد إبراهيم خليل بمجاملتها، وتهوين متاعب المشروع عليها، حتى أنه صور لها الأمر سهلا.. وحسب لها تكاليف إصدار ثلاثة آلاف نسخة بحوالى «١٢ جنيها» فقط، ثم بدأت فى طرح فكرة اسم المجلة فإذا بها تقترح أن يكون الاسم هو نفس اسمها الفنى «روزاليوسف»..

«وحين انتهت السهرة انصرف كل منا إلى شأنه، وقد ترك الجميع موضوع المجلة عند عتبة القهوة. ولكن كنت على العكس من ذلك.. فقد دخلت محل الحلوانى فنانة لا أعنى بغير الفن، وخرجت منه وقد خلفت فنى، واستقبلت حياة جديدة، ففى اللحظة التى غادرت فيها المقهى بدأت حياتى الصحفية، وظللت طيلة هذه الليلة وأنا أقلب بين الخيال صفحات مجلتى «روزاليوسف» كما تترقب الأم مولودها القادم، وتتخيل فيه كل الصفحات المحبوبة».

يقول أستاذ تاريخ الصحافة الدكتور إبراهيم عبده: ودخل العدد الأول من «روزاليوسف» فى تاريخ الصحافة المصرية يحمل فى صدره افتتاحية كتبتها صاحبة ومديرة المجلة تبين ماهيتها والغرض منها.. وقالت فيها: «أخيرًا تحققت الأمنية، وها هى ذى صحيفتى تسعى إلى ابناء مصر الأعزاء، ابناء مصر الناهضة المجيدة العزيزة لدى، ولدى كل من تذوق قطرة من نيلها، أمنية وأزيد أنها أمنية مثارها حب العمل بجديد نافع.. لقد عجبوا إذ سميت صحيفتى باسمى، وقالوا نزعة إلى الشهرة!! أية شهرة؟

إن الكاتب عندما يعتزم إصدار صحيفة لا يلبث أن تكون لأقوى نزعة فى نفسه كل الأثر فى تسميتها وقد تكون التسمية ظاهرة كاذبة لنفسية مقنعة، فترى بين اسم الصحيفة وما تحتويه هاوية سحيقة، وقد ذكرت كل هذا وتأملت، ثم امعنت النظر فى نفسى فإذا بى نهب لنزعات عنيفة، كلها تصيح وتصخب وإذا بى أذكر البسمة التى تلعب بالشفاه، والقلب فيه مناحة ثائرة.. لم كل هذه الحيرة؟ ولم كل هذه النزاع؟ ألست أنا صاحبه كل هذه النزعات المتنافرة؟ إذا لم لا يكون اسمى عنوان صحيفتى؟ وقد فعلت وهكذا تمت الأعجوبه!

ولا يزال الحديث عن هذه السيدة الأعجوبة متصلاً.

أسياد عواطفهم

تأسست مجلة «روز اليوسف» لتعنى بشؤون الفن خاصة المسرح لأنه النشاط الوحيد الذى كان قائمًا يومئذ ولم تكن السينما ولدت بعد وكانت الى جانب ذلك تهتم بالأدب والنقد ولم يخطر على بال أحد أن تخوض المجلة معترك السياسة الوعر الذى اعيا أشد الرجال فما الذى أحدث هذا التحول الخطير فى مسار روز اليوسف فتجلب على نفسها المتاعب والأذى؟

فى تصورى أن هذا التحول كان صدى للظروف السياسية التى سادت مصر فى المرحلة التى ولدت فيها مجلة روز اليوسف فى مستهل الربع الثانى من القرن العشرين وهى المرحلة التى شهدت أول انقلاب دستورى على الحياة البرلمانية التى لم تنعم بها مصر سوى عشرة شهور فقط بدأت مع أول انتخابات حرة ونزيهة فى يناير ١٩٢٤ وتشكيل أول حكومة شعبية برئاسة سعد زغلول إلى أن استغل الملك فؤاد والمندوب السامى البريطانى «اللنبى» حادث

اغتيال السردار فأطاحوا بحكومة سعد وحلوا البرلمان وجاءوا بأحمد زيوار باشا على رأس حكومة تأتمر بأمر الملك وتعبث بالحياة النيابية إلى درجة أن الملك اقدم على حل مجلس النواب الجديد بعد تسع ساعات فقط من تشكيلة عندما توسم أن المجلس الجديد ينطوى على أغلبية مؤيدة لسعد زغلول.

وبعدها توالت الانقلابات على الدستور وجاءت حكومات مهمتها كبت الحريات العامة، وتقييد حرية الصحافة ومطاردة الأحرار الذين رفضوا الاستسلام لسلطة الملك ومن ورائه الانجليز وفى هذا المناخ الملبد بالصراع بين أنصار الديمقراطية وخصومها ولدت روز اليوسف لتقف فى خندق الحرية، وتتحدى السلطات القمعية وتدافع عن الإرادة الشعبية وتتحول من مجلة فنية تتبنى قضايا المسرح إلى مجلة سياسية تستخدم كل فنون الصحافة الحديثة من رسوم وصور وكاريكاتير وتعليقات لاذعة للسخرية من حكام ذلك الزمان وعلى رأسهم الملك فؤاد والمندوب السامى ومن يقف وراءهما من رجال الأحزاب المصطنعة.

دخلت روز اليوسف باختيارها وإرادتها حقل الألغام الذى لا يجرؤ على اقتحامه غير أولى العزم من الرجال الذين صارت السجون والمعتقلات مثواهم، كانت تتعرض لدكتاتورية الملك بأسلوب التلميح الذى يغنى عن التصريح ولكن عيون السلطة كانت قادرة على فك هذه الألغاز وترجمتها الى المعنى المقصود فهى تكتب عن ملوك أوروبا تحت ستار الظلام ولكن أجهزة السلطة تفهمها على

ضوء المثل الشهير إياك أعنى واسمعى يا جارة والجارة هو الملك فؤاد الذى كانت سلوكياته الخاصة مضغة فى الأفواه وتكتب مقالا عن الخديو اسماعيل والملكة فكتوريا فينتفض فؤاد غضبا لأبيه ويطلب من السلطات أن تأخذ روز اليوسف بالشدة فتقبض على مدير التحرير المسؤول وتحت وطأة الضغوط يعترف بأن كاتب المقال هو محمد التابعى فيقبض عليه ولا يفرج عنه الا بعد دفع كفالة مالية باهظة ثم يصدر قرار بتعطيل المجلة وتتكرر عمليات الانذار والمصادرة والتعطيل وتلجأ صاحبتها الى استئجار مجلات أخرى لكى تصدر باسمها فتلاحقها السلطات بالمصادرة حتى بلغ مجموع ايام المصادرة 175 من بين 300 مرة.

وكثيراً ما كانت تساق صاحبة المجلة ومحرروها لا سيما التابعى ـ الى النيابة العامة للاستجواب والتحقيق ليلا ونهارا وفى إحدى المرات صدر الحكم عليها بالحبس ثلاثة شهور مع ايقاف التنفيذ والحكم على التابعى بالسجن اربعة شهور قضاها فى سجن قره ميدان حتى إذا خرج من سجنه حيته المجلة تحية رائعة فقالت روز اليوسف التى كافحت ذلك الكفاح الطويل فى سبيل حرية مصر واستقلالها ومناهضة أعداء الوطن لترحب اليوم بخروج هذا الجندى إلى ميدان الجهاد. وحول هذه الواقعة يقول الدكتور ابراهيم عبده مؤرخ سيرتها. ومن أعظم ما يحفظه التاريخ لهذه السيدة أنها حاولت اثناء المحاكمة ان تأخذ على عاتقها المسؤولية كاملة.

وكان هنا التصرف منها امرا هز عواطف زملائها واكبرها فى نظرهم وقد سجل لنا فكرى اباظة التقليد الجميل فى رسالة خاصة بعث بها الى السيدة روز اليوسف يقول فيها:

جزعت للحكم الصادر عليك وعلى صديقى الاستاذ التابعى ولكننى تعزيت نوعا بشجاعتك التى تجلت فى الجلسة عند توجيه الاسئلة اليك عن مسؤولية رئيس التحرير وتعزيت نوعا بشجاعة صديقى عندما عاد بنفسه لتنفيذ الحكم هذان المثلان جديران بالتقدير والاجلال وهما نموذج لشجاعة الصحفى وتضحية ذوى المبادىء ولا شك انكما تتحملان ببطولة هذه الصدمة الهينة متعك الله الصحة ولك كل عواطفى واجلالى.

وفى عهد حكومة اليد الحديدية برئاسة محمد باشا محمود تم حل البرلمان وتعطيل الدستور لمدة ثلاث سنوات فهبت روز اليوسف تهاجم الرجل غير عابئة بيده الحديدية فقام بتعطيل مجلتها ولكنها قبلت التحدى واخذت تنشر مقالاتها الجريئة دفاعًا عن الدستور وحرية الصحافة فى مجلات اخرى فكان يعطلها حتى يحول بينها وبين التعبير عن رأيها وبعد تسعة شهور من الاحتجاب عادت روز اليوسف الى الصدور فى زهو المنتصر اشد عنفا مما كانت واعمق سخرية مما تعودت وكتبت فى صدر صفحتها الأولى تحت عنوان «الميت الحى» وبعد تسعة شهور طويلة تنفض هذه الجريدة عن جسدها تراب قبر كان مقدرا ان يكون مثواها الى الابد ولكن ما اسرع ما يتداول الزمن وما اسرع ما يتدوال الناس عدل الله.

حتى إذا جاء اسماعيل صدقى باشا على رأس الحكومة لم يقف عند حد تعطيل الدستور بل نسفه من جذوره واصطنع دستورا يمنح الملك سلطات فضفاضة ويقلص سطات الأمة ولقيت روز اليوسف من عنت العهد الجديد مثلما لقيت من سائر العهود ووقفت المجلة فى صف الصحف الوفدية الذى تصدت لطغيان صدقى وعندئذ أصدر صدقى قرارا بالغاء رخصتها ثم سمح لها بمعاودة الصدور بعد أن أصدر دستوره الجديد على أمل أن تخفف روز اليوسف من حملتها عليه.

ولكنها بقيت صامدة عند موقفها وقالت أن هذه الجريدة عاشت ما عاشت راضية أن تجوع ولا تأكل بثديها أبيه أن تضع يدها فى الأيدى التى عبثت بالحرية وباعت بالثمن البخس كل كرامة للبلاد.

ولما حان يوم عيد ميلادها السابع ١٩٣٢.

قالت إذا كانت الصحف اعتادت فى أعياد ميلادها أن تجدد لقرائها ما أخذت على نفسها من عهود يوم اتسع لها صدر الحياة وعهدنا نحن في عيد ميلادنا السابع العهد الذى لا يحله من اعناقنا الا الموت الا تترك لخصومنا وخصوم البلاد بالا مستريحا أو ليلا ينعمون فيه برقده هانئة أو حلم جميل واختار اصحاب روز اليوسف أن يكونوا اسياد آنفسهم واسياد عواطفهم وليكن بعد ذلك طعامهم الحنظل.

محنة روز اليوسف

نشأت مجلة روز اليوسف وفدية الهوى، «سعدية» الانتماء وقد عاصرت العامين الآخرين من حياة الزعيم سعد زغلول فكانت تضعه موضع التجلة والاحترام وتطلق عليه وصف الرئيس الجليل فى وقت كان فيه سعد يعانى اضطهاد القصر والانجليز وأحزاب الأقلية فكانوا يتربصون به الدوائر ويدبرون المؤامرت للايقاع بأنصاره واختارت روز اليوسف أن تقف الى جانب سعد بملء ارادتها الحرة. معرضة عن المغريات التى كانت تعرض عليها من جانب اصحاب السلطان ولم يكن انتماؤها للوفد عن تعصب حزبى ضيق ولكن عن إيمان مطلق بأنه الممثل الشرعى للوطنية المصرية فى كفاحها من أجل الاستقلال ومن أجل الديمقراطية والدستور.

ركبت روز اليوسف هذا المركب الصعب وخاضت غمار المعترك الوبيل رغم علمها بشراسة الخصوم الذين تحاربهم وعلى رأسهم الملك فؤاد والمندوب السامى البريطانى الذى بيده مقاليد الأمور

ومن وراءهما سلطات بلا حدود لقطع الألسنة. وتكميم الأفواه وتحريك العملاء لضرب الأحرار وهى تتصدى لكل هؤلاء غير هيابة لما يصيبها من اذى وحين ترى مظاهرات الأزهريين ضد «سعد» تذكرهم بمواقفهم الوطنية السابقة عندما كانوا يهتفون أمام قصر الملك وعلى مسمع منه سعد أو الثورة وتنحى عليهم هذا التحول المفاجىء وتفضح الأصابع الخفية التى تحركهم وتقول انهم اشبه بأحجار الشطرنج تحركها يد اللاعب ثم تتساءل من هو هذا اللاعب؟ ونقول. هذا السؤال يستطيع أن يجيب عليه كل كاتب ولكن الصراحة التامة قد تؤدى به إلى الوقوف حيث يكره!!.

وظلت روز اليوسف تضرب على هذا الوتر لكشف المستور فى خبايا السياسة العليا، وتبصير الشعب بما يدور فى دهاليز القصر ودار المندوب السامى واضعة نصب عينها غرضين اساسين: مواجهة طغيان القصر بكل قوة. ومكافحة الاحتلال بكل وسيلة حتى بلغت فى ذلك مرتبة لم تصلها صحيفة مصرية أخرى وفى ذلك يقول مؤرخ سيرتها الدكتور ابراهيم عبده لا يستطيع الباحث أن يضع فى وصف روز اليوسف صحيفة اخرى فى هذين الميدانين مكافحة الطغيان ومقاومة الاستعمار.

بعد وفاة سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ ظلت روز اليوسف على وفاة لخليفته مصطفى النحاس. إلى أن وصل الطرفان الى مفترق طريقين بسبب موقف الوفد من حكومة توفيق نسيم التى جاءت فى اعقاب انهيار نظام صدقى الاستبدادى ورأى الوفد فى هذا التغير

بارقة امل فى التحول نحو الديمقراطية واعادة الدستور الذى وأده صدقى ومن ثم رحب الوفد ترحيبًا حارًا بالوزراة وقال إنها تستحق تقدير الأمه ومنع الصحف الوفدية من التهجم عليها أو نقدها أما روز اليوسف فلم تكن تري هذا الرأي لأنها لم تجد في تصرفات الوزارة ما يبرر تأييدها ولم يصدر عنها أي تصرف يبشر بالاتجاه نحو الديمقراطية واعادة الدستور فاستمرت فى حملتها على الوزاره النسيمية غير عابئة بتعليمات الحزب الذى تنتمى اليه وشجعها على ذلك انضمام كاتبين كبيرين لهما وزن كبير فى ميدان السياسة هما عباس محمود العقاد الذى كان لقبه كاتب الوفد الاكبر والثانى الدكتور محمود عزمى.

وفشل الوسطاء فى التقريب بين الحزب والصحيفة وأصرت روز اليوسف على عنادها وتحولت القطيعة إلى حرب ضروس بعد أن خلع الوفد الصفة الوفدية عن الصحيفة وكان هذا القرار - فى ذلك الوقت - يعنى الحكم بالاعدام على اى صحيفة تناوىء اوفد فيمتنع الباعة عن توزيعها وخرجت المظاهرات تقذف مبنى الصحيفة بالطوب وحرضوا العاملين فيها علي الاستقالة ومقاضاتها فى المحاكم للمطالبه برواتبهم المتأخرة. وتكالبت على روز اليوسف الاحكام والحجوزات حتى شملت اثاث بيتها وملابسها الخاصة واضطرت الى رهن مصاغها ثم بيعها بثمن بخس لكى تسد رمقها وتقف على قدميها وحيدة بلا سند او معين من حزب أو حكومة او قصر او سفارة وبقيت متشبثة بالفكرة والمبدأ والعقيدة.

ومرت الأيام وسقطت الوزارة النسيمية بعد ان فشلت فى تحقيق الامانى والوعود وتبين ان كل ما وعدت به لم يكن الا على سبيل المماطلة والتسويق والخداع وصدقت توقعات روز اليوسف ونفاذ بصيرتها وثبت انها عندما خلعت رداء الحزبية وتحدت قوى الوفد. انما كانت تؤثر المصلحة العامة، على المصلحة المؤقتة وانها كانت تضع الاعتبارات الوطنية العليا. فوق اعتبارات المجاملة والمدهش أن هذا الموقف المتشدد منها لقى ترحيبا من جمهور القراء فزاد توزيعها بعد أن اقتنع الناس بصحة موقفها وسلامة تقديرها.

وعندما جاء حزب الوفد الى الحكم فى عام ١٩٣٦ اتسعت الفجوة بينه وبين المجلة التى خرجت عن طاعته فالحكومة تشددت فى عقابها وروز اليوسف بالغت فى خصومتها وفى ذلك يقول الدكتور ابراهيم عبده ان الطرفين قد تجاوزا الحد ان صح هنا التعبير فروز اليورسف نشرت نقدا لاذعا كان فى الإمكان نشره متجاوزه عن بعض العبارات والصور البيانية التى تجرح فتسيل الدماء وكالت لها الحكومة من ناحيتها الكيل إذ حرمت صحيفتنا من الإعلانات القضائية التى هى رزق موصول لكثير من الصحف والمجلات فإذا جاءت حكومة دستورية ممثلة لحزب يعتبر عنوان الجهاد والسعى فى سبيل الحرية والاستقلال وعطلت صحيفة من الصحف اخذ الأحرار عليها ذلك وودوا لو تجنبت هذا المركب الخشن فى النظر الى الافكار والآراء.

أما السيدة روز اليوسف بطبعها الثائر وانفتها المأثورة فكان ردها . نحن لا نهادن الباطل من اجل كنوز الأرض كلها وليساوم من شاء ان يساومه وقد عشنا نقلب حياتنا الصحفية محرومين . باختيارنا . من صداقة الحكومات المتتابعة وما يلحق بهذه الصداقة من اعلانات واموال سرية وعلنية وخدمات مشروعة وغير مشروعة فلنضف الحكومة الحاضرة الى قائمة الحكومات السابقة، فإذا كانت الحكومة على حق صفقنا لها لأنها على حق لانها تعطى نقودا وإذا كانت على باطل هدمناها ولو تشفعت لنا بالخمسة والثلاثين مليونا التى هى مجموع ايراداتها .

وقد ادت الاضطهادات المتصلة بروزا اليوسف الى اغراقها فى الديون فاستدانت من هنا وهناك وأصبح لتجار الورق والحروف والحبر فى عنقها ديوان ففزعت إلى طلعت حرب رئيس بنك مصر فأقرضها مبلغا من المال أعانها على سداد المطلوب منها ولم عجزت عن تسديد أقساط القرض بعثت إلى طلعت حرب تقول أنها لكى تسدد باقى الأقساط تقدمت إلى شركة مصر للتمثيل والسينما لتقوم ببطولة فيلم سينمائى ولم يكن أحد من قراء روز اليوسف يعلم بهذه المحنة التى ينوء بحملها عشرات الرجال .

الى ولدى السجين

كانت روز اليوسف «المجلة» هى أغلى ماأنجبت روز اليوسف «السيدة» فى بلاط صاحبة الجلالة، إذ جعلت منها مدرسة للصحافة الحرة تخرج فيها زينة الكتاب والمفكرين، أما أثمن ماخلفته روز اليوسف «الأم» فهو ابنها احسان عبد القدوس. ثمرة زواجها من الممثل المشهور محمد عبد القدوس الذى نراه فى أفلام عبد الوهاب، وظهر فى آخر أفلامه مع عبد الحليم حافظ وهو يغنى له: أمرك ياسيدى.. وبعد انفصالها عن محمد عبد القدوس تزوجت من الفنان القدير زكى طليمات وأنجبت منه ابنتها الوحيدة «آمال» وهى تشبه أمها شبها كبيرا فى استدارة الوجه. وهالة الشعر الأبيض التى تكلل رأسها، وتعيش الآن فى شقتها على كوبرى الجامعة.

صعد احسان سلم الصحافة من أول درجاته فى مجلة «روز اليوسف»، وأخذ مكانه فى صفوف الشباب بعد أن تخرج فى كلية

الحقوق، وكان نصيبه من تشدد صاحبة الدار أكبر من نصيب أقرانه. حتى لايدور بخلده أن صلة البنوة ستكون شفيعا له فى الدلال والتسيب، وعاش احسان فى كنف أبيه فى البيت، وإلى جوار أمه فى المجلة، يشهد كفاحها المرير فى سبيل المبدأ الذى نذرت نفسها له، ويتشرب منها صلابتها فى مواجهة أركان الطغيان والفساد والدكتاتورية. ويعانى من قسوة الحياة التى حكمت عليها بأن تبيع أثاث بيتها وملابسها ومصاغها لكى تسدد ديون المطبعة، وتؤدى للعاملين بعضا من أجورهم المتراكمة. ورآها وهى قابعة فى قفص الاتهام مرفوعة الرأس. تأبى التراجع أو المساومة.

كان احسان ـ مثل غيره من الصحفيين ـ يتقاضى أجرًا ضئيلا لايفى باحتياجاته العائلية خاصة بعد أن تزوج وأصبح مسؤولا عن أسرة فكان يعوض هذا النقص بالكتابة فى صحف أخرى، ولازلت أذكر الباب البديع الذى كان يحرره بانتظام فى مجلة «الاثنين» التى تصدر عن دار الهلال. وجعل عنوانه «اتنين.. اتنين ويذيله بتوقيع «.. سان» بعد أن يحذف الحرفين الأولين من اسمه وكان أسلوبه سهلا رشيقا يجذب انظار الشباب فاكتسب شهرة أدبية إلى جانب شهرته الصحفية ودأب على كتابة القصص العاطفية، وصدرت المجموعة الأولى من هذه القصص تحت عنوان «بائع الحب» ثم «صانع الحب» وبعدها توالت قصصه الطويلة التى كان ينشرها فى شكل حلقات اسبوعية واتخذت منها السينما موضوعات لأفلام كثيرة مثل: «النظارة السوداء وشئ فى صدرى ولاتطفئ الشمس والعذراء والشعر الأبيض... إلخ».

ولكن البيئة السياسية التى عاش فيها احسان فى مكاتب «روز اليوسف» هى التى جعلت منه كاتبا سياسيا من الطراز الأول لقد صادف فى الدار اساطين الكتاب من أمثال عباس محمود العقاد ومحمود عزمى وكامل الشناوى وسعيد عبده ومحمد التابعى.. فضلا عن امه التى غرست فيه مبادئ الشجاعة والتضحية والرجولة المبكرة، وخاض احسان معارك حامية الوطيس على نفس النهج الذى خطته «روز اليوسف» دفاعا مستميتا عن الحرية والديمقراطية، وهجوما صادقا على كل أشكال الاستبداد والفساد، وظل احسان مثابرا على اسلوبه سواء فى العهد الملكى أو العهد الثورى، ودفع فى العهدين ثمنا باهظا من حريته، وتردد على السجون والمعتقلات، وذاق من الأذى ماذاقه الكثيرون من الكتاب الأحرار.

كانت أمه هى مثله الأعلى فى الصلابة والاستهانة بالمكاسب المالية التى كانت تدفعها الحكومات لشراء الذمم الخربة، وكتب عنها ذات مرة «سر حياة روز اليوسف» - السيدة والمجلة أنها لاتعمل لتعيش يومها بل تعمل لتعيش فى التاريخ، وسيذكرها التاريخ كلما تحدث عن جهاد مصر، وسيذكرها عندما يتحدث عن تعسف الحكومات، وعندما يتحدث عن حركات الجهاد، وعندما يتحدث عن الثورات.

وبعد أن عدد احسان مواقفها العملية قال: «ليس لجمعية «روز اليوسف» رئيس. ولكن لها «أم.. أم كافحت وهى تعلم أولادها كيف

يضحون.. أم احتقرت الدنيا فى سبيل رأيها، وهى تعلم أولادها كيف يحتقرون الدنيا.. أم عنيدة وهى تعلم أولادها العناد، وأم انتصرت وهى تعلم أولادها كيف ينتصرون.. هى أمى.. وأمهم.. وأم كل من له رأى وله فن».

والعجيب ان احسان عرف طريقه إلى السجن لأول مرة فى عام ١٩٤٧ فى عهد حكومة النقراشى التى أيدتها «روز اليوسف» ضد الصحافة الوفدية التى كانت تحمل على هذه الوزارة. وتنعى عليها عجزها عن حل القضية الوطنية، ولكن روز اليوسف سحبت هذا التأييد وانقلبت على الحكومة، وقالت فى تفسير هذا التغير: ناصرنا هذه الوزارة عن عقيدة، وليس من أجل مصلحة أو أشخاص، لأننا نؤمن بأنها تؤدى واجبها الوطنى فى نطاق مابين يديها من وسائل، ولكن مصر فوق الوزارة، وفوق الجميع، وعقيدتنا خدمة مصر والتضحية فى سبيل مصر.

وفى اطار الموقف الجديد كتب احسان عبد القدوس مقالا ملتهبا ضد النقراشى وضد السفير البريطانى، فما كان من الحكومة إلا أن اعتقلت احسان وساقته إلى السجن. وصادرت العدد الذى يحتوى على الهجوم، ولم تفقد روز اليوسف «الأم» اعصابها وهى ترى ولدها الوحيد فى هذا الوضع السيئ وتنازعتها عاطفة الأمومة وعاطفة الوطنية فى أن. فكتبت فى العدد التالى رسالة إلى احسان:

إلى ولدى السجين: أحييك فى سجنك تحية أم وتحية مواطنة حملت قبلك شرف الجهاد فى قضية مصر، وقد اختلط فى نفسى شعور الأم بشعور المواطنة فما أدرى بأيهما أعبر عن نفسى وان فى قلبى ليستعر جحيمان: جحيم الأمومة وجحيم المبدأ، وكلاهما قطع من عذاب. فالخوف عليك يعذبنى ومالنتهى اليه مصيرك يذهب بالخوف، فعينى باكية بلا دمع. ونفسى والهة بلا أنين، وفى أعماق كيانى يرتفع زهو وكبرياء يخالطهما اطمئنان وراحة ضمير، وحمد الله عليك وعلى نفسى.

أنا لا أخاف عليك ياولدى مما أنت فيه، لأن السجن وقد نزلته كريما مجاهدا، لن ينال من نفسك، وهذا القيد سيقوى فيك غريزة النضال، وستتجلى محنتك كما تتجلى محنة الذهب، وقد صهرته النار. عن الابريز الخالص الذى لايشوبه شئ فكن جريئا نبيلا فى سجنك، كما أنت جرئ ونبيل فى حريتك.

«ان مصر التى هى فوق الجميع ستكون كما يستحق كل مصرى أن يكون، واحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه، أنك بين شباب مصر الذين هم صورة لمصر التى نرجو أن تكونها.

ولدى: لاتجزع على والدتك، فأنا بخير مادمت أنت على المبدأ الذى سكبته فيك.. ونشأتك عليه، وأنت خير من يعلم أننى حضرت الغرق والطوفان فى مواقف غير هذه. فهل أخشى البلل وطغيان موجة لاترتفع إلا لتتكسر؟ سيكون قريبا لقاؤنا تحت الراية. فى الصف لنستأنف الجهاد».

اليوبيل الذهبى للأخبار

احتفلت جريدة «الأخبار» المصرية بيوبيلها الذهبى، أى مرور نصف قرن على صدورها، ففى يوم الأحد ١٥ يونية ١٩٥٢ صدر العدد الأول من صحيفة «الأخبار الجديدة»، فاستقبله القراء بلهفة كبيرة، ونفدت الكميات عن آخرها، ولكن فى اليوم التالى مباشرة هبط التوزيع بنسبة ٤٠٪ فكانت لصاحبيها التوأمين: مصطفى وعلى أمين، ذلك ان الجريدة الوليدة خرجت على الطابع السائد الذى تعود عليه قراء الصحف فى ذلك الوقت، وأهمها: الأهرام، والمصرى، سواء من حيث تبويب الصفحات أو نوعية الأخبار والمواد الصحفية، أو مواكبة الأحداث التى كانت تمر بها البلاد فى تلك الفترة، فقد ارتفعت درجة الغليان والسخط على الملك فاروق، وعلى الحكومات التى كانت تتغير بسرعة، والأحكام العرفية وما كانت يشكله تضييق على الحريات، وليس أدل على ذلك من أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بعد ست أسابيع من صدور الأخبار.

● ● لقد فوجئ القارئ بانصراف الجريدة عن الأزمة السياسية، واهتمامها بأسعار السلع التموينية والحوادث والقضايا، بل وجد هذه النوعية الجديدة تشغل الصفحة الأولى بدلاً من أخبار السياسة ومقالات رؤساء التحرير. ووجدوا أن صاحب الجريدة يكتب مقاله تحت عنوان (على فكرة) فى الصفحة الأخيرة. وقد ظن صاحبا «الأخبار» ان هذا الجديد سوف يزيح القديم ويتغلب عليه ويحظى بإعجاب القارئ، ولم يتنبها الى أن تغيير الأذواق يحتاج الى وقت طويل، ولذلك لم يتطرق اليأس إليهما، وعكفا على دراسة نفور القراء من هذا الجديد، وفى ذلك يقول على أمين: لقد أخفيت كارثة هبوط توزيع العدد الثانى عن مصطفى أمين، وجلست أتصفح «الأخبار» وأبحث عن سر اختفاء الأربعين الف قارئ، وأمسكت قلمى ورحت أدون الأسباب التى أتصورها لانخفاض التوزيع، وأحاول أن أضع أمامها العلاج، إن الجريدة اليومية «مادة» يصعب تغييرها، ولقد طبعت الصحف القديمة فى أذهان القراء صورة معينة للجريدة اليومية، و «الأخبار» قلبت هذه الصورة رأسا على عقب، فقد تعود القارئ على أن يجد فى الصفحة الأولى خبرين فقط، فإذا بالأخبار تنشر فى الصفحة الأولى ثلاثين خبرا فى حجم قرص الأسبرين، وكان هناك من هيئة التحرير من يرى أن نقدم للمريض الدواء فى الزجاجة التى تعجبه، ولكنى رفضت، وفضلت أن أخسر الأربعين الف قارئ على أن أغير الطابع الجديد الذى نقدمه، وقلت إذا أعجب القارئ بباب «فكرة» فسيقلب الجريدة ليقرأها فى الصفحة النهائية، وإذا لم يعجبه الباب فلن يقرأه حتى لو وضعناه له فى الصفحة الأولى.

● ● ويعترف على أمين بوجود أخطاء صغيرة «تعاونا جميعا على تداركها، وكان النقص الأول هو أن الجريدة الجديدة، لم تكن لها شخصية، وكانت حائرة بين ارتداء العمامة والطربوش والكاسكيت، واستطعنا فى العدد الثالث ان نستعيد ستة ألاف قارئ من الذين ضاعوا منا، واستعدنا فى العدد (١٢) اربعة آلاف قارئ أخرين.. واستمرت «الأخبار» تكسب كل يوم ألف قارئ جديد، حتى أصبح قراؤها فى العدد (١٠٠) ضعف الذين اشتروا العدد الأول الذى سبقته الدعايات الضخمة.

وسارت الأخبار من نجاح الى نجاح، حتى دارت الدينا، وتغيرت باقى الصحف، وسايرت طابع الأخبار، وأصبح هذا الطابع القريب هو الطابع المفضل لدى القراء فى كل أنحاء الشرق.

● ● لقد صدرت «الأخبار» لتحقق حلم صاحبيها فى إصدار صحيفة يومية الى جانب شقيقتها الكبرى (أخبار اليوم) ومع أن ترخيص أخبار اليوم عند صدورها فى نوفمبر ١٩٤٤ كان ينص على أنها: صحيفة يومية تصدر أسبوعية بصفة مؤقته وكان من المتوقع أن تحمل الصحيفة اليومية نفس الإسم، إلا أن الأخوين مصطفى وعلى أمين خشيا من المغامرة باسم الجريدة القديمة فى مشروع غير مضمون النجاح، وقد سبق صدور الأخبار محاولات لإصدار جريدة خبرية تحت اسم «آخر لحظة» كانت تصدر كملحق لمجلة «آخر ساعة» وفى حجمها، ووجدت قبولا وانتشارا لدى جماهير القراء، ومع ذلك كان رأى الغالبية من أسرة التحرير أن

تصدر الصحيفة الجديدة فى الحجم الكبير تحت اسم «الأخبار» وهنا صادفتهم مشكلة رخصة جريدة «الأخبار» التى كان يصدرها الصحفى العظيم أمين بك الرافعى منذ العشرينيات ثم توقفت بعد وفاته، وللخروج من هذه الورطة اقترح البعض تسمية الجريدة «أخبار النيل» ورفض الإقتراح، وتم الإتفاق على أن تصدر تحت اسم «الأخبار الجديدة» وظل الإسم ساريا الى أن تمت تسوية المشكلة مع ورثة الرافعى، وموافقة أخيه المؤرخ الجليل عبدالرحمن الرافعى على حذف كلمة «الجديدة».

● ● ومن مبتكرات «الأخبار» أن الترويسة كانت تحمل أسماء خمسة رؤساء تحرير هم على الترتيب: جلال الدين الحمامصى وعلى أمين، وكامل الشناوى، ومحمد ذكى عبدالقادر، ومصطفى أمين، وعلى رأسهم اسم محمد التابعى مديرا للتحرير. وكان هذا من قبيل التكريم لأصحاب هذه الأسماء الكبيرة، أما الدينامو المحرك لهذه الجريدة فكان بلاشك هو مصطفى أمين، أما على امين فكان معظم نشاطه منصبا على النواحى الفنية والطباعية بصفته مهندسا، وكذلك كان جلال الدين الحمامصى، وكان كل من على حمدى الجمال وموسى صبرى نائبا لرئيس التحرير. ويندرج تحت هؤلاء كتيبة من شباب الصحفيين الذين تعلموا فنون الصحافة فى هذه الدار العملاقة، والذين صاروا فيما بعد نجوما فى سماء الصحافة، والقائمة طويلة وأكبر من أن تحصى، ولكن

نذكر منهم على سبيل المثال - لا الحصر - محمد حسنين هيكل وعبدالسلام داود وسعيد سنبل ومحسن محمد وصلاح هلال، وصلاح جلال، وصلاح منتصر، وجميل عارف ومصطفى شردى، وسلامة أحمد سلامة، وسناء البيسى، وكمال الملاخ، وصافيناز كاظم، وسعد التائه، وحسن شاه.. وغيرهم كثيرون.

أبواب السلاطين

لما قامت ثورة يولية، فى مثل هذه الأيام منذ نصف قرن، كان أحمد أبوالفتح صاحب «المصرى» ورئيس تحريره، هو أقرب الصحفيين إلى قادة الثورة، وكان من أشد المتحمسين لقيامها لتخلص البلاد من فساد الملك وأعوانه، وتعود بمصر الى واحة الديمقراطية، وكان بحكم أنتمائه الى حزب الوفد حريصا على أن لا يتخلف الوفد عن تأييد الثورة باعتباره حزب الأغلبية الشعبية، ويتمنى فى نفس الوقت ان تتبنى الثورة مبادىء الوفد الديمقراطية والشرعية الدستورية، وفى ذلك اليوم كان النحاس باشا زعيم الوفد ومعه فؤاد سراج الدين، قطب الوفد الأكبر، يقضيان الصيف فى أوروبا. فاتصل بهما أحمد أبو الفتح تليفونيا، وألح عليهما بضرورة العودة فورا الى مصر ليكونا على مقربة من تلك الأحداث الخطيرة واستجاب الاثنان، واثناء ركوبهما الطائرة مساء يوم ٢٦ يولية علما من قائد الطائرة بنبأ طرد الملك فاروق، ولما هبطت بهما

الطائرة فى ساعة متأخرة من الليل وجدا فى انتظارهما أبوالفتح. فأبى عليهما الذهاب الى بيتهما أو تأجيل اللقاء الى الصباح. ومضى بهما من المطار الى مقر قيادة الثورة فى كوبرى القبة فوصلوه فى الهزيع الأخير من الليل، بينما كان الضباط قد استسلموا للنوم بعد ذلك اليوم الحافل - يوم طرد الملك وجلس النحاس وسراج الدين فى صالون بالدور الأرضى، وهرع أبوالفتح الى الدور العلوى لايقاظ الضباط. الأمر الذى استغرق وقتا طويلا أدى الى شعور النحاس وصاحبه بالاشمئناط وعدم الارتياح.

وعندما تم اللقاء، تبادل اللواء نجيب والنحاس عبارات المجاملة ولكن عبارة بعينها قالها النحاس تركت انطباعا سيئا فى نفس الضباط، اذ قال لنجيب، «أنت زعيم على عدة آلاف - يقصد الجيش - ولكننى زعيم على اثنين وعشرين مليون مصرى». وتتفق المراجع التارخية على أن هذا اللقاء الأول بين قيادة الوفد ورجال العهد الجديد كان فاترا وربما كانت ظروف اللحظة حيث النعاس يخالط عيون الضباط - هى السبب. ولكن سبب الفتور يرجع الى عوامل قديمة تعود الى موقف الوفد من فكرة الإنقلاب العسكرى. فقبيل الاعداد للحركة اتصل جمال عبدالناصر بفؤاد سراج الدين عن طريق بعض الوسطاء، وطلب منه تأييد الوفد للثورة حال قيامها، فلما عرض سراج الدين الفكرة على النحاس اعترض بشدة، وتمسك بمبدأ الوفد فى عزل الجيش عن التدخل فى أمور السياسة والحكم، وقال قولته الشهيرة، ان الجيش مثل «وابور الزلط» إذا تمكن من السلطة فلن يتخلى عنها للحكم المدنى،

وسيقوم بهدم المؤسسات الدستورية والحزبية لينفرد بالحكم العسكرى.

وانقطعت الصلة بين الوفد وتنظيم الضباط الأحرار، وان بقيت قوية وحميمة بين جمال عبدالناصر وأحمد أبوالفتح الذى لم يخامره الشك فى انحياز العهد الجديد الى الديمقراطية، فسعى الى بناء الجسور بين الطرفين منذ الساعات الأولى للإنقلاب فكان هذا اللقاء الذى خطط له. ولكنه لم يثمر الثمرة التى كان يرجوها، وظل أحمد أبوالفتح يشغل الموقع الأثير عند عبدالناصر، الى أن حدثت التحولات الدرامية فى توجهات الضباط، واتخذوا سلسلة من الاجراءات المنافية للديمقراطية مثل إلغاء الدستور وحل الاحزاب ومحاكمة قادة الوفد. فكانت القطيعة التى انتهت بإغلاق جريدة «المصرى» ومصادرة أموال أسرة أبو الفتح، وهروب أحمد الى خارج البلاد ليحارب النظام العسكرى من منفاه.

وبغياب احمد ابوالفتح وصحيفته، فقدت الثورة سندا اعلاميا كبيرا، وقلما سياسيا جريئا، وأخذت تبحث عن بديل يتبنى افكارها، ويكسب لها تأييد الرأى العام، وكان احسان عبدالقدوس من أوائل الكتاب الذين ساندوا الثورة فور قيامها، وهو الذى رشح لهم على ماهر باشا لرئاسة أول وزارة يوم ٢٤ يوليو، وظل احسان فى حضن الثورة الى أن انحرفت عن التوجه الديمقراطى، فكشف عن معارضته، وكتب سلسلة مقالات تشجب الحكم العسكرى كان اقواها مقالا بعنوان «الجمعية السرية التى تحكم مصر» يقصد

مجلس قيادة الثورة، وانتهت العلاقة بين الطرفين الى اعتقال احسان فى السجن الحربى، ولم يبق على مسرح الصحافة المؤيدة للثورة، سوى صحف دار أخبار اليوم بقيادة مصطفى أمين منذ الافراج عنه فى اليوم التالى لطرد الملك. بعد أن قضى فى الاعتقال مع أخيه «على» ٧٢ ساعة فقط. وكان الإفراج عنهما مثار دهشة المراقبين نظرا لعلاقتهما القديمة بالقصر الملكى، ولكن قادة العهد الجديد لم يتوقفوا عند هذه الحسابات العاطفية لأنهم كانوا فى حاجة الى صحافة مؤيدة لهم، فوجدوا مبتغاهم فى صحف أخبار اليوم التى نشطت فى ابراز مفاسد «العهد البائد».

ومن ناحية أخرى أدرك مصطفى أمين بحاسته الصحفية ان جمال عبدالناصر. وليس محمد نجيب - هو رجل الثورة الأول، فبدأ يركز الأضواء عليه، وكان أول صحفى يكشف النقاب عن أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة على رأسهم عبدالناصر، واقترب مصطفى أمين كثيرا من عبدالناصر فلما وقعت أزمة مارس ١٩٥٤ بين الجناح المؤيد للحكم المدنى وعودة الجيش الى الثكنات بقيادة محمد نجيب وخالد محيى الدين، وبين الجناح المؤيد للانفراد بالحكم، انحاز مصطفى أمين الى الجناح الثانى. وعندما سألته عن سر هذا الانحياز رغم نزعته الديمقراطية، قال لى أنه فعل ذلك نكاية فى محمد نجيب لأنه كان يدعو الى الدكتاتورية «!!» وقد اثبتت الوقائع عدم صحة هذا التبرير.

وفى تقديرى أن وقوف مصطفى أمين الى جانب جمال عبدالناصر انما يعود الى عدة أسباب منها، ادراك مصطفى أمين

لقوة عبدالناصر وأنه المحرك الأكبر لحركة الأحداث، وثانيا لافساح الطريق أمام عبدالناصر للانفراد بالحكم والقضاء على فكرة الحكم المدنى واجراء انتخابات عامة تؤدى الى عودة الوفد الى الحكم، وهو الأمر الذى كان يقلق مصطفى ويزعجه بعد أن قضى معظم سنوات عمره فى محاربة الوفد وهدمه لحساب القصر واحزاب الأقلية، والأن يهدمه لصالح الحكم العسكرى.

وقد ظل مصطفى أمين يشغل موقع الصحفى المقرب من قائد الثورة الى أن ظهر نجم محمد حسنين هيكل بعد أن صار رئيسا لتحرير «الأهرام» فى عام ١٩٥٧ فاكتسح الجميع. وتوارى مصطفى أمين الى الظل، الى أن حدثت القطيعة النهائية بينه وبين عبدالناصر فى يوليه ١٩٦٥ واودت به إلى السجن لمدة تسع سنوات حتى افرج عنه الرئيس انور السادات فى عام ١٩٧٤.

والخلاصة أن قرب الصحفى من قمة السلطة، قد يوفر له النجاح والجاه والشهرة والمجد الصحفى، ولكنه لا يضمن له الأمان والبقاء فى موقع الحظوة، لأن هذه المواقع تتأثر بتقلبات السياسة التى تحركها عوامل تخرج عن ارادة الصحفى، وتخضع لحسابات الحاكم ورؤيته، ومن ثم يكون الصحفى أشبه بالفراشة التى تحوم حول النار فتحترق.

الاقتراب من السلطة سلاح ذو حدين.. احدهما فيه المنفعة.. والأخر فيه الإنتحار.. ولا أنسى ابدا بيت الشعر المنسوب للشريف الرضى وارجو ان يحفظه كل من يعمل فى بلاط صاحبة الجلالة.

هيهات أغتر بالسلطان ثانية

قد خاب ولأّج ابواب السلاطين

اللعب على المكشوف
بين الأخبار والمصرى

صدرت جريدة «الأخبار» اليومية فى يونيه ١٩٥٢ فى وقت كانت فيه سوق الصحافة المصرية فى حاجة إلى جريدة جديدة، كان تعداد المصريين يومئذ ٢٣ مليونا، وليس من صحف كبرى سوى «الأهرام» و «المصرى» وكانت الأولى متمسكة بتقاليدها القديمة فى الإخراج والأسلوب الصحفى، وحيادها السياسى، فى وقت احتدم فيه الصراع بين الأحزاب والقوى السياسية وتعاقب الوزارات وعدم استقرار الحكم، وبعد رحيل رؤساء تحريرها الكبار مثل داود بك بركات وأنطون الجميل باشا: آلت رئاسة تحريرها إلى اثنين لم تكن لهما خبرة أسلافهما، وهما: عزيز ميرزا وأحمد الصاوى محمد، فهبط توزيعها مما أتاح للجريدة الثانية «المصرى» أن تشق طريقها الى الصدارة بعد أن جمعت إليها خبرات صحفية جديدة مثل أحمد أبوالفتح وجلال الدين الحمامصى ومحمد التابعى وعلى

أمين وكريم ثابت، وخرجت «المصرى» على قيود الحزبية، فرغم أنها كانت تنتسب الى حزب الوفد، إلا أنها توجهت الى القارئ العام فكسبت ثقته، وكانت فى تبويبها وأسلوبها تحتذى الصحف البريطانية مثل التيمس.

● ● أما «الأخبار» فصدرت متأثرة بالمدرسة الأمريكية من حيث الإخراج والأسلوب، ذلك أن مصطفى أمين تلقى تعليمه العالى فى الولايات المتحدة وقت أن كان أبوه - أمين بك يوسف - سفيرا لمصر فى واشنطن، وبعد عودته إلى مصر: عمل فى الأهرام وروزاليوسف، ومجلة الإثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال، إلى أن نجح فى إصدار مجلة «أخبار اليوم» الأسبوعية عام ١٩٤٤ فى شكل صحيفة من الحجم الكبير، فكانت نموذجا جديدة للصحافة الأسبوعية، ثم ما لبث الأخوان مصطفى وعلى أمين أن اشتريا من التابعى مجلته الشهيرة «آخر ساعة». وبقى حلم إصدار صحيفة يومية يلح عليهما حتى أصدرا «الأخبار» لتصبح ثالث صحيفة يومية. وانحصرت المنافسة بينها وبين «المصرى» ولم تتوقف هذه المنافسةعند حدود السبق الصحفى، بل تجاوزته الى مجال الدس وتدبير المقالب خلال الساعات الأولى من قيام ثورة ٢٣ يوليو، وبعد مرور ستة أسابيع فقط على صدور «الأخبار».

● ● كان من المعروف عن التوأمين مصطفى وعلى أمين ارتباطهما بالملك فاروق، وتسخيرهما صحف الدار للاطناب فى ذكر محامد الفاروق، وكان من شأن هذه العلاقة الحميمة المعروفة

أن تجعلهما موضع الشك والريبة عند قادة الثورة، فى الوقت الذى كان فيه أحمد أبوالفتح صاحب «المصرى» على علاقة متينة بجمال عبدالناصر طوال الشهور التى سبقت قيام الثورة، وساعد على نمو هذه العلاقة: صلة المصاهرة التى كانت تجمع بين صاحب المصرى وبعض أركان تنظيم الضباط الأحرار، ذلك أن حرم الأستاذ أحمد أبوالفتح هى شقيقة (الصاغ) ثروت عكاشة، وكان جمال عبدالناصر يتردد على مكاتب «المصرى» بشارع قصر العينى، ويطلب من أحمد أبوالفتح أن يكون همزة الوصل بينه وبين النحاس باشا، ويقنعه بوقوف حزب الوفد الى جانب الثورة عند قيامها. وعندما تحرك الجيش يوم ٢٣ يوليو كان أحمد أبوالفتح هو أقرب الصحفيين الى قادة الحركة، بينما كان الشك يحيط بالتوأمين من جانب هؤلاء القادة.

● ● فى اليوم الثالث للثورة (الجمعة ٢٥ يولية) صدرت صحيفة «المصرى» وعلى صفحتها الرابعة خبر تحت عنوان (اتصال بلندن) هذا نصه: اتصل أحد أصحاب دور الصحف المصرية التى تصدر مجلات أسبوعية بلندن أمس الأول، وتحدث مع بعض المسئولين البريطانيين وزودهم بمجريات الأمور فى مصر على أثر الحوادث الأخيرة.

وفى فجر نفس اليوم تحركت فرقة من البوليس الحربى، وألقت القبض على الأخوين مصطفى وعلى أمين، وأودعتهما معتقل الكلية الحربية مع رجال الحاشية الملكية، وأذاعت قيادة الحركة بيانا فى

الإذاعة فى عصر نفس اليوم يقول: «نما إلى القيادة العامة للقوات المسلحة من مصادر مختلفة أن الأستاين مصطفى وعلى أمين على اتصال بأفراد يهدفون إلى هدم حركتنا الوطنية المباركة، ولم يسعنا فى هذه الظروف الدقيقة التى تجتازها البلاد سوى اعتقالهما، وقد تم ذلك اليوم، وغنى عن البيان أن أمر اعتقالهما كفردين تحوم حولهما الشكوك، ليس له أدنى علاقة بأسرة الصحافة، وسوف يطلق سراحهما فورا بمجرد عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية». وصدر البيان بتوقيع قائد الحركة اللواء محمد نجيب.

● ● فى اليوم التالى الجمعة ٢٦ يوليو (وهو يوم خلع الملك فاروق) نشرت «المصرى» بيان القيادة العامة على صفحتها الخامسة، بينما نشرت على صفحتها الرابعة هذه السطور: «نشرنا أمس خبرا عن اتصال أحد أصحاب المجلات بلندن، ويسر «المصرى» أن تسجل أن هذا الإتصال لم يتم بالمرة، ويأسف لنشر هذا الخبر الذى دس عليه».

● ● فى مساء يوم الأحد (٢٧ يولية) تم الإفراج عن الأخوين، بعد تدخل كل من محمد التابعى، ومحمد حسنين هيكل، أى بعد ٧٢ ساعة فقط من اعتقالهما، ويفهم من رواية كل منهما أن (معظم أعضاء مجلس القيادة كانوا يطالبون بالقضاء عليهما نظرا لارتباطهما السابق بالعهد الملكى. ولقى نبأ إطلاق سراحهما احتجاجا من جانب الضباط، لولا أن جمال عبدالناصر هو الذى أصدر قرار الإفراج فسكت المعترضون، ويروى مصطفى أمين قصة

الإعتقال والإفراج أنه فى اليوم الثالث للاعتقال «فوجئنا بأنور السادات يزورنا فى الزنزانة وقال لنا أن أحد الأشخاص ذهب إليهم وقال انكما طلبتما من وكيل وزارة الخارجية البريطانية التدخل ضد الثورة، ويوجد شريط مسجل عليه الحديث التليفونى، ثم قال السادات: «أنه كان من رأى بعض الضباط الأحرار أن تضربا بالرصاص، ولكن تم الإتفاق فى النهاية على سجنكما، وبعد أن تم إبعاد الملك ذهبنا إلى مصلحة التليفونات وطلبنا الشريط المسجل عليه المكالمة، ولكنهم قالوا إن أخبار اليوم لم تطلب لندن على الإطلاق طوال شهر يولية». ثم يقول مصطفى أمين: وبعد الإفراج عنا ذهبنا فورا الى مجلس قيادة الثورة، والتقينا باللواء محمد نجيب، وجمال عبدالناصر والبغدادى وكمال الدين حسين وصلاح سالم، وقال محمد نجيب: نحن آسفون جدا لهذا الخطأ. وهنا قال عبدالناصر: أظن أنكما تستحقان أن نصدر بيانا نوضح فيه الحقيقة، ونقول أننا آسفون جدا، وأنه تبين لنا أنكما بريئان، وبالفعل أعد البيان، وأذيع أربع مرات.

● ● وخرج الأخوان من المعتقل ليلقيا بكل ثقلهما الى جانب الثورة، وتأييدها وحث الجماهير إلى مساندتها، وبدأ مصطفى أمين فى نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان (ليالى فاروق) روى فيها فضائح الملك ومباذلة وتصرفاته.

حرية الصحافة

فى يناير ١٩٧٤ اصدر الرئيس السادات سلسلة من الإجراءات بهدف إنعاش حرية الصحافة فى مصر، ورفع القيود عن الصحفيين، فخرج مصطفى أمين من سجنه ليعود إلى موقعه على رأس صحف «أخبار اليوم»، وعاد أخوه على أمين من منفاه فى لندن ليتولى رئاسة تحرير «الأهرام»، أما الصحفيون الذين كان السادات قد أبعدهم عن عملهم الصحفى إلى وظائف مكتبية فقد استردوا مواقعهم الصحفية، وكذلك الكتاب الكبار الذين كانوا ممنوعين من الكتابة منذ سنوات طويلة ظهرت مقالاتهم فى الصحف والمجلات، واختتم السادات هذه السلسلة من التطورات بإلغاء الرقابة الحكومية على الصحف، مما جعل مصطفى أمين يصف هذا التحول قائلا، لقد انتهت صحافة الدولة وبدأت صحافة الشعب.

والمدهش أن قرار إلغاء الرقابة أثار جدلا بين أبناء المهنة، فكتب الصحفى المعروف باتجاهاته الاشتراكية محمد سيد أحمد مقالا فى «الأهرام» تساءل فيه عن مغزى إلغاء الرقابة؟ وماذا تعنى حرية الصحافة؟ وقال انها لا تعنى - بالتأكيد - مجرد اختفاء الرقيب من صالة التحرير، لأن مفهوم حرية الصحافة يختلف مع اختلاف مفهوم وظيفتها من بلد إلى أخر، فهى تعنى فى الولايات المتحدة حق ملاحقة رئيس الجمهورية حتى يحاط الجمهور علما بكل خفايا فضيحة «وتر جيت» ولكنها تعنى فى الصين - كأبرز نموذج للمفهوم المخالف، القدرة على قهر الأمية السياسية ومكافحة التخلف فى إطار صحافة صارمة الإنضباط.

فحرية الصحافة - فى رأى الكاتب - لا تقاس بمقاييس «فى الفراغ» دون نظر إلى البيئة الاجتماعية التى تعمل فيها أو الرؤية الاجتماعية التى تخدمها، أو الهدف السياسى الذى ترمى إليه، وان حرية الصحافة - كسائر الحريات - تطرح دائما السؤال، الحرية لمن؟ هل بإعطاء الأولوية لحريات المواطن الفرد.. عملا بفلسفة مجتمعات الاستهلاك والوفرة؟ أم بإعطاء الأولوية للحريات الاجتماعية؟ وهى فلسفة أغلب المجتمعات النامية من أرضية خاصة».. والمجتمعات الاشتراكية من أرضية «مبدأ»، والجدل يثور كلما تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة المجتمع، أو تداخلت مجتمعات الحاجة مع مجتمعات الوفرة.. ومع ذلك فهناك ضوابط تصلح محكا موضوعيا لإختبار حرية الصحافة، وضمان عدم انفصالها عن الشعب، فالصحافة الحرة هى التى لا تترك مجالا

لانتشـار «الشـائعـات» و «النكت».. وتزيل مـبـرر ظهـور «صـحـافـة الحـائط» فى الجـامـعـات.. والتى تتم عن حـاجـة الى التنفيس. وهى التى تقضى على «ازدواجية اللغة» بين مـا ينشـر، ومـا يقـال، بين مـا يتـردد فى وسـائل الإعـلام فى الداخل، ومـا ينشـر فى الخـارج، وهى التى لا تجعل اللجوء إلى الإذاعات الأجنبـيـة غذاء يوميا لاستقـاء الخبر.

وقـال مـحـمـد سـيـد أحـمـد، إن حـرية الصـحـافـة لن تـزدهـر مع صحافـة محدودة الصفحـات، يمتص الإعلان معظم مسـاحاتها، وان حرية الصحافة ـ كسائر الحريات ـ مسألة سياسية فى المقام الأول، لا انطلاق لهـا بعيـدا عن السـيـاسـة، ولا قيمة لهـا لو كانت تلهى بدلا من أن تخدم، وهنـاك أسئلة عديدة تثار حاليا حول نوعيـة «القطاع الخـاص» الـذى سـيـقـوم بمهـام التنمـيـة، والأهداف التى لا غنى عن «قطاع عـام» لتحـقـيـقـهـا، ومـا هى المواصفـات التى ينبـغى ان يكون عليهـا هذا القطاع العام.. وهذه مجرد نماذج معدودة عن القضايا المطروحـة، ولا حـرية للصـحـافـة مـالم تسـتـحث كل صـاحب رأى على اجابات شافية لها.

وأختتم محـمـد سـيـد أحمـد مقـاله بالقـول، ان لحريـة الصـحـافـة تقـاليـد عـريقـة فى السـيـاسـة المصـرية، وبين الصـحـفـيين المصـريين، نـاضلوا وضـحـوا من أجلهـا، ولـكى تثـمـر تضـحـيـاتهم وتكلل جـهـودهم بالنجـاح لابد أن تشـعـر مـصـر بالأفـعـال.. لا بالوعـود بأن صـحـفـهـا لا تحجب رأيا واحدا قادرا على خدمة تحرير مصر، وخدمة تعميرها،

وان حوار الاجتماعات المنطلقة من مختلف الرؤى، هو أساس خصوبة الصحافة ومصدر حيوتها واصالتها وفعاليتها.

كان من الطبيعى ان تستفز هذه الآراء المعبرة عن وجهة نظر كاتب اشتراكى، كاتبا عريقا من الليبرالية هو، على أمين فكتب فى نفس العدد من «الأهرام» فى عموده «فكرة»: أن الزميل محمد سيد أحمد يحاول فى مقاله أن يسجن حرية الصحافة فى أبوزعبل الاشتراكية المتطرفة! إنها محاولة جريئة لتقليم أظافر حرية الصحافة ووضعها فى سجن مكتوب على بابه «جنة الأحرار».. وينسى ان كل تحديد للحرية هو اعتداء صارخ عليها، وهى أشبه بقص جناحى طائر، ثم دعوته إلى التحليق فى الجو! وينسى ان حرية الصحافة هى اسم مستعار اختاره الطغاة لخنق حرية الأفراد، فقد كانوا يخطفون حرية الفرد، ويوهمونه بأنهم استبدلوها بحرية الجماعة، وإذا بحرية الجماعة هى فى الواقع حرية الحاكم واستعباد الشعب.

وقال على أمين، اننى أوافق الزميل انه يجب مع حرية الرأى ان نضاعف الصفحات، ولقد اقتنع الرئيس السادات بهذا الرأى واعتمد مبلغ عشرة ملايين دولار لشراء مزيد من الورق للصحف، ولكن احب ان اذكر الزميل ان الدول الاشتراكية التى تؤمن بحرية الجماعة - دون حرية الفرد - لا توافق على رأيه، فصحيفة «برافدا» الروسية تصدر فى ٦ صفحات من الحجم الصغير، وهى لا تسمح لأى كاتب باستخدام حرف «لا» إلا إذا كان زعيما أو سكرتيرا

للحزب. وحرية الصحافة التى أحلم بها لبلادى غير موجودذة فى الولايات المتحدة، ولا فى بلادى.

ومعظم صحف أميركا تخضع لآراء اصحابها، وكل صحف الاتحاد السوفيتى تخضع لأوامر الحزب، ولا تنشر نقدا للحكومة أو للحزب باعتبار ان الحرية المثالية هى ان يصفق الكاتب، لا ان يعترض على القرارات، ونحن نريد حرية صحافة تعكس مشاعر الرأى العام وافكاره المختلفة الاتجاهات، صحف تقول للحاكم «لا» إذا اخطأ، وتقول «لا» للشعب إذا أغمض عقله.. صحف لا تمشى وراء الطوابير وإنما تقود الرأى العام.. صحف تناقش بصراحة التجارب التى مررنا بها وتحذرنا من الوقوع فى اخطاء الأمس، وتساعدنا على تحويل هذه الأخطاء إلى تجارب نستفيد منها، لا أضرحة أولياء لا يجوز التعرض لها. نريد صحفا تشجعنا على التخلص من الخوف، فإن الخوف الذى يعيش فى صدورنا، أخطر من الرقيب الذى يعيش فى مكاتبنا، نريد حوارا صريحا.. لا ارهاب فيه من الدولة، ولا من المتطرفين، ولا مانع من أن نسمع بعد ذلك رأيا ساذجا ينصحنا ان نحتفظ على كرامتنا ونموت من الجوع، فى الوقت الذى تفتح روسيا »أبوابها لرأس المال الأميركى، وتفرش الرمل لكبار الرأسماليين الأميركيين!

وكان الحوار بين الكاتب الاشتراكى والكاتب الليبرالى بداية لحوار واسع بين العديد من الكتاب حول مفهوم حرية الصحافة.

الكاتب الأوحد!

لم تتوثق علاقة بين حاكم وصحفى مثلما توثقت بين الرئيس جمال عبدالناصر والصحفى محمد حسنين هيكل. وقد ظل هيكل طوال عهد عبدالناصر، والى آخر نفس من حياته هو المعبر عن فكره، والناطق باسمه، والمؤتمن على أسراره، والحارس على تراثه، ورغم تعدد الكتب والمؤلفات التى كتبها هيكل عن عبدالناصر، إلا اننى اعتقد ان جعبته لا تزال تحتفظ بالكثير الذى لم يُنشر.

ولاشك أن هذه الخطوات اثارت الضغائن ضد هيكل من جانب زملاء عبدالناصر فى السلطة، والمحيطين به منذ تشكيل تنظيم الضباط الأحرار، وقد بذلوا جهودا مضنية من أجل افساد العلاقة بين عبدالناصر وصاحبه، ودسوا له الدسائس بقصد الايقاع به، لكن جهودهم ذهبت هباء وظل هيكل فى موقعه الأثير، أما الجبهة الأخرى التى افزعها قرب هيكل من عبدالناصر فهم كثرة من الصحفيين والكتاب الذين حسدوا هيكل على موقعه الممتاز مما

تاح له الانفراد بالاخبار والتقارير الرسمية، حتى اطلقوا عليه لقب «الكاتب الأوحد» وكان الناس ينتظرون «اهرام الجمعة» بشغف ليقرأوا مقال هيكل «بصراحة» وتتوقف عيونهم عند الأسرار والأخبار التى تعبر عن سياسة الدولة، ويستنبطوا منها توجهات السلطة.

وقد حار الناس فى تفسير لغز العلاقة المتينة بين الرجلين، وسألت فى ذلك الأستاذ خالد محيى الدين وكان من أحب الشخصيات الى عبدالناصر حتى أنه أطلق اسمه خالد على أكبر أولاده فكان جوابه: ان هيكل أحد القلائل الذين فهموا نفسية عبدالناصر، وادرك ابعاد شخصيته ومتطلباته كحاكم يبحث عن المعلومة الدقيقة التى تخدم أهدافه، لدرجة ان عبدالناصر إذا اراد أن يعرف درجة حرارة الجو، بادره هيكل قائلا: أنها سبعة وثلاثين درجة وثلاث شرط ونصف شرطة.. وهى ميزة وقدرة لم تكن تتوافر فى أحد من المحيطين بعبدالناصر.

كان هيكل صحفيا يقظا وتصب فى مكتبه شلالات الأخبار والتقارير التى تبثها وكالات الأنباء العالمية ومراكز البحوث فى العالم، وكان عبدالناصر يقضى ليله ساهرا بين تلال التقارير والأوراق، وبينهما خط تيلفونى مباشر. وبذلك كان عبدالناصر على معرفة بكل ما يجرى فى العالم من احداث وتطورات بأسرع مما كانت تقدمه له أجهزة جمع المعلومات الرسمية. وعندما سئل هيكل عن سر مركزه الممتاز عند عبدالناصر وكان السائل الصحفى

اللبنانى سليم اللوزى صاحب مجلة «الحوادث» كان جوابه أن الذى صنع لى مركزى عند عبدالناصر شيء واحد.. هو قدرتى على خدمة الهدف العام الذى كان يسعى الى تحقيقه وليس هناك أى سبب آخر.. فقبل الثورة لم نكن اصدقاء.. ولم أعرفه إلا قبل ثلاثة أو أربعة أيام من قيام ثورة ٢٣ يوليو ولم أكن اقرب الناس اليه.. كان هناك من هو اقرب منى، احمد ابوالفتح، وإحسان عبدالقدوس، وحلمى سلام.. كذلك لم أكن واحدا من الضباط الأحرار.. واى حيز أخذته من تقديره مرجعه شيء واحد هو قدرتى على خدمة الهدف الذى يسعى اليه.

ولكن هل صحيح ان هيكل لم يعرف عبدالناصر إلا قبل أيام معدودة من قيام الثورة؟

لقد كانت هذه المسألة مثار بحث من جانب الكاتب الصحفى» رشاد كامل فى كتابة ثورة يوليو والصحافة ونفهم منها أن هيكل تعرف الى عبدالناصر اثناء الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ أثناء حصار بعض القوات المصرية فى الفالوجة وكان هيكل يعمل محررا عسكريا لصحيفة «أخبار اليوم» والتقى بعبدالناصر اثناء الحصار وكانت تلك بداية العلاقة وكان اللقاء الثانى اثناء حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ وقد التقيا بالصدفة فى شارع فؤاد.. وقد أشار هيكل الى هذا اللقاء فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» على النحو التالى:

فى صباح يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ اتصل بى الأستاذأحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى. مصر الفتاة سابقا. يسألنى ماذا أفعل فى

مكتبى والشارع المصرى يحترق ويغلى؟! ونزلت فإذا الظروف تتيح لى متابعة حريق القاهرة من الذهب الى الرماد وإذا بين من ألقاهم وسط الدخان البكباشى جمال عبدالناصر الذى كنت قد التقيت به لأول مرة فى عراق المنشية أيام حرب فلسطين. وقد نزل مع غيره من الضباط الى شوارع العاصمة المشتعلة بالنار بعد ان عجز البوليس عن السيطرة على الموقف.

أما اللقاء السابق على قيام الثورة فقد تم عندما تسربت أخبار الانقلاب الى الحكومة وقام وزير الداخلية محمد هاشم باشا باستدعاء اللواء محمد نجيب فى ساعة متأخرة من ليلة ١٨ يوليو ليعرض عليه تعيينه وزيرا للحربية، وفى أثناء الحديث قال له ان القصر الملكى توصل الى أسماء الضباط الذين يعتزمون التمرد ضد الملك، وعاد نجيب الى بيته قلقا وبات ساهرا حتى الصباح خوفا من انكشاف امر الانقلاب.. ثم يستطرد نجيب قائلا، وفوجئت بحضور الصاغ جلال ندا الضابط السابق الذى كان يعمل محررا عسكريا لاخبار اليوم ومعه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» لسؤالى عما تم فى مقابلتى مع هاشم باشا وزير الداخلية واستبدت بى الدهشة عن سر معرفة المقابلة، وكنت أعرف هيكل منذ كان مراسلا حربيا اثناء معركة فلسطين وحضر لتغطية الموقف العسكرى عقب معركة أسدود. وأثناء جلستنا فوجئت بحضور البكباشى جمال عبدالناصر والصاغ عبدالحكيم عامر على غير موعد، ولما وضح من حركتهما انهما يريدان ان يسرا الى بشىء ما اخذتهما من الصالون الى غرفة

الطعام المجاورة، ولكن بعد أن طلب هيكل ان اقدمه لهما وكان لقاؤه الأول لهما.

وفى هذه الجلسة مع عبدالناصر وعامر تحدد موعد الثورة.

وكلام اللواء نجيب يزيد الأمر غموضا.. إذ كيف يطلب هيكل منه ان يقدمه الى عبدالناصر رغم المعرفة القديمة بينهما فى فلسطين ثم اثناء حريق القاهرة قبل ستة شهور من الثورة؟! اما رواية هيكل عن هذا اللقاء الذى تم فى بيت محمد نجيب فهى كالتالى:

فى هذا الوقت دخل منزل محمد نجيب شخصان الأول كان جمال عبدالناصر ومعه شاب يرتدى قميصا ابيض وبنطلونا رماديا. عرفت فى حينه انه عبدالحكيم عامر الذى لم أكن قد تعرفت اليه، وتردد عبدالناصر فى الدخول، ولما كان لا يريد التحدث مع محمد نجيب أمام احد، فإنه أشار على نجيب وغادروا المكان معا يرافقهما عامر، وبعد نحو ربع ساعة عادوا ودارت مناقشة بينى وبين جمال عبدالناصر.. وقلت مستفزا، إذا كان الجيش لم يتمكن من الدفاع بالقدر الكافى عن البلد فعليه على الأقل أن يدافع عن نفسه وعن كرامته.. فقال عبدالناصر ما الذى

يمكن ان يفعله الجيش؟! اجبته: لا أدرى.. وإنما المهم بعد ان حل الملك نادى الضباط أن يدافع الضباط عن انفسهم وكرامتهم.. فقال عبدالناصر، هل يقوم بانقلاب؟ ورد هيكل انه ليس مع فكرة القيام بانقلاب.

وكانت تلك بداية حوار لم يتوقف بين عبدالناصر وهيكل.

مجلة التحرير

بعد شهرين من قيام ثورة ٢٣ يوليه: صدرت مجلة «التحرير» عن إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة، فكانت أول مطبوعة تنطق بلسان العهد الجديد، وذلك قبل عام من صدور جريدة «الجمهورية» التى يحمل ترخيص صدورها اسم: جمال عبدالناصر.

صدرت «التحرير» فى حجم مجلة «روزاليوسف»، لتكون الواجهة التقدمية لحركة الجيش، وتعبر عن فكر الثورة واتجاهاتها، وليس كما يظهر فى الصحف الأخرى، وكان معظم كتابها من المعروفين بالنزعة اليسارية، وهو أمر متوقع إذا عرفنا أن رئيس تحرير المجلة الجديدة كان منتميا الى قسم الجيش فى منظمة (حدتو) الماركسية، وهو الضابط أحمد حمروش الذى سمع به القراء لأول مرة. أما بقية الكتاب والمحررين فكان الناس يقرأون مقالاتهم فى الصحف

السيارة مثل عبدالمنعم الصاوى، وعبدالرحمن الشرقاوى، وصلاح حافظ، وعبدالغنى أبوالعينين، وجمال كامل، وزهدى..

● ● كانت المجلة الوليدة تعكس روح الثورة وعزمها على إحداث تغييرات جذرية نابعة من المبادئ الستة الشهيرة، ولكنها أبدت اهتماما خاصا بالدستور بإعتباره الحصن الحصين للديمقراطية، ولم يقتصر نشاطها على المقالات المنشورة، بل طبعت ملصقات مرسوم عليها جندى يضع الدستور فوق سلاحة ويهتف: نحن حماة الدستور. ولم يكن هذا الاتجاه المتحرر يرضى بعض ذوى النزعة التسلطية فى مجلس الثورة، فاتهموا المجلة بالإنحياز لليسار ومعاداة أمريكا. وبعد صدور العدد الثالث خلع احمد حمروش من رئاسة التحرير دون إخطاره، وعهدوا بالمجلة الى ضابط الفرسان المعروف: ثروت عكاشة.

● ● يقول أحمد حمروش عن مبررات إقصائه: لم يكن فى مواد المجلة ما يمكن أن يعتبر دعوة متطرفة، ولكن صفحاتها تدعو فى وضوح الى التحرير الوطنى، وتأكيد مبادئ الديمقراطية، ومهاجمة الإقطاع والإستعمار والرجعية، وعندئذ المجلة تعرضت لنقد شديد من جانب بعض أعضاء مجلس القيادة، وخاصة الذين كانت تربطهم صلات طيبة بالسفارتين الإنجليزية والأمريكية مثل عبدالمنعم أمين، وإنتهى هذا النقد الى اتخاذ إجراء بتعيين الصاغ ثروت عكاشة رئيسا للتحرير بدلاً منى، وقد علمت بذلك من

مطالعة الجرائد فى الصباح، وقد أصبح ذلك أسلوبا طبيعيا لنزع الموظفين من أماكنهم وتعيين بديل لهم دون إبلاغ أو مناقشة.

● ● ولم يكن اختيار الصاغ ثروت عكاشة من فراغ.. فهو أحد المشاركين الرئيسيين فى الاعداد وتنفيذ الثورة، وهو الذى أعد خطة استيلاء الضباط الأحرار على سلاح الفرسان - مع خالد محيى الدين وحسين الشافعى - ليلة الإنقلاب، وثانيا كان ثروت عكاشة من القلة العسكرية المشغولة بالثقافة والصحافة، ومنذ عام ١٩٤٥ كان يكتب مقالات فى جريدة «المصرى» بتوقيع: ثروت محمود، وفى عام ١٩٥١ التحق بالمعهد العالى للصحافة الذى كان يشرف عليه الدكتور محمود عزمى، وحصل على دبلوم الصحافة مع يوسف السباعى ومحمود عبدالمنعم مراد وأخرين، وكانت تلك مسوغات اختياره للاشراف على مجلة «التحرير». فأنطلق بها انطلاقة واسعة، وفتح صفحاتها لكبار الكتاب والشخصيات العامة من امثال عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية، وفكرى أباظة، وأحمد بهاء الدين، وفتحى غانم ويوسف إدريس ومصطفى محمود، أما الدكتور طه حسين فقد نادى على صفحات «التحرير» بأن يعترف الضباط الأحرار بالواقع، ويقلعوا عن وصف ما فعلوه بأنه «حركة»، وأن يخلعوا عليها وصف «ثورة» وكان وصف «الحركة» قد تحول الى «النهضة» لفترة قصيرة تم خلالها اطلاق اسم «النهضة على شارع الملكة نازلى، ثم استقر نهائيا على اسم «شارع رمسيس».

● ● وكان بعض قادة الثورة يطيب لهم نشر مقالاتهم على صفحات «التحرير» بإعتبارها الابنة الشرعية لهم فى مجال الصحافة. وزاد اهتمام المجلة بموضوع الديمقراطية، حتى أنها تبنت استفتاء شعبيًا على مدى شهرين لاستطلاع آراء القراء فى الدستور الجديد الذى عكفت لجنة الخمسين على إعداده برئاسة على ماهر، ونشرت صور محمد نجيب وجمال عبدالناصر وهما يملآن استمارة الاستفتاء حتى تثبت للكافة حرص الثورة على النهج الديمقراطى، وكتب ثروت عكاشة تحت عنوان (نحن والديمقراطية) افتتاحية قال فيها: ان من قاموا بالثورة هم أكثر الناس إيمانا بالديمقراطية، ولن يكونوا إلا كذلك، لأنهم أبناء هذا الشعب الذى يتطلع الى الديمقراطية.

● ● وحققت «التحرير» فى سوق التوزيع أرقاما قياسية أثارت غيرة الصحف والمجلات الأخرى، فأخذوا يكيدون لها، ويوغرون صدور بعض أعضاء القيادة ضدها، ويضرب ثروت عكاشة مثلا على ذلك: المجلة كانت تصدر يوم الأربعاء مرتين فى الشهر، وكان هذا يوم صدور مجلة قديمة راسخة فى السوق هى مجلة «آخر ساعة». وكانت الأخيرة توزع قبل صدور مجلة التحرير ما يقرب من سبعين الف نسخة فى الأسبوع، فضلا عما كانت تتمتع به من مكانة من الحقلين السياسى والصحفى، وبعد ظهور «التحرير» بفترة وجيزة: هبط توزيع «أخر ساعة» الى (١٦) الف، بل (١٤) ألف أحيانا، وعجزت حتى فى أيام الأربعاء التى لا تصدر فيها «التحرير» عن أن تعود الى توزيعها القديم، الأمر الذى أثار القلق

فى نفوس أصحابها وفى هيئة تحريرها، وحاولت أن تستعيد ثقة الجماهير بالدراسة والإحصاءات وتحليل أسباب الهبوط، وعندما فشلت جميع الوسائل: بدأ أصحاب الدار يسلكون سبيلا آخر هو استعداء السلطة على مجلة التحرير: تارة بتصويرها على أنها «نشرة حمراء». وتارة أخرى بتصويرها على أنها خرجت على أهداف الثورة، وحين أصدرت المجلة بتاريخ ٣ يونية ١٩٥٣ العدد (١٩) حاملا تحقيقا مفصلا ومصورا ومدعما بالمستندات عن الصحافة بلونيها المعادى للإستعمار، والمساير له تحت عنوان «لا تزيفوا تاريخ الأبطال» استعدى أصحاب تلك الدار وزير الأرشاد - صلاح سالم - والراجح انهم نجحوا فى استمالته، وطلب منى جمال عبدالناصر ان اغير يوم صدور المجلة الى الثلاثاء بدلاً من الأربعاء، واعتذرت حتى النهاية عن تلبية هذه الرغبة التى أعلم مصدرها، وأشهد انه لم يعد مرة ثانية الى الإلحاح فى طلبه الأول.

● ● وكان صمود ثروت عكاشة أمام خصومه فى مجال الصحافة، أهون بالقياس الى خصومه فى مجلس الثورة وعلى رأسهم صلاح سالم.. وكان الصدام الذى قصم ظهر البعير.. وتلك قصة أخرى.

سيف بتار على رأس الصحافة

لم تتخلف صحيفة مصرية عن تأييد الثورة فور قيامها فى ٢٣ يولية ١٩٥٢، وعبرت كل الصحف عن ابتهاجها لخلع الملك فاروق، وطرده، وكانت معظم الصحف الوطنية والثورية قد ساهمت فى زعزعة عرشه، والحط من شأنه فى عيون الجماهير، وذلك عن طريق نشر مباذله التى كانت تزكم الأنوف، واقتباس المقالات والأخبار التى كانت تنشرها الصحف الأوربية والأمريكية عن تصرفاته الخليعة فى الداخل والخارج. وكان النشر يستلزم الحذر حتى تفلت الصحف من مقص الرقيب. وكان لهذا النشر أثر كبير لدى الرأى العام، فهبطت سمعة الملك الى الحضيض، وتمنى الناس زواله. ولاشك أن مؤرخى الصحافة لابد أن يذكروا الدور التنويرى الذى قامت به «المصرى» و «وروزاليوسف» و «الاشتراكية» التى نشرت تحقيقا مصورا عن الفقراء والمعدمين تحت عنوان: رعاياك يا مولاى.. وكذلك جريدة «الجمهور المصرى» التى كان يصدرها أبو

الخير نجيب، ولا تتحرج من نشر الفضائح بأسلوب صريح. فضلا عن الصحف اليسارية مثل الملايين وغيرها.

● ● ولعبت الصحف الدور الأساسى فى تأييد الثورة، والتفاف الجماهير حولها من خلال متابعة أخبار «الإنقلاب» وتحركات وخطب قائد «الحركة» اللواء محمد نجيب، وهو الوجه الوحيد الذى أطل على الناس فى العهد الجديد. ولم تعرف الجماهير الدورالخفى لبقية الثوار على رأسهم جمال عبدالناصر - إلا بعد مضى فترة من الزمن استغرقت عدة شهور.

إلا أن تأييد الصحف المصرية للثورة لم يستمر على إطلاقه، طويلا، وبدأت مواقف الصحف تتباين وتختلف وفقا لانتماءاتها الحزبية والسياسية، وتبعا للتحولات التى طرأت على مسيرة الثورة، والإجراءات التى اتخذتها حيال الأحزاب والنظام الدستورى.

● ● فالمصرى - التى احتضنت الثورة من قبل قيامها، من خلال العلاقة الحميمة بين أحمد أبوالفتح وجمال عبدالناصر، أندفعت فى تأييد الثورة طوال شهورها الأولى، وظل عبدالناصر حريصا على قضاء سهرته اليومية فى مكاتب جريدة «المصرى» مثلما كان يفعل فى الماضى، وكان أبوالفتح يرى فى انتصار الثورة نجاحا لنضاله ضد الفساد الملكى، ويستبشر خيرا فى عودة الحياة النيابية والحكم المدنى واحترام الدستور، فلما تغيرت اتجاهات الريح داخل مجلس الثورة، بفعل العناصر المدنية وتأثيرها على الضباط الشبان، استشعر أبوالفتح الخطر، وشمر عن ساعد الجد، وبدأ يكتب

سلسلة من المقالات العنيفة ضد التيار الاستبدادى الذى ينادى بحل الأحزاب وإلغاء الدستور، وبقاء الضباط فى الحكم، وكانت هذه المقالات تقابل بالامتعاض من جانب التيار المعاكس فى مجلس الثورة، ومع ذلك كانت الرقابة تسمح بنشر هذه المقالات لسببين. الأول: إيهام الناس بأن حرية الصحافة بخير بدليل نشر مقالات أبوالفتح، والثانى: مراعاة الصلة الوثيقة بين عبدالناصر وصاحب «المصرى».

● ● وانتصر التيار الدكتاتورى وأصدر مجلس الثورة قرارا بحل الأحزاب وإلغاء الدستور، وتشكيل لجنة من خمسين شخصا لاعداد دستور جديد. ولاحظ أحمد أبوالفتح ان اللجنة تتعمد البطء فى مهمتها فكتب مقالا ساخنا انتقد فيه اللجنة، فما كان من الرقيب إلا أن منع نشر المقال إلا بعد عرضه على الصاغ صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة والمشرف على الرقابة الصحفية، فأمر بوقف الطبع إلى أن حضر إلى مقر «المصرى» ومعه مقال مضاد يرد فيه على مقال أبوالفتح، وجعل عنوانه: «الباكون والمتباكون» يسخر فيه من «المتباكين» على الدستور، ولم يسمح بطبع الجريدة إلا بعد أن تم وضع مقاله إلى جوار مقال ابو الفتح فى نفس الصفحة.

● ● واتسعت دائرة الخلاف بين الثورة وصاحب «المصرى» حتى غلب عليه اليأس من وقف التيار المضاد لديمقراطية، فى الوقت الذى استسلمت فيه الكثرة من الكتاب والصحفيين للتسبيح بحمد النجوم الصاعدة فى مجلس الثورة، مثلما كانوا يفعلون من تمجيد

«الفاروق» حتى أن أحدهم كتب يقول: إن أية دولة متمدينة فى أى مكان فى العالم تتمنى أن يكون على رأس حكامها شاب جمع بين حنكة الشيوخ وحماسة الشباب، وسعة الإطلاع، ورجاحة العقل، وسعة الصدر وحب الديمقراطية، وصادق الوطنية، والحنكة السياسية: مثل الصاغ صلاح سالم(!!)

● ● والمعروف عن صلاح سالم أن من أبرز صفاته الرعونة والتهور وكان جمال عبدالناصر يصف تصرفاته بالصبيانية. وكان من سوء حظ الصحافة المصرية أنه كان المسئول عن الرقابة. وعندما احتدم الصراع بين التيار الديمقراطى والجناح الدكتاتورى: لم تتحمل قيادة الثورة الإنتقادات التى كانت تنشرها الصحف بالتحايل على الرقيب، وردا على هذه الهجمة الديمقراطية دعا قادة الثورة الى مؤتمر جماهيرى احتشد فى ميدان عابدين يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٣وخطب فيه محمد نجيب وجمال عبدالناصر. وصلاح سالم وحملوا فيه حملة شعواء على خصوم الثورة، وكان أخطر ما اعلنوه فى المؤتمر تشكيل محكمة الثورة للتنكيل بالخونة (!!) أما صلاح سالم فقد سدد طعنات قاتلة الى الصحافة ووجه الإتهام الى «المصرى» بالعمالة لحساب الإنجليز(!!) وكان مما قاله: اسمحوا لى، وأنا وزير الإرشاد، أن أعلن بقوة وحزم، أن الرقابة على الصحف ستظل بتارة، تصنع سيفها فوق كل رأس مخربة تريد أن تبلبل الأفكار وأن تشيع الفرقة والإنهيار فى صفوف الشعب...

وأننا سنطهر بقوة وحزم كل ركن من أركان هذه الدولة.. ولن نتساك فى هذا المضمار يا صاحبة الجلالة(!!)

وكانت هذه الكلمات الرعناء مقدمة لحملة عنيفة ضد الصحافة وضد حرية الرأى والفكر.. وبدأت الصحافة تساق الى الخندق المظلم حيث توالت عليها الضربات.

الكلمة .. واللكمه

فى بلاط صاحبة الجلالة جنود مجهولون.. لا يعرف القراء أسماءهم أو صورهم، أولئك هم المصححون الذين يقرأون كل عبارة وكل كلمة فى الجريدة قبل الطبع، ويصححون الأخطاء اللغوية التى يقع فيها الكتاب والمحررون، أو الأخطاء المطبعية التى تحدث أثناء عملية صف الحروف، ويتحملون مسئولية ظهور الجريدة وهى فى أكمل صورة من حيث سلامة اللغة. ولذا يحتفظ قسم التصحيح بالمعاجم اللغوية كى يعود إليها إذا استشكل عليه أمر يتعلق بقواعد الأعراب والنحو والصرف، كذلك من اللازم أن يحتفظ قسم التصحيح بالمصحف الشريف - ولا يعتمد على ذاكرته - ليتأكد من صحة الآيات القرآنية. لأن القارئ قد يتهاون فى أى خطأ لغوى، ولكنه يثور إذا وقعت عينه على خطأ فى حرف أو إشارة أو نقطة فى القرآن الكريم، وتنهال هواتف الاحتجاج على مكاتب الجريدة. وتضطر الجريدة الى إعادة نشر الآية الصحيحة مقرونة بالاعتذار.

● ● ولا يكتفى فى المصحح أن يكون ضليعا فى قواعد اللغة، بل يجب أن يكون ملما بالمعلومات العامة مثل التاريخ والجغرافيا وأسماء رؤساء الدول والحكومات والمشاهير فى كل المجالات، وعليه أن يرجع الى دوائر المعارف والخرائط والموسوعات العربية والأفرنجية. كذلك عليه أن يكون على أعلى درجة من اليقظة أثناء قراءة البروفات، فلا يسهو ولا يغفل، وتتم عملية التصحيح شركة بين اثنين من المصححين، أحدهما يقرأ النص الأصلى بصوت مرتفع. والثانى تمسح عينه كل المطبوع فى البروفة، فإذا وقعت عينه على خطأ: بادر إلى تصحيحه على الهامش، وللمصححين رموز يفهمها جامع الحروف فيقوم بتنفيذها على شاشة الكومبيوتر، وبعد ذلك تدخل الصفحات مرحلة المراجعة للتأكد من تنفيذ كل ملاحظات التصحيح.

● ● والمصحح الذى يمضى فى هذا التخصص سنوات طويلة: يكتسب خبرة تتجاوز قواعد اللغة إلى أساليبها، ومنهم من بلغ مرتبة مرموقة فى الأدب والشعر، لعل أبرزهم الكاتب والشاعر المعروف كامل الشناوى الذى بدأ حياته الصحفية - بعد أن هجر الأزهر - مصححا فى جريدة «السياسة» التى كان يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل، وفى الفترة التى أشرف فيها الدكتور طه حسين على تحرير هذه الجريدة: اكتشف موهبة كامل الشناوى، وعهد اليه بكتابة مقالات قصيرة فتحت أمامه سبيل المجد الصحفى حتى صار رئيسا لتحرير «الأهرام».

• • ومن مشاهير المصححين المرحوم الأستاذ عبدالسلام شهاب، وقد أمضى الجزء الأكبر من حياته الصحفية فى دار الهلال،م ثم ختمها فى «الأهرام»، وكان أشبه بخزانة حية للتراث العربى تضم أثار الجاحظ والتوحيدى والأبشهيى وابن عبدربه، ولكنه آثر أن يعيش فى الظل، ويقال أن بعض المشاهير من كتاب القصة: كانوا يلجأون إليه لمراجعة أصول قصصهم، فيعيد صياغتها فى أسلوب رشيق ورصين حتى تظهر للقراء فى ثوب قشيب من تفصيل شهاب، ويبقى لصاحب الإسم المطبوع على غلاف الرواية الشهرة.

• • هناك سؤال يثور فى بلاط صاحبة الجلالة حول مدى مسئولية المصحح، وهل يحقق له أن يتجاوز وظيفته الى تصحيح الإعلانات بعد أن هبط مستوى تحرير الإعلانات، وتسربت إليها الكلمات العامية والتعبيرات السوقية والألفاظ الأعجمية المستقاة من اللغات الأجنبية، فالمعلن الذى يدفع قيمة الإعلانات، يتمسك بحقه فى صياغة الإعلان بالطريقة التى تلائم السوق، ولو كانت صادمة لمشاعر القارئ، أو تحطم قواعد اللغة... وهى قضية تحتاج الى وقفة حاسمة.

• • وتتفرع من هذه القضية: مسئولية المصحح عن إصلاح الأساليب الركيكة التى يقع فيها بعض الكتاب والمحررين. فالبعض يرفض رفضا باتا أى تغيير فى مقاله حتى لو كان متضمنا عبارة معوجة، أو معلومة خاطئة، ويرى فى ذلك نوعا من الوصاية والتدخل فى حريته، وهناك من يتقبل ذلك بصدر رحب.

وأعترف بأننى من النوع الثانى، وخلال السنوات التى كنت فيها مسؤلا عن صحيفة «الوفد» كان بعض المصححين يدخل مكتبى وفى يده نص مقالى، ويلفت نظرى الى بعض الأخطاء، وكنت أرحب بهذه الملاحظات وأوافق على تنفيذها، وأشد على يد المصحح مشجعا، لأننى كنت أرى فى ذلك إصلاحا لعيب، ورغبة فى تحقيق الكمال حتى تظهر الجريدة فى أبهى صورة. وعلى العكس كان بعض الكتاب والمحررين يغضب لأى تصحيح فى أسلوبه، ويرى فى ذلك انتقاصا لقدره.

● ● وما دمنا نتكلم عن التصحيح والمصححين لابد أننعترف بأن نسبة الأخطاء فى الصحف قد زادت بنسبة تثير الإزعاج، ويرجع ذلك الى ضعف مستوى خريجى أقسام اللغة العربية فى الجامعات والأزهر. وهى مشكلة تعود جذورها الى هبوط مستوى التعليم بوجه عام منذ المرحلة الابتدائية، فالتلميذ ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أعلى وليس معه سوى محصول ضئيل فى علوم اللغة وأساليبها، حتى إذا تخرج من الجامعة، وجد نفسه فى موقف حرج، فإذا دفعت به الرياح إلى بلاط صاحبة الجلالة تضاعفت أزمته، وانكشف ضعفه، حتى أن بعض المصححين يفعل عكس المطلوب منه، أعنى أنه يقوم بشطب الصحيح ويكتب الخطأ (!!)

وعندئذ يثور الكتاب ويحملون على قسم التصحيح، ومنهم من يكون رفيقا فى نقده للمصححين، ومنهم من يكون عنيفا مثل أنيس منصور.

● ● ومــن النــوع الأول، أذكــر أسـتـاذنا الكبـيـر مـحـمـد زكـــى عبـدالقـادر.. فـفـى أحـد مـقـالاته وقـع تحـريف، فظهـر لفظ (لـكـمـة) بدلا من (كلمـة) وكـانت مـفـارقـة غـريبـة بين كلمـتين تتـفـقـان فى الحـروف وتختلفـان فى المعنى، واستغل الأستاذ هذ المفارقة، وكتب فى اليوم التـالى مقالا بديعا فى عموده الشهير (نحـو النور) بجريدة «الأخبـار»، فصال وجـال حول العلاقـة بين الكلمة واللكمـة.. وقـال ان الكلمة يمكن أن تكون أشد قسوة من اللكمة.. وان الكلمة التى ينطق بهـا اللسـان يجب أن تسـبق اللكمـة التى تهـوى بهـا اليـد، وذلك نهج الحكماء والعقلاء الذين يفكرون قبل أن يفعلوا.. فـإذا حدث العكس ولجأ الإنسـان الى اللكمـة قبل الكلمـة كان ذلك دليـلا على افتقـاده الحجـة والبرهان والدليل.. والإنسـان لا يلجأ الى العنف إلا إذا فرغ معينه من التعقل والحكمة والإقناع.

● ● نســأل الله أن يمنحنـا قـوة الكلمــة.. ويمنع عنهـا قـســوة اللكمـة..

عبدالناصر فى صحافة ما قبل الثورة

عرفت الكثير عن حرب فلسطين من خلال ما كان يكتبه الصحفى الراحل حلمى سلام فى مجلة «المصور» منذ دخول الجيش أرض المعركة فى ١٥ مايو ١٩٤٨ وكان سلام ينشر قصص البطولات والتضحيات والهزائم. ومن خلالها تعرف على عدد كبير من الضباط الذين صاروا فيما بعد - حكاما لمصر بعد حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مثل محمد نجيب وجمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وكمال الدين حسين وصلاح سالم، بل إنه نشر أسماءهم فى مناسبات معينة دون أن تفطن الحكومة - أو أجهزة الأمن - الى أنهم أعضاء القيادة فى تنظيم الضباط الأحرار الذى تشكل من غضون هذه الحرب، كما نشر أول صورة لجمال عبدالناصر أثناء حضوره حفلا لتكريم الرياضيين فى دار الهلال قبل قيام الثورة بعامين، وتوطدت العلاقة بينه وبين قادة الثورة

وكتب (١٢) حلقة أسبوعية فى «المصور» تحت عنوان: حركة الجيش من المهد إلى المجد، واستقى معلوماته من جمال عبدالناصر، إلى أن وصل إلى سر اختيار لحظة قيام الثورة، وعندها طلب منه عبدالناصر التوقف، حتى لا يكون فى إفشاء السر محرضا على تكراره من جانب ضباط الجيش.

● ● يفهم من ذلك أن حلمى سلام كان موضع ثقة جمال عبدالناصر، وظل محتفظا بهذه الخطوة الى أن أطاحت به الأعاصير والصراعات بين الأجنحة الثورية داخل مجلس القيادة. وفى كتاب (ثورقيوليو والصحافة) أجرى المؤلف رشاد كامل حوارامطولا مع حلمى سلام روى فيه قصة علاقته بعبدالناصر من الألف إلى الياء، والعوامل أدت إلى تنحيته عن مواقع القيادة فى بلاط صاحبة الجلالة، الى أن لاقى وجه ربه منذ سنوات قلائل..

● ● كان أول لقاء بين عبدالناصر وسلام لقاء عابرا وبالصدفة: حول سرير الضابط الجريح معروف الحضرى فى مستشفى الحلمية العسكرى حيث كان يعالج من إصابة ميدان قبل الهدنة الأولى، وبعد نهاية الحرب وجه سلام الدعوة إلى الحضرى لتناول الغداء فى بيته، فلبى الدعوة وبصحبته ضابط شاب طويل القامة أسمر اللون هو: الصاغ جمال عبدالناصر، وقدمه له الحضرى بصفته صديق حميم جدًا له، ثم قدم سلام على أنه من الصحفيين المهتمين بحرب فلسطين وله مقالات كثيرة فى هذا المجال، وفى

تلك الجلسة طرح الصاغ جمال عبدالناصر أسئلة كثيرة جدا حول ما يدور فى مصر، وما جرى فى فلسطين والأسلحة الفاسدة.. الخ.

● يقول حلمى سلام: وما لفت نظرى أن عبدالناصر كان يسأل فقط.. ثم يصغى باهتمام لما أقوله أو يقوله معروف الحضرى، كان مستمعا جيدا جدا.. وذهنه مرتب جدا.. أما أهم ما لفت نظرى فى شخصيته فكان بريق غريب يشع من عينيه النافذتين.. وعندما تتحدث إليه: تجد عينيه مركزتين فى مواجهة عينيك.. وفى تلك الجلسة لم أسمع رأيا لعبدالناصر فى كل ما تبادلناه من حوار، كان مستمعا أكثر منه متحدثا، وفى نهاية الزيارة، وأنا أودعه عند باب الشقة.. أحسست من مصافحته لى، وضغطه على يدى، أننا صرنا أصدقاء.. وشعرت أنه سعيد أيضا بهذه المقابلة أو الزيارة، وبعدها بدأ جمال عبدالناصر يزورنى فى بيتى بمفرده، كل يومين أو ثلاثة أيام، وطالت جلساتنا، وفى كل جلسة لم تكن الموضوعات التى نتكلم فيها تخرج عن إطار الحرب، وما جرى فيها من فساد الملك فاروق والحاشية.

وبعد ذلك عرفنى بصديق عمره واخيه الروحى: عبدالحكيم عامر، وأذكر أن جمال قال لى عندما عرفنى به: خلى بالك يا حلمى.. دا خاله يبقى حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة.. رجل فاروق رقم واحد، وعندما لمح عبدالناصر الدهشة على وجهى من هذا التناقض الغريب قال لى: ما تخافش منه يا حلمى..!

● أما عن قصة أول صورة لجمال عبدالناصر تنشر قبل الثورة، فكانت عندما أقامت دار الهلال حفلا لتكريم أبطال مصر الرياضيين الذين احرزوا بطولات عالمية، ووجه حلمى سلام الدعوة الى أصدقائه من ضباط الجيش هم: اللواء فؤاد صادق، والاميرالاى محمد نجيب، والصاغ جمال عبدالناصر، وكان ذلك فى ٢٣ نوفمبر ١٩٥٠، وهى أول صورة تلتقط لعبدالناصر فى مكان عام قبل ١٩٥٢، ورغم وجود بعض عيون الأمن فى الحفل، إلا أن أحدا منهم لم يشك لحظة فى أن جمال هو العقل المدبر للثورة ورئيس اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار!

● أما أول مرة نشر فيها اسم عبدالناصر - قبل الثورة - فقد وردت فى مقال بالمصور لحلمى سلام عنوانه: «فلنحن رؤوسنا لجيش مصر إجلالا» فى ٢٢ سبتمبر ١٩٥٠، ردا على مقالات نشرت فى الصحف عن الفساد داخل الجيش. وما ثار من لغط حول شراء الأسلحة الفاسدة حتى ظن الناس ان كل الضباط لصوص ومرتشون وسماسرة وفاسدون، وتصدى حلمى سلام لهذا التشهير وقال ان مثول عشرة أو عشرين ضابطا أمام المحققين، لا ينسينا أن كثرة الجيش الكبرى لا تزال بخير.. لا تزال قوية الخلق والقلب والضمير، ويوم يقول اناس أن فى جيش مصر «لواء» قبل على نفسه أن يشترى لبلاده - وهى فى أقسى أيام محنتها - ذخيرة تالفة: سنقول لهم عندكم هذا اليوزباشى الصغير مجدى حسنين، فهو أسطورة من أساطير الشجاعة المجنونة.. «وعندكم من الشبان:

جمال عبدالناصر وصلاح سالم وكمال الدين حسين.. وأستطيع أن أعدد مئات الأسماء كان أصحابها أسودا لا مجرد رجال، وأسألوا عنهم رمال فلسطين، ترو لكم من ألوان رجولتهم ما يزرى بخيالات القصاصين».

● يقول حلمى سلام: ولم أكن أعرف أن هذه الأسماء تشكل اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى قامت بالثورة، وكانت هذه هى المرة الأولى التى قرأ فيها الناس إسم جمال عبدالناصر، قبل الثورة، بوصفه واحدا من أبطال حرب فلسطين.

صحفى من السفح إلى القمة

كان حلمى سلام صحفيا عصاميا، بنى مجدة فى بلاط صاحبة الجلالة بكفاحه، فقد توقفت به ظروف الحياة عند حدود التعليم المتوسط ولكنه استطاع بجهده وإصراره وحبه للصحافة أن يثقف نفسه حتى صار المع صحفى فى مجلة «المصور» بعد رئيس تحريرها فكرى أباظة، وعندما قامت ثورة يوليو كان من أقرب الصحفيين إلى قائدها محمد نجيب، ورأسها المدبر جمال عبدالناصر، والتحم بالثورة كحدث ضخم فى تاريخ مصر، وأمل كان يتمناه لاصلاح البلاد من مفاسد العهد السابق. ومن هنا جاءت صلته الوثيقة برجال العهد الجديد «لدرجة أننى كنت أعتبر نفسى واحدا منهم. وما يهمهم يهمنى.. ولو انضربوا فسوف انضرب بالتأكيد». وجند حلمى سلام صفحات «المصور» لتغطية نشاط قادة الثورة، والحديث عن كل صغيرة وكبيرة تصدر عنهم.. حتى هواياتهم الشخصية ومأكلهم وملبسهم وطوالع نجومهم.

ولم يشفع له كل ذلك فى الحفاظ على موقعه المتميز، أو يجنبه مخاطر التنكيل والزراية به، فمن ناحية أثار عليه حفيظة أصحاب «دار الهلال»، اميل وشكرى زيدان، فاخذوا يضيقون عليه الخناق، ويمنعون نشر مقالاته، كى «يطفش» من «المصور». من ناحية أخرى أثارعليه نقمة بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين أخذوا عليه إسرافه فى الدعاية لمحمد نجيب. وعندما تشبع بفكرة الخروج من «دار الهلال»، كلفه جمال عبدالناصر بالإشراف على مجلة «التحرير» بعد ثروت عكاشة وأحمد حمروش. واصدارها أسبوعيا بدلا من كل أسبوعين. وتسليم نفسه إلى أنور السادات الذى كان فى ذلك الوقت مديرا لدار التحرير «الجمهورية» التى كانت تصدر عنها المجلة، ولم ينظر السادات بارتياح إلى الضيف الجديد. رغم العلاقة القديمة بينهما، فعندما كان السادات سجينا فى قضية اغتيال أمين عثمان، استكتبه حلمى سلام سلسلة مقالات عنوانها «ثلاثون شهرا فى السجن» مقابل خمسة جنيهات عن كل مقال، كانت بمثابة دخل كبير للسجين.

وفى مجلة «التحرير» وقع الرجل بين مطرقة السادات، وسندان صلاح سالم وزير الارشاد والرقيب العام على الصحافة، وكان سلام يسميه «وزير دعاية صلاح سالم وليس وزير دعاية الثورة» بسبب عشقه الشديد للدعاية لنفسه حتى لو كان فى ذلك خروج على المألوف، ويروى مثلا على ذلك حكاه سلام لرشاد كامل يثير السخرية والحزن فى وقت واحد. فبعد جولة قام بها الوزير صلاح سالم فى سوريا ولبنان والعراق أرسل «٣٨» صورة فوتوغرافية له

خلال الرحلة طالبا نشرها بالكامل فى المجلة دون نقصان، وظن سلام فى البداية أن الوزير يمزح، ورأى فى تنفيذ رغبته مثارا لسخرية الناس عندما تصدر المجلة وهى لا تضم سوى صور الوزير من الجلده إلى الجلدة - ونشر سلام عشرة من هذه الصور، ومنها واحدة على الغلاف، بالاضافة إلى مقال كتبه رئيس التحرير عن الرحلة الميمونة.

يقول حلمى سلام: وما أن صدر العدد حتى فوجئت بالسماء تنطبق على الأرض.. ففى المساء كان هناك اجتماع لمجلس قيادة الثورة برئاسة جمال عبدالناصر، وفوجىء أعضاء المجلس بصلاح سالم ينتقض فى حالة هياج، ويطلب منهم التوقف عن المناقشة لبحث الموضوع الخطير الذى حدث. وتكهرب الجو.. وتصور الجميع أن هناك كارثة سياسية قد وقعت. وسأله جمال عبدالناصر: موضوع ايه يا صلاح؟ فانطلق يروى لزملائه أنه يتعرض لحرب من جانب حلمى سلام لأنه أرسل إليه «٣٨» صورة، فلم ينشر منها سوى عشر فقط!! وابتسم جمال عبدالناصر وجذب نفسا عميقا من سيجارته وقال له: يا صلاح.. ده لو بيحاربك زى ما بتقول.. كان عمل فيك مقلب ونشرها كلها.

وفشل عبدالناصر فى تهدئة صلاح سالم الذى هدد عبدالناصر قائلا: إذا لم تفصل حلمى سلام من مجلة «التحرير» سأستقيل من مجلس قيادة الثورة الآن! فماذا كان تصرف عبدالناصر؟

يقول حلمى سلام: فى ذلك الوقت بالضبط كان صلاح سالم يتمتع بشعبية كبيرة.. ولذلك انحنى جمال عبدالناصر لعاصفة صلاح سالم بعد ان فشل تماما فى تهدئته رغم انه كان مقتنعا بما فعلته صحفيا وتلك احدى صفات عبدالناصر الانحناء للعاصفة الى أن يختار هو الوقت المناسب ليضرب ضربته.

وطلب عبدالناصر من أنور السادات ان يبلغ - بنفسه - حلمى سلام بأنه فى أجازة مفتوحة، لكن السادات استكبر على ابلاغه وطلب من سكرتيره أن يقول لحلمى سلام فى التليفون: جناب البكباشى أنور السادات بيطلب منك أن تلزم بيتك فى اجازة مفتوحة. وقبع الرجل فى بيته، الى أن اتيحت له مقابلة عبدالحكيم عامر فحكى له ما جرى عن طريق السكرتير فثار عامر وقال: ان اتفاقنا ان يبلغك السادات بنفسه، وفى تلك اللحظة دخل السادات فانفجر فيه عبدالحكيم وابتسم السادات واسرها فى نفسه ظنا بأن سلام كان يشكوه واضافها الى رصيده المختزن.. وظل حلمى سلام فى زاوية النسيان لمدة أربعة عشر شهرا. وذات يوم استدعاه صلاح سالم واحتضنه وهو يبكى.. وطلب منه أن يتولى رئاسة تحرير مجلة «الاذاعة» التى كانت تصدر عن وزارة الارشاد.. ودخل الرجل فى منعطف جديد.

مذبحة الصحفيين الأولى

فى أواخر عام ١٩٦٤ وقعت أول مذبحة للصحفيين عندما أصدر حلمى سلام رئيس مجلس إدارة مؤسسة دار التحرير قرارا باستبعاد أربعين من كبار الكتاب والصحفيين بجريدة «الجمهورية»، وتم توزيعهم على مؤسسات وشركات القطاع العام، وكانت صدمة عنيفة للصحفيين جميعا وقد شعروا أنهم تحولوا - فى ظل قانون تأميم الصحافة الصادر فى مايو ١٩٦٠ - إلى موظفين يخضعون للوائح النقل والتأديب مثل موظفى الحكومة، الأمر الذى أكد للعالم أن الصحافة المصرية باتت جزءا من الجهاز الحكومى، وأنها فقدت استقلالها، ولم تعد حرة للتعبير عن الرأى.

●● وانعقدت الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين برئاسة النقيب حافظ محمود الذى سجل فى محضر الاجتماع أن نقل الصحفيين صدمة لا يكفى فيها الأسف وإنها بداية يمكن أن تتكرر،

وارتفعت درجة الغليان فى صفوف الحاضرين وطالبوا بإحالة حلمى سلام إلى المحاكمة، وشطب اسمه من جدول المشتغلين بالصحافة، وتنحيته من رئاسة دار التحرير، وعن عضوية أمانة الصحافة بالاتحاد الاشتراكى، وقوبلت الاقتراحات بموافقة إجماعية من الأعضاء، ورغم هذه الضجة بقى حلمى سلام فى موقعه على رأس المؤسسة غير عابئ بالقرارات التى صدرت عن الجمعية العمومية، وعندما رفعت هذه القرارات إلى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى - برئاسة جمال عبدالناصر - لم يلتفت إليها أحد، أما قرار فصله من نقابة الصحفيين: فقد اعترض عليه مستشار مجلس الدولة بوزارة الإعلام، على أساس أن قانون نقابة الصحفيين لا يجيز فصل العضو إلا فى إحدى حالتين: ارتكاب عمل يخل بشرف المهنة، أو وقع فى جريمة خيانة الوطن، وعلى هذا أخمدت الزوبعة التى ثارت فى الوسط الصحفى، وإن بقيت معالم هذه المذبحة معلقة برقبة حلمى سلام، باعتباره أول من فتح باب الشيطان لإقصاء الصحفيين عن مهنتهم، وهو الأمر الذى تكرر فيما بعد.

● ● لقد حاول حلمى سلام أن يدافع عن نفسه، ويشرح خلفيات هذا التصرف عندما أرغمه جمال عبدلناصر على أن يتولى رئاسة مؤسسة التحرير رغم أنفه، لمعرفته بحقيقة المتاعب والمشاكل التى تنتظره لو قبل هذا التكليف، لدرجة أنه لجأ إلى المشير عبدالحكيم عامر لكى يتدخل لدى عبدالناصر لإعفائه من دخول هذه المنطقة

البركانية، ولكن عامر عاد إليه بعد يومين ليقول له أن الرئيس لم يقبل عذرك. ويقول حلمى سلام فى شهادته إلى رشاد كامل: لحظتها أحسست أن صاعقة وقعت على رأسى.. ثم عاد المشير ليقول لى: للريس طلب محدد هو أن تتخفف الجمهورية من ٥٠٪ من حجم العمالة بها، وبالنسبة للديون: فهو سيعطيك ٣٥٠ ألف جنيه لتسدد بها ديون المؤسسة، وتتصرف من عندك فى بقية الديون وهى عشرة آلاف جنيه، وبالنسبة للأسماء التى سوف ترى التخفف منها: فإنهم سينقلون إلى المؤسسات الصحفية الأخرى.. هكذا قال لى الريس.

● ● وأبدى حلمى سلام دهشته من ضخامة حجم العمالة المطلوب توفيرها وهى ٣٠٠ شخص. واقترح أن تكون فى حدود أربعين فقط. كذلك اقترح عبدالناصر إغلاق جريدة «المساء» بعد أن تضخمت خسائرها، ولكن سلام رفض هذا الاقتراح ووصفه بأنه كارثة، وعندئذ وافق عامر على إرجاء غلق المساء وإعداد كشف بالمطلوب نقلهم، وعكف سلام على إعداد تقرير يتضمن الأسماء المرشحة للنقل. وتتضمن أسماء لامعة مثل: سعدالدين وهبة، ومحسن محمد، وناصر النشاشيبى، وعبدالمنعم السباعى، وعبدالحميد سرايا، وعبدالرحمن الشرقاوى. وبعدالرحمن الخميسى، وإبراهيم الوردانى، وسعد مكاوى.. وغيرهم، وفى نفس الوقت طلب الاستعانة ببعض الصحفيين من المؤسسات الأخرى. وكان أساس الإبعاد يقوم على ثلاثة اعتبارات:

● صحفيون يتزعمون أحزابا وشللا.

● صحفيون لا يمكن التعاون معهم

● صحفيون زائدون عن حاجة المؤسسة ويمثلون عبئا ماليا عليها.

وبعث حلمى سلام بالتقرير والأسماء إلى المشير عامر، فأبدى موافقة ولكنه طلب مهلة حتى يعرض الأمر على عبدالناصر، وبعد ثلاثة أيام جاء الرد - ليس من عامر - ولكن من عبدالناصر نفسه، وفيه موافقة على نقل جميع الأسماء التى اقترحها، ماعدا اسمين فقط هما: سامى داود، وناصر النشاشيبى، الأول لأنه يشرف على إصدار نشرة «الاشتراكى» عن الاتحاد الاشتراكى والثانى لأنه فلسطينى.

● ● ولكن الصحفيين نقلوا إلى شركات ووظائف حكومية، وليس إلى مؤسسات صحفية كما ذكر. وفى ذلك يقول حلمى سلام أن عبدالناصر أعطى الكشف إلى الدكتور عبدالقادر حاتم - رئيس مصلحة الاستعلامات - لتنفيذ النقل إلى المؤسسات الصحفية، واجتمع برؤساء هذه المؤسسات: هيكل عن الأهرام، أحمد بهاء الدين عن الهلال، خالد محيى الدين عن أخبار اليوم، أحمد فؤاد عن روزاليوسف، فاعتذروا جميعا عن قبول أى صحفى عندهم، بسبب ضخامة مرتباتهم الأمر الذى يسبب صدامات مع زملائهم بنفس المؤسسة، وعاد الكشف إلى عبدالناصر،فأمر بالحاقهم

بإدارات العلاقة بشركات القطاع العام. لأنه كان مقتنعًا بأن العلاقات العامة فى هذه المؤسسات فاشلة، ولذلك لا يتابع الناس إنجازات القطاع العام لأنهم موظفون وليسوا صحفيين، وأعطى الدكتور حاتم الكشف إلى على صبرى - رئيس الوزراء - فقام بتوزيع الصحفيين عشوائيا بنسبة ١٠٠٪، ولم ينظر بتاتا إلى الخبرة. ونقل الصحفيون إلى مواقع لا علاقة لها مطلقا بالصحافة مثل شركة «باتا» المتخصصة فى صناعة الأحذية وشركات الأخشاب واللحوم.. إلخ

●● يقول حلمى سلام: والحقيقة أن عبدالناصر نفسه فوجئ بهذا التوزيع العشوائى للصحفيين، كما فوجئت به أنا أيضا، فقد كان شرطى أن يذهبوا إلى مؤسسات صحفية، فذهبت إلى المشير محتجًا على ذلك التوزيع، فكان رده فى غاية الغرابة، إذ قال لى: يا حلمى أنت مش مغسل وضامن جنة (!!) أنت كتبت أمام اسم كل صحفى اسم المؤسسةالصحفية التى يذهب إليها، وهنا ينتهى دورك.. ولا يعنيك أين ذهب (!!).

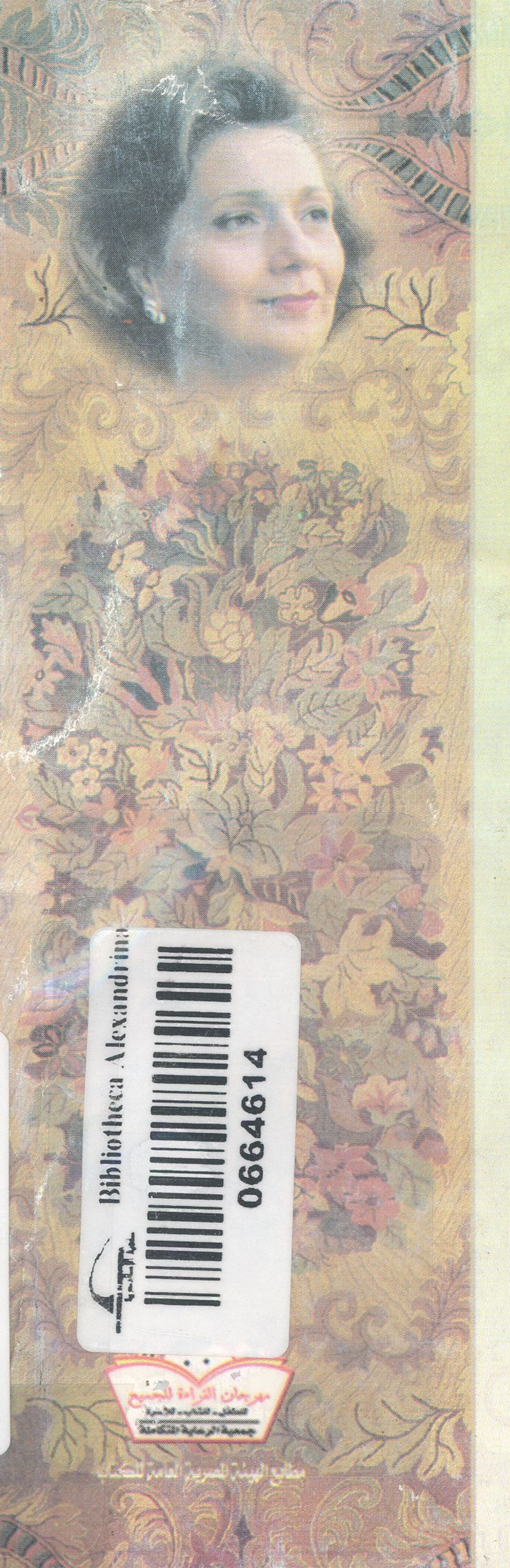
●● وسارت المذبحة فى طريقها.. وكان مشهدا أليما ومزريا أن ترى صحفيا حكم عليه العسف والطغيان أن يذهب صباح كل يوم إلى شركة الخشب أو اللحوم أو الصفيح، كى يمارس عملا لا يتعلق بالمهنة التى عشقها، فإذا لم يفعل أمسكت الشركة عن صرف راتبه.. وعاش فريق من الصحفيين ردها من عمرهم كالأيتام على موائد اللئام.

«فهرست»

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٣٨٣ / ٢٠٠٢

I. S. B. N 977 - 01 - 8268 - 0



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب